جوانب من
التاريخ العمراني والاجتماعي والاقتصادي في غزة
١٢٧٣ ـ ١٢٧٧ / ١٨٥٧ ـ ١٨٦١
من خلال الوثائق الشرعية

د. عبد الكريم رافق

كلية الاداب ـ جامعة دمشق

مازالت جوانب هامة من التاريخ الحضاري للاقطار العربية ، في مختلف عصورها ، مهملة الى حد كبير في الكتابات العربية . وقد اهتم الباحثون ، والى حد كبير في العقود الاخيرة ، بعدد من الجوانب العمرانية والاجتماعية والاقتصادية العربية ، امتدادا لاهتمامهم بهذه الجوانب في بلادهم ، وظهرت لهم دراسات معمقة حينا ، وسطحية حينا اخر ، في هذا المجال .

وغني عن القول ان التاريخ السياسي ، الذي انصب عليه اهتمام معظم المؤرخين العرب ، من الاهمية بمكان ، لانه يعطي ، حين يكتب بشكل متفهم ومتتبع للتيارات العميقة التي تنتظم الاحداث ، الخلفية التي تساعد على فهم النواحي الحضارية المختلفة . ولكل قوم طريقة عمرانهم ، وأساليب حياتهم الاجتماعية والاقتصادية . وبالرغم من شمولية الكثير من النواحي الحضارية وعالميتها ، فان الصفات الخاصة تبقى اساسية ، لانها هي التي تتفاعل مع المؤثرات الخارجية ، وينتج عنها مزيج معين ، يبرز ما هو عام وما هو خاص . لذلك ، والامة العربية تتعرض لتبدلات وتحديات حضارية جذرية ، على اكثر من صعيد ، يجدر بنا توجيه الاهتمام الكافي الى الاصيل في تراثنا لتبين المميزات الخاصة به .

(*) هذه الدراسة مبنية على سجل وحيد يعود لمحكمة غزة في الفترة موضوع البحث ، محفوظ في مديرية الوثائق التاريخية بدشق ، ويتالف من ٤٥٩ صفحة من القطع الكبير ، ويضم حوالي ٢٧٤٥ وثيقة . وتسهيلا للبحث فقد أشرنا، حيثدعت الحاجة ، الى الرموز المتعارف عليها للاشهر القمرية في التاريخ الهجري ،وما يقابلها في التاريخ الميلادي .

وبحثنا عن غزة اسهام بسيط في هذا النوع من الدراسات ، هدفه الكشف عن بعض الميزات العمرانية والاجتماعية والاقتصادية لمدينة هامة ،وثغر هام ، فيفلسطين، في فترة تعرضت فيها المنطقة بكاملها لمحاولات عثمانية فاشلة في الاصلاح ، ولمطامع الاستعمار والصهيونية .

★ ★ ★

وقد اعد هذا البحث عن غزة بمناسبة المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، الذي انعقد في الجامعة الاردنية بعمان في الفترة ما بين ٤ـ٩ جمادى الثانية ١٤٠٠هـ/١٩ـ٢٤ نيسان ١٩٨٠ م وتركزت ابحاثه حول فلسطين عبر التاريخ . وقد رأينا ، حرصا على تقديم هذا البحث لقراء مجلة (دراسات تاريخية) ، أن نختصر بعض الهوامش والتحقيقات ليسهل استيعابه في صفحات المجلة . ويمكن العودة للنص الاصلي للاطلاع على الهوامش والمصادر المختلفة .

★ ★ ★

١ ـ مقدمة :

لعبت غزة دورا هاما ابان الحكم العثماني . وكانت ، في معظم الاوقات ، صنجقا ، أو لواء ، في ولاية الشام . والحقت ، لفترة قصيرة ، بولاية صيدا ، وكذلك بمتصرفية ، ثم ولاية ، القدس ، كما في الفترة التي نحن بصدد دراستها .

واشتهرت في غزة ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر ، أسرة الأمير مصطفى ابي شاهين ، التي برز منها ابناه بهرام ورضوان . واشتهر كذلك ابن هذا الاخير ، أحمد ، الذي توفي في ١٥/١٠/١٦٠٦ . وعين هؤلاء الامراء حكاماً على صنجق غزة ، وشغل بعضهم حكم ولاية اليمن ومصر ، كما عهد اليهم بامارة الحج الشامي ، لسنوات عديدة . واشتهر من مماليك هذه الاسرة الامير فروخ بن عبد الله ، الذي حكم صنجقي نابلس والقدس ، وعين اميرا للحج الشامي، في الربع الاول من القرن السابع عشر(١) .

وبرز من ابناء غزة ، في القرن الثامن عشر ، حسين باشا ابن مكي ، الذي عين صنجقاً عليها ، وكانت تابعة لولاية الشام ، ثم نقل والياً على دمشق في عام ١٧٥٧ ، خلفا لاسعد باشا العظم(٢) ، واعتبره الاخباري الدمشقي المعاصر ، ميخائيل بريك ،

« من ثاني طائفة من أولاد العرب الذين صاروا وزراء في بلادنا »(٣) . وكانت الطائفة الاولى آل العظم(٤) .

واشتهرت غزة بمرور قافلة الحج الشامي فيها ، في بعض الاحيان ، اثناء عودتها من الحجاز ، لتحاشي هجمات البدو ، او لانقاذ ما يمكن انقاذه ، في اعقاب هذه الهجمات . وعرف الطريق الذي سلكته القافلة ، عبر غزة ، بالطريق الغزاوي ، تمييزا له عن الطريق الرئيسي ، المعروف بالطريق السلطاني(٥) . وذكر ان من اراد الحاق من الحجاج الشاميين بقافلة الحج المصري ، التي كانت تمر بالعقبة ، كان يمر بغزة في طريقه الى العقبة(٦) . وافادت غزة كذلك من وقوعها على الطريق التجاري ، الذي يربط بين بلاد الشام ومصر .

ويتبين من وثائق محكمة غزة الشرعية ان غزة كانت ، في فترة دراستنا ، صنجقاً ، أو لواء ، حكمه قائمقام ، لقب بالافندي ، والحق بالقدس ، التي كانت آنذاك ، كما يبدو ، ولاية قائمة بذاتها . وكان والي القدس ، في عام ١٢٧٣/١٨٥٦ — ١٨٥٧ ، اسماعيل كامل باشا ، الذي وصف بأنه متصرف الالوية . وأشار الى أمر صدر عنه بانه سطر « من ديوان متصرفيتنا ايالت قدس شريف ونابلس وغزة »(٧) . ويبدو أنه خلفه في ولاية القدس مصطفى باشا ثريا ، الذي وصف في أمر أصدره الى قائمقام غزة ، في٢٨ محرم ١٢٧٤/ (١٨ ايلول ١٨٥٧) ، بانه « متصرف القدس الشريف »(٨) . كما وصف في الاوامر اللاحقة التي اصدرها الى قائمقام غزة وكبار موظفيها بانه « والي الالوية » ، وان امره صادر من « ديوان الوية القدس الشريف وملحقاتها » .

وقد شغل قائمقامية غزة في فترة دراستنا هذه كل من مصطفى بك السعيد ، الذي عزل بموجب الأمر الذي ابلغه والي القدس ، مصطفى باشا ثريا ، الى المسؤولين في غزة ، بتاريخ ٢٨ محرم ١٢٧٤/(١٨ ايلول ١٨٥٧) ، وعين مكانه سالم افندي . ثم عزل هذا القائمقام ، وخلفه في حكم غزة عثمان افندي القاسم ، كما جاء في الامر المؤرخ في ١٧ ربيع الثاني ١٢٧٤/(١٥ كانون الاول ١٨٥٧) ، الذي ابلغه مصطفى باشا ثريا الى المسؤولين في غزة . وفي أمر لاحق من مصطفى باشا ثريا ، مؤرخ في ١٩ شوال ١٢٧٤/(٢ حزيران ١٨٥٨) ، الى المسؤولين في غزة ، ابلغهم انهاء قائمقامية عثمان افندي القاسم في غزة ، وتوجيه هذا المنصب الى مصطفى بك السعيد(٢) .

وأقام القائمقام في سراي غزة ، وتقع في الجانب الشرقي منها ، في مكان غير بعيد عن الجامع الكبير(٩) . وجاء في أوامر تعيينه ذكر المسؤوليات المترتبة عليه ،

مثل مطابقة أعماله للشريعة والقانون ، وتحصيل أموال الميري من محلاتها بأوقاتها ، وتوريدها الى الخزينة . ولعل المقصود بالخزينة هنا خزينة غزة التي اشارت اليها الوثائق . وحثت الاوامر القائمقام على الاهتمام بكافة السكان في غزة وخارجها ، وتأمين الأمن في الطرق .

وجاء تسلسل المسؤولين في غزة ، كما ورد ذلك في مطلع الأوامر الصادرة اليهم من قبل والي القدس ، وفق الترتيب التالي : قائمقام غزة ، وهو المعني الاول بتنفيذ الامر ، ثم نائب الشريعة حالا افندي ، اي القاضي الحنفي (ولم يذكر اسمه الا اذا كان الامر موجها اليه) . ومفتي افندي بها حالا ، وقائمقام نقيب السادة الاشراف بها حالا ، ثم اعضاء المجلس بها حالا . ولا نعرف شيئا عن تركيب هذا المجلس أو صلاحياته . واشارت الأوامر ، بعد ذلك ، الى أصحاب الالقاب التالية ، او بعضهم « وجوه البلدة ، مختارين المحلات ، مشايخ الحارات ، ارباب التكلم بوجه العموم ، ومفاخر القبايل والعشاير شيوخ مشايخ عربان الصف القبلي والشمالي ومشايخ العربان ومشايخ واختيارية قرايا بلاد غزة بوجه العموم » .

وقد عين قاضي غزة الحنفي ، الذي اشير اليه ، عادة ، بنائب الشريعة في غزة ، وأحيانا بخليفة الحكم الحنفي بمدينة غزة ، من قبل قاضي القدس ، الذي وصف بأنه منلا (مشتقة من مولى ، اي سيد) افندي الديار القدسية ، وذكر في قرار تعيين قاضي غزة انه نصب نائبا شرعيا بغزة هاشم ومجدل عسقلان . وكان والي القدس يؤكد تعيين القاضي بتوجيه أمر من قبله الى قائمقام غزة ، والى القاضي المعين ، والمفتي ، ونقيب الاشراف ، وأعضاء المجلس ، ووجوه البلدة ، وارباب التكلم بوجه عام ، يعلمهم فيه بتعيين القاضي الجديد وعزل سلفه ، ويوصيهم بأن يكون القاضي الجديد مرفوع المقام بينهم . ويهيب بالقاضي الجديد ان يتعاطى الاحكام على قاعدة ابي حنيفة وبتقوى الله .

وأشير ، عادة ، في أمر تعيين قاضي غزة الى مهامه الرئيسة التي خوله اياها قاضي القدس ، ومنها « مباشرة وتعاطي فصل الاحكام بين الاهالي ، وختم الصكوك الشرعية والسندات المرعية ، وتحرير التركات الغير جسيمة وتقسيمها بين مستحقيها ، ونصب الاوصياء والنظار من اهل الدين والصلاح ، وتزويج من لا ولي لهمن الصغار ، وانابة من شاء عند الحاجة(١٠) . وابلغ القاضي ، وغيره من كبار الموظفين ، بالتوجيهات الجديدة حين صدورها . ومما أبلغه ، مثلا ، ضرورة تطبيق المساواة العادلة بين السكان ، على اختلاف مللهم ومذاهبهم ، وذلك في أعقاب صدور خط شريف همايون في ١٨ شباط ١٨٥٦ ، الذي أقر المساواة بين السكان .

وابلغ القاضي ايضا ضرورة التأكد ، في عمليات شراء العقارات ، من هوية المشترين وجنسياتهم ، ومن صفة العقار ، ان كان ملكا ام وقفا . ومن صلاحيته (اي القاضي) النظر في امر العقار ،من حيث تبعيته لدائرته ام لدائرة قاض آخر ، وذلك في اعقاب صدور قانون الاراضي العثماني في عام ١٨٥٨ .

وشغل منصب القضاء في غزة ومجدل عسقلان ، في فترة دراستنا ، ثلاثة قضاة هم : مصطفى افندي ، وعلمي زاده السيد مصطفى وفا افندي (أي السيد مصطفى وفا افندي ابن علمي) ، الذي عين بموجب مراسلة من قبل والي القدس بتاريخ الاول من ربيع الاول ١٢٧٤/(٢٠ تشرين الاول ١٨٥٧) ، ثم عزل في الاول من ذي الحجة ١٢٧٦/(٢٠ حزيران ١٨٦٠) ، وخلفه صلاحي زاده السيد عبد الغني افندي .

ولا نعلم فيما اذا كانت الدولة قد اعتمدت في غزة ، أو قام فيها ، في الواقع ، قضاة من المذاهب الاخرى . ووردت معلومات في الوثائق الشرعية عن ممارسة المفتي الشافعي في غزة ، واسمه محمد نجيب افندي النخال ، عملية الافتاء ، الى جانب المفتي الحنفي . ولكن المفتي الحنفي بقي متمزا ، واشير اليه بانه مفتي غزة . وشغل هذا المنصب ، في فترة دراستنا ، السيد الحاج احمد محي الدين عبد الحي الحسيني . وكان نقيب الاشراف في غزة السيد صالح افندي عبد الحي الحسيني ، ولعله من اقرباء المفتي الحنفي . ولم يرد ، في الوثائق ، ما يشير الى هوية السلطات التي عينت كلا من المفتي الحنفي والمفتي الشافعي ونقيب الاشراف في غزة .

وضم لواء ، أو صنجق ، أو قضاء غزة ، عددا كبيرا من القرى ، تراس كلا منها شيخ عرف بشيخ القرية . وذكرت الوثائق الشرعية ، في فترة دراستنا هذه ، القرى التالية (١١): برير ، البطاني الغربي ، بعلين ، بيت جرجا ، بيت حانون ، بيت داراس (ذكرها العارف ، ص ١٩٧ ، بيت دراس)(١٢) ، بيت طيما ، بيت لاهيا ، تل الترمس ، جباليا ، الجسير ، جلين ، جولس ، الجية ، حتا ، الحديثة ، حمامة ، حميل الخيل (ذكر العارف ص ١٩٧ قرية حميل ، ولعلها نفسها) ، خان يونس ، دمرة ، الدوالية ، الدوايمة ، دورة ، الدير ، دير البلح ، دير سنيد (ذكرها العارف ، ص ١٩٧ ، دير اسنيد) ، ذكريا ، زرنوقة ، سدود (ولعلها أسدود) سمسم ، سوافير عودة ، سوافير المسالقة ، الشيخ مؤنس ، صامة (او حامة) ، عبسان ، عجور ، عراق المنشية ، الفالوجة ، القبيبة الغربية ،

القبيبة (وردت أيضا القبية) ، القسطينة ، اللتينة (وردت أيضا التينة)) المسمية ، معربيا ، المغـــار ، ثعلبا ، هربيا ، يبنـــا ، وكرين البردان . وبدهي ان هذه القرى لا تشمل جميع قرى لواء غزة .

★ ★ ★

٢ ـ مظاهر عمرانيـــة :

ميزت الوثائق الشرعية ، في تحديد مواقع المحلات والخطوط ، ومن خلالها مواقع العقارات ، في غزة ، بين داخل مدينة غزة وظاهرها . ومثل هذا التمييز ، بين داخل المدينة وظاهرها ، يقوم ، عادة ، كما في دمشق مثلا ، بالاستناد الى سور المدينة . ولم تشر وثائق غزة ، في فترة دراستنا ، الى وجود مثل هذا السور . ولاحظ كتاب (بيديكر)(١٣) ، في حوالي عام ١٨٩٠ ، زوال وجود السور ، كذلك زوال وجود بوابات المدينة . وهناك اشارة(١٤) الى وجود السور قبل ذلك ، والى ان البقية الباقية منه قد تهدمت ابان هجوم نابليون بونابرت . ولم يتبق منه الا بقايا قليلة ، بجوار مدرسة الفلاح الاسلامية(١٥) . وربما كانت تسمية داخل غزة وظاهرها تعود الى زمن وجود السور . ومهما يكن ، فالامر الثابت ان وثائق غزة الشرعية اشارت الى هذا التقسيم ، وان داخل غزة ضم سبع محلات ، وما عداها عرف بظاهر غزة .

ولم يتجاوز ظاهر مدينة غزة حدود اراضيها المباشرة ، التي توقفت عنـــد حدود اراضي القرى المجاورة لها . وتألفت الاراضي ظاهر مدينة غزة ، والتي اشير اليها بارض غزة ، من بساتين ، وحواكير ، كانت بجوار غـــزة المباشر ، كما في داخلها ، ومن كروم وموارس (جمع مارس ، وهي الارض الزراعية) . ومن جملة ما وجد في ظاهر غزة سوق الحمير .

ومن النقاط المشهورة ، ظاهر غزة ، ما اسمته وثائق غـــزة الشرعية بجبـــل المنطار . واشير اليه كذلك بتل المنطار ، وكان على ارتفاع ثلاثة وثلاثين مترا عـــن سطح البحر ، ويقع الى الجنوب الشرقي من غزة ، على مسافة خمس عشرة دقيقة منها . كما قدرت في حوالي عام ١٨٩٠ . وفيه عدد من القبور ، واختلف المسلمون والمسيحيون حول تسميته ونسبته اليهم(١٦) . ولا ندري اذا كان المنطار هذا هو نفسه الذي اعطى اسمه الى ضريبة (منطقة) عرفت بضريبة ولي الله تعالى الشيخ ابو علي المنطار ، وكانت ظاهر غزة ، من الجهة الشرقية .

وتالف داخل غزة ، في فترة دراستنا ، من عدد من المحلات (مفردها محلة) ، وربما عادلت الاحياء في التعبير الدمشقي وغيره آنذاك . وورد في وثائق غزة الشرعية استخدام كلمة « حارة » ، ولكن بمعنى مرتبك ، فمرة قصد بها محلة ، ومرة سمي بها زقاق . وقسمت كل محلة الى خطوط (مفردها خط) ، وهي ما يعادل الشارع الرئيسي . وكلمة « خط » مقتبسة من مصر ، حيث استخدمت للدلالة على الشارع(١٧) . واستخدمت وثائق غزة الشرعية كلمة « شارع » بشكل ضئيل ، وبصورة مرتبكة ، فمرة استخدمتها للدلالة على « خط » ، كما ورد في العبارة التالية، حول موقع دكان صباغة : « داخل غزة بمحلة السجاعية بشارع الاسكافية » وهذا الشارع اشارت اليه الوثائق باستمرار تقريبا ، بخط الاسكافية . ووردت كلمة « شارع » بمعنى التفرع من خط ، كما في العبارة التالية : « الدار الكاينة داخل غزة بمحلة السجاعية بخط الجديدة شارع الواوية » . ويبدو ان « شارع » هنا اطلق على مسار سالك ، أي نافذ ، وربما يوازي ، في ذلك ، تعبير « الطريق السالك » الذي استخدمته الوثائق الشرعية ، باستمرار تقريبا ، حين تحديد جهات عقار ما ، ويقع فيه ، عادة ، باب العقار . ومن تفرعات الخط والطريق السالك الزقاق ، ويفترض انه ضيق وقصير ، وكان ، عادة ، غير نافذ ، وفتحت عليه ابواب الدور . ولم ترد في وثائق غزة كلمة « الدخلة » ، التي استخدمت في دمشق آنذاك لتدل على تفرع أصغرمن الزقاق ، وكانت غير سالكة .

ومن الطريف ان الامر الذي وجهه والي القدس الى قائمقام غزة وكبار موظفيها واصحاب النفوذ فيها ، بتاريخ ١٥ ذي الحجة ١٢٧٤/(٢٧ تموز ١٨٥٨) ، قد ذكر « مختارين المحلات ومشايخ الحارات » . ويبدو ان هذه العبارة هي مجرد اصطلاح ، استخدم في الاوامر الادارية ، بصورة عامة ، و لاينطبق على لواء غزة ، لان الوثائق الشرعية فيها لم تشر الى الحارات ، وانما الى الخطوط ، الا اذا كان القصد من المحلات ، في الامر ، الاشارة الى الخطوط ، التي لم يكن لفظها مستعملا في غير لواء غزة .

ومما تجدر ملاحظته ان بعض القرى ، على الاقل ، المحيطة بغزة ، قد حذت حذوها في تسمية الشارع بالخط . ويلاحظ ذلك ، بصورة خاصة ، في جباليا ، اذ قسمت الى خطوط . ولكن لم ترد اشارة الى انتظام هذه الخطوط في محلات ، كما كان الامر في غزة ، ربما بسبب صغر حجم القرى . ومن الخطوط ، في قرية جباليا ، خط الدرادنة ، وخط الجامع الكبير .

وقد اشارت وثائق غزة الشرعية ، في فترة دراستنا ، الى سبع محلات فيها . واذا ما رتبناها بالنسبة لعدد الخطوط في كل منها لاصبح تصنيفها كما يلي :

السجاعية (وكتبت احيانا : الشجاعية) ، البرجلية ، الزيتون ، الدرج ، حكر التفاح (او التفاح) ، الخضر (أو دار الخضر) ، وبني عامر . وورد في الوثائق احيانا ذكر خط بني عامر ، التابع لمحلة البرجلية . فاذا كانت الاشارة هنا الى محلة بني عامر فهذا يعني ان المحلة لصغرها اعتبرت ، أو اصبحت خطا تابعا لمحلة البرجلية .

وتقع محلات غزة ، من الناحية الجغرافية ، بالاستناد الى مصور غزة الذي وضعه Aldrich (١٨) ، والى الاوصاف الواردة في الوثائق الشرعية ، والمصادر الاخرى ، كما يلي : محلة السجاعية في الشرق من غزة ، قرب الطريق المؤدي الى الخليل ، ومحلة التفاح في الشمال ، غربي الطريق المؤدي الى الرملة ويافا ، ومحلة الزيتون في الجنوب ، غربي الطريق المؤدي الى العريش ، ومحلة الدرج في الغرب من غزة ، أي الى الشمال الغربي من محلة الزيتون ، ومحلة الخضر الى الجنوب الغربي من محلة الدرج . وتقع محلة البرجلية الى الجنوب الشرقي من محلة الدرج ، باتجاه الشمال الغربي من محلة الزيتون . والى جانب محلة البرجلية ، وربما في قسم منها ، قامت محلة بني عامر ، التي حلت تسميتها فيما بعد ، كما يبدو ، محل تسمية البرجلية .

ولو قارنا محلات غزة هذه مع محلاتها ، التي ذكرتها كتابات اخرى ، في فترات اخرى ، سابقة ولاحقة ، ابان الحكم العثماني ، لوجدنا انسجاما اكثر بين هذه المجلات ومحلات الفترات التي تقدمت دراستنا بحوالي ثلاثة قرون وربع القرن ، واختلافا مع محلات الفترة التي اعقبت دراستنا بحوالي ربع القرن . ففي القرن السادس عشر ، ومن خلال عدد من السجلات العثمانية ، ذكرت احدث الدراسات(١٩) وجود الحارات التالية : حكر التفاح ، دار الخضر ، الدباغة او الصباغة ، الزيتون ، البرجلية ، التركمان وسجاعية (او شجاعية) الاكراد . وبالمقارنة مع فترتنا نجد ان حارة التركمان اصبحت خطا ، ضمن محلة السجاعية . اما محلة الدباغة ، أو الصباغة ، فلم ترد اية اشارة اليها في وثائق غزة الشرعية ، في فترة دراستنا . وبدت الدراسة ، التي اوردت هذه التسمية ، غير متأكدة من طريقة كتابتها ، كما انها ذكرت انها جزء من حارة التفاح ، ولعلها جنوبه حيث يقوم المسلخ ، وذلك بالاستناد الى ما ذكره العارف بعد حوالي اربعة قرون . ومع ذلك ينسجم هذا التقسيم مع تقسيم غزة ، في فترة دراستنا ، الى حد كبير ، ويتفق معه بانه لا يذكر حيا خاصا بالنصارى ، واخر باليهود ، واخر بالمسلمين .

بعد الفترة التي تلت دراستنا ، بحوالي ربع القرن ، جاء في كتاب (بيديكر)(٢٠): ان غزة تألفت من اربع حارات ، هي : حارة التفاح ، وحارة السجاعية ، وحارة الزيتون ، وحارة الدرج ، وانه في السنوات الاخيرة زاد عدد حاراتها خمس حارات جديدة . ولكن الكتاب لم يسم هذه الحارات ، ولا موقعها ، ولا السنوات التي ازدادت فيها . كما انه لم يشر الى هوية السكان الذين اقاموا فيها ، وفيما اذا كانت هذه الحارات قد سلخت او تفرعت عن الحارات الاربع الاولى .

ثم جاءت دراسة Gatt عن غزة في عام ١٨٨٧(٢١) ، ويبدو انه كان على اطلاع بما جاء في كتاب (بيديكر) باللغة الالمانية ، وربما على تنسيق معه ، فذكر ان حارات غزة، آنذاك ، هي التالية : الزيتون ، اليهود ، النصارى ، المسلمين ، الفواخير ، الدرج ، بني عامر ، التفاح ، والسجاعية ، وهذا التقسيم يعني انه في مدى حوالي خمس وعشرين سنة ، من فترة دراستنا ، اصبح في غزة تسع حارات ، عوضا عن المحلات السبع . وان محلتي البرجلية والخضر قد الغي اسماهما على الاقل، وبرزت حارات لليهود والنصارى والمسلمين . وقد نقل Meyer (٢٢) في عام ١٩٠٧ هذا التقسيم عن (غات) ، وقبله بدون مناقشة ، حتى بالنسبة لكلمة « التفاح » التي وردت في (غات) على شكل Tufen ، فأبقاها كما هي . وأخطأ (ماير) في كتابة كلمة Al-Fawakhir ، التي ذكرها (غات) بشكل صحيح فجعلها Al-Fawakhin

والملاحظ ان كلا من (غات) و (ماير) ذكر حارات خاصة باليهود والنصارى والمسلمين ، وهو ما لم تذكره وثائق غزة الشرعية في فترة دراستنا ، ولا السجلات العثمانية في القرن السادس عشر(٢٣) . فهل تعرضت غزة الى موجة من هجرة اليهود خاصة ، وربما النصارى ، اليها ، في مدة خمسة وعشرين عاما ، استدعت قيام حارات خاصة بهم ، او ربما غلب وجودهم في هذه الحارات على ما عداهم من السكان ، ام هل اتخذ التقوقع الديني بعدا كبيرا جعل اتباع هذين المذهبين يتجمعون في حارات خاصة بهم . ثم هل تتطابق حارات اليهود والنصارى والمسلمين مع الحارتين ، او المحلتين ، اللتين اندثرت تسميتهما على الاقل في تقسيم (غات) ومن نقل عنه ، وهما محلة الخضر ومحلة البرجلية ، اللتان اشارت اليهما الوثائق الشرعية قبل حوالي ربع قرن . لقد اشارت السجلات العثمانية ، في القرن السادس عشر ، الى وجود النصارى في غزة ، والى تواجد معظمهم في حارة الزيتون ، وكذلك الى وجود اليهود باعداد اقل ، بحيث شكلوا ، وسطيا ، حوالي ثلث عدد النصارى(٢٤) ، وان حوالي ثلثهم ، في سجل عام ٩٣٢/١٥٢٥ ـ ١٥٢٦ ، كانوا من المغرب ، بنتيجة

هجرة السفارديم(٢٥) من اسبانيا بعد اخراج العرب والساميين منها . ولكن وثائق غزة الشرعية ، في فترة دراستنا ، لم تشر الى محلة خاصة بالنصارى اذ انهم توزعوا في عدد من المحلات اهمها : الزيتون ، والخضر ، والدرج ، وسنتعرض الى ذلك في مكان آخر من هذه الدراسة(٢٦) . كما انها لم تشر الا الى اسمين يهوديين من غير غزة فهل هذا يعني انعدام ، وفي احسن الحالات ، تضاؤل عدد اليهود في غزة آنذاك .

وعلى اية حال فقد ذكر D. Sourdel (٢٧) ان عدد سكان غزة في عام ١٨٨٢ كان ١٦٠٠٠ نسمة ، وبلغ في عام ١٩٠٦ ٤٠٠٠٠ نسمة ، منهم ٧٥٠ مسيحيا و ١٦٠ يهوديا . ويفترض ان عدد هؤلاء كان اقل من ذلك في عام ١٨٨٢ ، اي قبل خمس سنوات من التاريخ الذي ذكر فيه (غات) وجود حارة للنصارى واخرى لليهود في غزة .

اما عارف العارف ، الذي طبع كتابه عن تاريخ غزة في عام ١٩٤٣ ، فقد ذكر(٢٨) انه وجد في غزة القديمة خمسة احياء هي : الدرج ، الزيتون ، التفاح ، والشجاعية (بقسميها : الجديدة والتركمان) . ولم يذكر العارف الحدود الزمنية لغزة « القديمة » ، ولا في اية فترة وجدت هذه الاحياء . وتقسيم الشجاعية الى الجديدة والتركمان ربما ينطبق على فترة المؤلف ، ولكنه لا يتفق مع محلات غزة ، في حوالي منتصف القرن التاسع عشر ، حين كانت الجديدة والتركمان خطين ، من جملة خطوط في هذه المحلة .

وضمت محلات غزة ، في فترة دراستنا ، عددا كبيرا من الخطوط جاءت على ذكرها وثائق المحكمة الشرعية ، واشتملت محلة الشجاعية(٢٩) على الخطوط التالية : خط الجديدة ، خط التركمان(٣٠) ، خط الاسكافية (ورد ايضا باسم خط السكافية.)، خط المحكمة القديمة ، خط الحمام (وقف آل رضوان) بزقاق الحزيزاتي ، خط الشيخ الغزالي (ورد ايضا باسم خط الغزالي)(٣١) ، خط مسجد ولي الله تعالى السيد علي المغربي (ورد ايضا باسم خط الشيخ علي المغربي أو خط السيد علي المغربي)(٣٢) ، خط اولاد عياد ، خط العيايدة (ولعل التسميتين الاخيرتين لخط واحد) ، خط بوابت ابو بكر (ورد ايضا باسم خط بوابت(٣٣) ابو كر) ، خط ولي الله تعالى الشيخ نصر الدين ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ عكري بن مسافر (ورد ايضا باسم خط بن مسافر)(٣٤) ، خط التفليسي ، خط سوق الغزل ، خط العابد(٣٥) ، خط زقاق اولاد حتحت ، خط الباسطية(٣٦) ، خط مسجد الشيخ محمد الطيار(٣٧)، خط ساقية خليل(٣٨) ، خط خليل (لعل التسميتين لخط واحد)،

خط المفتي ، خط البازار (ضمن سوق السجاعية) ، خط الباز (قد يكون هو نفسه خط البازار(٣٩) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد الظفر دمري(٤٠) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ سعيد (ورد ايضا باسم خط الشيخ سعيد(٤١) ، خط الشيخ علي ابو الكاس(٤٢) ، خط الواوحد ، خط جامع شهاب الدين بن عثمان(٤٣) ، خط ولي الله تعالى الشيخ المضلع (ورد ايضا باسم خط الشيخ مضلع (٤٤) ، خط الجامع الكبير(٤٥) ، خط حارة حلس ، خط الترجمان ، خط الطواشي ، خط اولاد سهمود (ورد ايضا باسم خط سهمود) ، خط مسجد محمد الهواشي(٤٦) ، خط مسجد الست رقية (٤٧) (ورد ايضا باسم خط الست رقية) .

وضمت محلة البرجلية(٤٨) الخطوط التالية : خط سوق الخضر ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ ظريف(٤٩) (ورد ايضا باسم خط الشيخ ظريف) ، خط زاوية الهنود(٥٠) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ عياد(٥١) ، خط مسجد ولي الله تعالى فرج(٥٢) (ورد ايضا باسم خط الشيخ فرج) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد المغربي(٥٣) ، خط الشيخ محمد العراقي(٥٤) ، خط مسجد ولي الله تعالى محمد الهليس(٥٥) (ورد ايضا باسم خط الشيخ محمد الهليس) خط بني عامر ، خط الخرابة(٥٦) ، خط سوق الفخار(٥٧) ، خط خان الكتان(٥٨) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ علي الاندلسي(٥٩) (ورد ايضا باسم خط مسجد الاندلسي ، وباسم خط الاندلسي) ، خط حمام السوق ، خط القهوة ، خط الشيخ الاوزاعي(٦٠) ، خط مسجد سيدي هاشم(٦١) ، خط مسجد محمد العجمي(٦٢)، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ منصور(٦٣) ، خط جامع البلاطة(٦٤) ، خط الشيخ شرف(٦٥) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد الازبكي(٦٦) ، خط ساقية الدرج(٦٧) ، خط البيطار(٦٨) ، خط زاوية سيدي ابن مدين الغوث(٦٩) ، خط القلعة(٧٠) ، خط الجامع الكبير(٧١) .

وضمت محلة الزيتون الخطوط التالية : خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ عثمان قوشقار(٧٢) (ورد ايضا باسم خط الشيخ عثمان قوشقار) ، خط الكمالية(٧٣) ، خط الخضر ، خط بوابت اولاد شبير(٧٤) ، خط ولي الله تعالى الشيخ عطية(٧٥) ، خط مسجد الشمعة(٧٦) (ورد ايضا باسم خط جامع الشمعة)، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ كاتب الاوليا(٧٧) ، خط مسجدولي الله تعالى الشيخ محمد البطل(٧٨) (ورد ايضا باسم خط البطل) ، خط جامع باب الدروب (ورد ايضا باسم خط باب الداروب) ، خط ساقية القيدة(٧٩) (ورد ايضا باسم خط القيدة) ، خط الشيخ الياس (حيث وجد مقام الشيخ الياس ،

ولا نعلم اذا كان هذا نفسه مسجد الشيخ الياس الذي ذكرت الوثائق انــه في خــط الكمالية(٨٠) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد العجمي (ورد ايضا باســم خط مسجد الشيخ العجمي)(٨١) ، خط مســجد ولي الله تعــالى الشيخ ابــي ركاب(٨٢) (ورد ايضا باسم خــط مقــام ابي الركاب) ، خــط مســجد الشيخ الصيحاني(٨٣) ، خــط آل رضوان ، خط بوابت سليط ، خط دار شرير(٨٤) ، خط مسجد ولي الله تعالى عمر(٨٥) ، خط مسجد الوزيري(٨٦) .

واشتملت محلة الدرج(٨٧) علــى الخطــوط التالية : خــط مســجد الشيخ ظريف(٨٨) ، خط الشيخذكري(٨٩) ، خطالشيخ خالد(٩٠) ، خط الخرابة(٩١) ، خط مسجد البلاطة(٩٢) ، خط الفواخير(٩٣) ، خط سوق الفخار(٩٤) (ويبدو انهماخطان منفصلان) ، خط بير الدولاب ، خط الشيخ شعبان(٩٥) ، خط البيمارستان(٩٦) ، خط الشيخ محمد الخروبي(٩٧) .

وضمت محلة حكر التفاح (او التفاح) الخطوط التالية : خط جامــع الشيخ عبد الله الايبكي(٩٨) (ورد ايضا باسم خط جامع الشيخ عبد الله) ، خط جامع المسكة(٩٩) ، خط ولي الله تعالى الشيخ عبد الرحمن بــن سلطان ، خــط جامــع القهوة(١٠٠) ، خط القهوة(١٠١) (لعلهما خط واحد) ، خط جامع السدرة(١٠٢) ، خط المعصرة ، خط الجماحية ، خط القاعات ، خط زقاق الشرفا(١٠٣) .

واشتملت محلة الخضر على الخطوط التالية : خط حمام السمرة(١٠٤) ، خط مسجد كاتب الاوليا(١٠٥) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ ابي ركاب(١٠٦) ، خط سوق الخضر ، خط معصرة اولاد مكي .

وضمت محلة بني عامر(١٠٧) خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمــد المغربي(١٠٨) (ورد ايضا باسم خط محمد المغربي ، وخط الشيخ المغربي) .

ويلاحظ في خطوط غزة ان عددا منها اجتاز محلتين متجاورتين واحتفظ باسمه في المحلتين ، مثل خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد المغربي ، الــذي اجتاز محلتي البرجلية وبني عامر ، وخط الجامع الكبير ، الذي مر بمحلتي السجاعية والبرجلية ، وخط مسجد الشيخ الظريف الذي امتد فيمحلتي البرجلية والدرج ، وخط مسجد البلاطة في كل من محلتي البرجلية والدرج ، وخط مسجد كاتب الاوليا الذي مر بمحلتي الزيتون والخضر ، وكذلك خط مسجد الشيخ ابي ركاب الــذي مر بهاتين المحلتين ، مما يــدل على تجاور الاحياء ذات الخطــوط المشتركة وانفتاح المحــلات على بعضها .

ويلاحظ كذلك ان معظم الخطوط تسمى باسم جامع أو مسجد فيها ، مما يدل على كثرة الجوامع والمساجد في غزة عبر العصور . وتعتبر هذه الجوامع والمساجد من السمات العمرانية البارزة في غزة . ولا ندري هل استخدمت كلمتا « جامع » و « مسجد » بمعناهما ، كما في اوج ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، حيث عقدت في الجامع حلقات الدراسة في العلوم الدينية المختلفة في حين غلب على المسجد تدريس الشريعة(١٠٩) ، أم انهما استخدمتا بمعنى آخر ، اي ان الجامع حيث اقيمت صلاة الجمعة والصلوات الخمس ، والمسجد حيث اقيمت الصلوات الخمس فقط ، كما ذكر العارف(١١٠) ، أو انهما استخدمتا بدون تمييز في الوظيفة والمعنى .

ونستدل من كثرة الجوامع والمساجد في غزة على تاريخ حافل لها خلدته هذه المجموعة من الابنية الدينية ، التي حملت في تسمياتها بعض تاريخ المدينة وتاريخ بناتها . ويمكن ايضا ان نستشف من كثرة الجوامع والمساجد ، والمحافظة عليها ، الى حد كبير ، درجة عالية من التدين والتقى عند السكان أكدها لجوؤهم في كل أمر ، مهما صغر ،الى القاضي الشرعي لتحكيم الشريعة ، وكذلك مستوى عال من الالتزام بقواعد الدين ، كما دلت على ذلك عدة امثلة في الوثائق .

ولو احصينا الجوامع والمساجد ، التي ورد ذكرها في مختلف الخطوط في غزة ، لتبين ان عددها ثمانية وثلاثون جامعا ومسجدا . وهناك مسجد آخر لم يسم خط باسمه ، وهو مسجد المحكمة القديمة ، في محلة السجاعية(١١١) ، وكان بخط المحكمة القديمة. وذكرت الوثائق جامع الخضر دون ان تعين مكانه . وهناك مسجد عرف بمسجد الشيخ الياس (ورد ايضا لياس) ، بخط الكمالية ، في محلة الزيتون ، علما بانه وجد خط في هذه المحلة عرف باسم خط الشيخ الياس(١١٢) . ووجد مسجد باسم مسجد الكمالية ، بخط الكمالية ، في محلة الزيتون ، وكذلك وجد مسجد الشيخ محمد العجان(١١٣) ، بمحلة الزيتون . وذكر وقف يخص مسجد جامع الحدره ، ولعل هذا المسجد ، وليس فقط الوقف ، في غزة . ولا نعلم تفاصيل اخرى عنه(١١٤) ، مما يرفع عدد الجوامع والمساجد ، التي ذكرتها الوثائق الشرعية ، في فترة هذه الدراسة ، الى اربعة واربعين . وقد ذكرت الوثائق عددا من الزوايا ، يفترض انها ضمت مساجد اخرى ، ولكن ليس من نص صريح على ذلك في الوثائق ، في حين ذكر العارف(١١٥) ان لكل من الزاوية الاحمدية وزاوية الهنود مسجدا ، مما يرفع عدد جوامع ومساجد غزة الى ستة واربعين . ولا ندري كم من هذه الجوامع والمساجد كان ، في فترةدراستنا ، بحالة تسمح بأن يؤمه المصلون . واستبعدنا خربة مسجد الجاولي ، التي ذكرتها الوثائق ، رغم ان كلمة « خربة » قد تعني مكانا خربا ملحقا بالمسجد ، او ان المسجد قد اصبح خربا ، فاخذنا بالمعنى الثاني بدليل

ما ذكره العارف (ص ٣٥٢) من ان هذا المسجد قد هدم اثناء حملة نابليون بونابرت ، وانه كان مندثرا في زمنه .

واذا اعتبرنا ان عدد سكان غزة ، في تلك الحقبة من الزمن ، وفـق تقديرات عدة ، يساوي تقريبا ١٥٫٠٠٠ نسمة ، وان عدد المسلمين منهم حوالي ١٤٫٠٠٠ نسمة ، فيكون لكل ٣٠٤ اشخاص جامع او مسجد . واذا اخذنا بعين الاعتبار ان حوالي ثلث هؤلاء الاشخاص من الاطفال ، بدليل ما سنلاحظه فيما بعد مـن ان عدد غير البالغين فاق عدد البالغين ، لاصبح لكل ٢٠٣ اشخاص جامع او مسجد ، مما يؤكد شدة التدين عند سكان غزة . ونستدل من ذلك ايضا ان الجوامع صغيرة . ويمكن معرفة ابعادها على اساس ما يحتاج اليه الرجل من مساحة لاداء الصلاة .

والى جانب الجوامع والمساجد ، وجد في غزة عدد من الابنية الدينية الاخرى ، مثل المزارات والزوايا . ولا تزودنا الوثائق الشرعية بمعلومات عن المزارات(١١٦) ، ولكنها ذكرت عددا من الزوايا . فهناك زاوية الهنود ، بمحلة البرجلية ، وقد تسمى خط باسمها(١١٧) . وذكرت زاوية سيدي احمد البدوي بمناسبة الاشارة الى دكان اوقف عليها بسوق الصوافين بمحلة السجاعية(١١٨) ، ولا نستدل من ذلك على انها كانت فعلا في هذه السوق او المحلة . ووجود هذه الزاوية في غـزة دليل على تأثيـر مصري قوي فيها ، لان سيدي احمد البدوي لـه مكانة صوفية مرموقة في مصر ، وخاصة في طنطا ، حيث توفي ودفن فيها في عام ٦٧٥/١٢٧٦ ـ ١٢٧٧ ، واقيم له مقام مشهور(١١٩) . واشارت الوثائق الى الزاوية الاحمدية بمناسبة ذكر دار موقوفة عليها بمحلة الزيتون ، بخط مسجد الشيخ الصيحاني(١٢٠) . وذكر العارف(١٢١) ان مسجد الزاوية الاحمدية يقع في حي الدرج وانه كان عامرا في زمنه ، وان انشاء هذه الزاوية قد تم على يد اتباع الطريقة البدوية ، في اوائل القرن الثامن للهجرة ، انتسابا منهم للسيد احمد البدوي ، فهل يعني هذا ان الزاوية الاحمدية هي نفسها زاوية سيدي احمد البدوي . واذا كان الامر كذلك ، فلماذا اشارت الوثائق ، خلال ست صفحات ، الى الزاوية الاحمدية وزاوية سيدي احمد البدوي . ولهذا نحتاج الى مزيد من الادلة لنتمكن من القول ان الزاويتين مستقلتان عن بعضهما ، او انهما تسميتان لزاوية واحدة .

وذكرت الوثائق زاوية المغاربة ، ولعلهـا بخـط مسجد الشيخ فرج ، بمحلـة البرجلية(١٢٢) . وتسمى احد خطوط محلة البرجلية بخط زاوية سيدي ابن مديـن الغوث(١٢٣) ، مما يدل على وجود هذه الزاوية في ذلك الخط .

ووجد عدد من السبل في غزة ذكرت الوثائق منها سبيلا بسوق الخضر ، ولعله بخط سوق الخضر ، في محلة الخضر ، وسبيلا آخر بخط الاسكافية ، في محلة السجاعية ، بمناسبة وقف دكان صباغة عليه . والمدرسة الوحيدة التي ذكرت في الوثائق هي المدرسة الحسنية ، بمحلة البرجلية ، تجاه الجامع الكبير .

وذكرت الوثائق الشرعية عددا من الحمامات في غزة ، مثل حمام السمرة بمحلة الخضر ، وعرف خط باسمها ، وحمام السوق ، بمحله البرجلية ، حيث عرف خط باسمها ، وحمام السجاعية (الذي شهرته بمحلة تغني عن وصفه) ، وحمام آل رضوان ، بمحلة السجاعية ، بزقاق الحزيزاتي ، الذي تسمى خط باسمه ، ويبدو ان حمام السوق ، الذي اشارت اليه الوثائق ، لم يكن حماما واحدا ، وانما سمي كذلك نسبة الى السوق الذي وجد فيه ، اي انه وجد في معظم الاسواق الرئيسية ، على الاقل ،حمام . فقد ذكر ، مثلا ، السوق الفوقاني، وفيه حمام السوق ، وسوق المسلخ ، وفيه حمام السوق .

وقد ميزت وثائق غزة الشرعية بين انواع من الابنية السكنية ، مثل الحوش والدار والبيت والقاعة . واكثر هذه الانواع تنوعا في اقسام البناء وفي الاستخدام هو الحوش . ووجود الاحواش باعداد كبيرة في غزة يدل على غلبة الطابع الزراعي على سكانها ، لان الاساس في الحوش انه لايواء الحيوانات المستخدمة في الزراعة ، والتي كانت تقيم في البايكة ، ثم استعمل لاقامة اصحابها ايضا . وتطور الحوش ، من الناحية السكنية ، الى درجة الغيت معها البايكة في عدد من الحالات . وقد وصفت بايكة في حوش ، تألفت من ست قناطر ، بانها بايكة كبيرة ، وكانت مسقوفة بالاخشاب . وقد تباع البايكة دون بقية الحوش . وهناك امثلة متعددة على بيعها بمفردها . وكانت في هذه الحالة اما ذات بناء مستقل في الاساس ، او انها استخرجت من حوش . ومن اجزاء الحوش الاساسية الساحة السماوية . ويلحق الحوش احيانا بالدار ، فيعرف عندئذ بحوش الدار (ولا علاقة لهذا بالتعبير الدارج ان حوش الدار يعني ساحتها السماوية) ، ويشكل ، في هذه الحال ، القسم البراني منها . واذا الحق الحوش بمعصرة سمي بحوش المعصرة . واشتمل الحوش ، مثل الدار ، على عدد من الابار التي استخدمت لتخزين الغلال . واحيانا سمي مكان خزن الغلال بالكورة .

وقد لا يشتمل الحوش على بايكة ، كما في المثال التالي ، الذي كان الحوش فيه ملحقا بحاكورة : « المبيع ستة قراريط في جميع الحوش والحاكورة الكائنين داخل غزة بمحلة البرجلية بخط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد الهليس ... المشتمل

الحوش المذكور على ايوانين وخمسة قاعات معقدات بالحجر والجير وساحة سماوية بها بئرين معــدين لتخزين الاغلال ومحل راحة وممر موصل الى الحاكورة المذكورة » واحاط بالحوش هذا دور سكن . ويلاحظ في هذا الحوش ، رغم ضخامته ، غياب البيوت السكنية فيه ، وكذلك المطبخ ، الذي هو لخدمة الساكنين . وقد وجـد مطبخ ، مثلا ، في حوش اصغر ، بمحلة السجاعية ، بخط مسجد الست رقيــة (المشتمل على بيتين وخزانة ومطبخ مسقفات بالاخشاب وساحة سماوية) ، ممـا يدل على ان المطبخ كان لخدمة ساكني البيتين . ومع ذلك فالمطبخ لم يكن موجودا باستمرار في دور السكن ، ووجوده فيها يدل عادة على مستوى مادي متميز لاصحابها . واصغر حوش ورد ذكره ، في فترة دراستنا ، تألف من بيت واحد ، مســقوف بالخشب ، ولا توجد فيه ساحة سماوية او بايكة .

واطلقت كلمة « دار » على مكان سكن الناس ، وقد تضـم بايكـة ، ولكـن اسمها ، في هذه الحال ، لا يتحول الى حوش ، لان الاساس فيها سـكن الناس ، والبايكة شيء اضافي . وضمت دار كبيرة ، بمحلة البرجلية ، بخط مسـجد ولي الله تعالى الشيخ فرج « قاعتين عقد وثلاثة بيـوت مسقفات بالخشـب وثلاثة لواوين مسقفات بالخشب ومحل راحة عقد وساحة سماوية مفروشة بالبلاط بها سلميـن من الحجر احدهما يوصل الى قصر معقد بالحجر والجير وايوان واوضـة مسقفين بالخشب بجانب القصر المذكور ومحل راحة عقد والسلم الثاني موصل الى حضير فقط »(١٢٤) . ويستخدم الحضير عادة لتربية الحمام والدجاج ، ووجـد في معظم دور غزة ، مما اضفى على المدينة صفة ريفية . ولتلك الدار بابان : احدهمـا جواني ، يفتح على زقاق غير نافذ ، ولعله لاستخدام الحريم ، والاخر براني، يفتـح علـى طريق سالك . ورغم ضخامة هذه الدار يلاحظ عدم وجود المطبخ فيها . وخصت الدار محمد آغـا سليمان الذي باع ستة قراريط منها لابنه خليل آغـا بثمن قدره ٦٠٠٠ قرش اسدي ، مما يجعل سعرها معادلا لـ ٢٤٠٠٠ قرش ، وهذا ثمن من اغلى اثمان الدور في غزة في الفترة التي ندرسها .

ومما يلفت النظر في هذه الدار وجود طابق اعلى فيها ، لان معظم دور غــزة كانت من طابق واحد ارضي. ولهذا الامر دلالته . فلم تكن هناك من حاجة للتوسع عاموديا ، مما يدل على توافر الارض للتوسع افقيا . وربما كان السبب في ذلك ان طبيعة الارض ومواد البناء لم تكن مهيأة لبناء طوابـق عليـا ، كما ان حجـم الاسرة الواحدة ، والازدحام السكاني بصورة عامة ، لم يبلغا درجة كبيرة يتحتم معها بناء طوابق عليا . وبالاضافة الى ذلك فالمجتمعات المحافظة تتحاشى عادة الطوابق العليا خشية اشراف ساكنيها على جيرانهم ، وبالعكس . واقتصار معظـم دور غزة على

طابق ارضي اعطى للمدينة امتدادا افقيا ، مع مراعاة ارتفاعها عن المناطق المحيطة بها بحوالي ثمانين مترا(١٢٥) .

واصغر دار في غزة ، ورد ذكرها في الوثائق ، ضمت بيتا واحدا وساحة سماوية، وكانت بمحلة السجاعية ، بخط المحكمة القديمة ، وبيعت بثمن قدره ٨٠٠ قرش . ولكن هذه لم تكن ارخص دار اذ بيعت دار بمحلة السجاعية ، بخط الشيخ محمد الطيار ، بثمن قدره ٥٥٠ قرشا ، وكانت مستخرجة من دار اخرى . وفي الحالين كانت الدار ، في الاصل، قسما من دار اكبر .

ولبعض الدور دهليز ، أي دخلة طولانية تفصل الباب الخارجي عن ساحة الدار . والى جانب شيوع الايوان او الليوان ، في الدور الكبيرة ، وجد الرواق ، ولكن بصورة أقل ، وهو ، على الغالب ، مسقوف ، مثل الايوان ، بالخشب ، ويختلف الرواق عن الايوان بطولانيته ، في حين يكون الايوان مربعا ، على الغالب ، أو مستطيلا . ويلاحظ في دور غزة عدم وجود الاقبية أو المغر فيها ، واستخدمت هذه ، عادة ، لايواء الحيوانات ، أو لخزن الحبوب ، وعوضت عنها ، في الحالين ، البايكة والآبار .

ولا توجد اشارة في الوثائق الى اماكن تجمع المياه في الدور . وقد استخدمت كلمة بئر لمكان خزن المؤونة والغلال . وذكرت الوثائق « ماء الاشتية النازل من السما » ، وذلك حين تقسيم دار ما وظهور خلاف حول مساره . ولكن لم يرد ذكر لمكان تجمع المياه،وهل سمي ذلك بالبئر او بغير ذلك . ويبدو ان الدور كانت تشرب من السواقي أو من السبل خارجها . وربما وجد فيها ما يشبه الابار لجمع مياه المطر (الاشتية)، أو للوصول الى نبع ارضي . وكثرت في غزة ومنطقتها المياه الجوفية ، بدليل كثرة السواقي فيها ، والحزام الاخضر من الاشجار الذي احاط بها وتخللها . ونقل المياه من الخارج الى اماكن استخدامها كان يتم بواسطة القرب . وذكر ان شخصا حصل على اذن بنقل الف قربة ماء ، كل سنة ، من احدى السواقي ، الى جامع كاتب الاوليا في غزة ، لاستخدامها في الوضوء . ويبدو ان مياه هذه القرب ،بمعدل ثلاث قرب في اليوم ، دعمت ما يوجد محليا ، في الجامع ، من الماء ، الا اذا كان عدد المصلين في هذا الجامع محدودا لا يحتاج لاكثر من ثلاث قرب يوميا .

وخضعت معظم دور غزة الى التجزئة باستمرار ، سواء من ناحية الملكية ، حين كانت مشاعا ووجب تعيين او فرز حصص الورثة ، أو من ناحية الواقع ، اذا

ما رغب الورثة في اخذ حصصهم ، ومن هنا تقسيم الدور ، وخاصة اذا ما بيع قسم منها الى أناس من خارج الاسرة . واقيمـت جدران فاصلة ، في هـذه الحالات ، وفتح باب آخر . وتم تقسيم الدور رغم ان الحصص فيها غير متكافئة ، وربما سهل هذا عملية التقسيم ، وفي احـدى الحالات كانت نسبـة القسم الواحد الـى الآخر عشرين قيراطا الى اربعة ، واشتملت حصة صاحب القراريط الاربعة على بيت ومطبخ وساحة سماوية ، مما يدل على كبر العقار . والخلاف الرئيسي الذي أثاره عادة تقسيم العقار ، دار حول صعوبة تقسيم ماء المطر ، وغالبا ما اتفق ان « يمر حسب عادتـه » .

والى جانب الحوش والدار ذكر البيت كعقار قائم بذاته . والبيت ، في الاساس، كان جزءا من الدار ، وعمد الى اخراجه منها ، احيانا ، وبيعه بمفرده . وشـاري البيت ، في هذه الحال ، كان ، في الغالب ، صاحب دار مجاورة له رغب في ضمه اليها . اما البيت ، كعقار مستقل ، فغالبا ما كانت له ساحة سماوية ، ويشـكل وحدة اصغر من الدار . ونسبة وجوده في غزة لم تكـن بقليلة ، ولكنـه كان اكثر في الريف منـه في غزة ، ممـا يـدل على ان الاوضاع الماليـة لقطاع من السكان لـم تكن جيـدة .

اما بالنسبة للقاعة ، فقد اشتملت بعض دور غزة على قاعة واحدة او اكثر ، ودل وجودها ، عادة ، على اتساع الدار وثراء صاحبها ، لانه غالبا ما استقبل زواره فيهـا . وعلى غـرار البيت ، امكـن اخراج القاعة من الـدار ، وجعلهـا عقارا قائما بذاته . وهناك امثلة عـن قاعات مستقلة ، وربما بنيت كذلك ، أو استخرجت من دور ، استخدمت للحياكة ، وكانت موزعة في انحاء غزة .

وكانت مواد البناء من الحجر والجير ، المعقودة ببعضها ، بالنسبة للجدران ، ومن الخشب بالنسبة للسقف . اما السلم ، الذي يصعد عليه الى السطح ، فكان ، عادة ، من الحجر . وفي الحالات النادرة التي وجد فيها طابق اعلى فقد بنيت جدرانه هو الاخر من الحجر والجير المعقدين ، وسقف بالخشب . وفي احدى الحالات اشترط بائع الدار على المشتري الا يحدث على سطح الدار اي بناء الا بموافقته ، ولعل سبب هذا الشرط رغبة البائع بتقاضي مبالغ اضافية ، في حال البناء على السطح ، أو ربما لان البائع يسكن ، فعلا ، في دار ، لصيقة بالدار التي باعها ويخشى ان يشرف الطابق الاعلى ، اذا ما بني ، على داره .

ولم تذكر المادة التي بنيت منها ارض الساحة السماوية في الدار الا اذا كانت من البلاط ، وهذا شيء متميز ، لان الغالب ان تبنى الساحة من الحجارة المرصوفة ، وليس في هذا الامر الشائع المألوف من جديد يستدعي ذكره . وزرعت في الساحة السماوية ، أو في جانب منها على الاقل ، اشجار متنوعة ، ذكرت في احدى الحالات بانها شجر نخل ورمان وسدر .

ويلاحظ في عمليات بيع العقارات عدم ورود ذكر لمساحة العقار ككل . وفي بعض الحالات ، عند تقسيم دار ما ، ذكرت مساحة الساحة السماوية بذراع البنا ، او الذراع الاسلامبولي(١٢٦) .

وتنوعت طرق قبض ثمن العقار المباع ، فاما ان يتم ذلك في المحكمة، وتستعمل عندئذ عبارة « الثمن مقبوض بالحضرة والمعاينة » ، أو عبارة « حالا مقبوضا » بيد البايع من المشتري ، واما ان يعترف البائع ، في المحكمة ، بقبض الثمن ، ويشار عندئذ الى ذلك « مقبوض بالاعتراف » . والبيع اما يكون باتا ، اي نهائيا ، لا رجعة عنه ، وان كان فيه غبن ، او ان يكون بالوعد ، اي ان يتم دفع الثمن بعد فترة معينة ، ويبيح عندئذ البائع للمشتري استخدام العقار قبل الدفع . وحدث ايضا ان البائع قبض ثمن عقاره ، ولكن المشتري وعده برد العقار له ان جاءه بالثمن الذي اخذه بعد فترة ، واباح البائع للمشتري استخدام العقار في هذه الفترة ، وسمي هذا « بيع وعد بالاباحة » . وفي هذا نوع من انواع الفائدة . وذكر(١٢٧) احيانا ، في عملية البيع ان كلا من البائع والشاري ابرأ واحدهما الاخر من دعوى العذر والاغراء والغبن الفاحش والا رد القاضي عملية البيع بسبب ذلك . واستخدمت عملية المقاصصة ، أي اقتطاع مبلغ بذمة البائع ، او بذمة من يقبل به البائع ، للمشتري من أصل ثمن الشراء. وكثرت المقاصصة في المخالعة ، واشير اليها انها مقاصصة شرعية .

وحين شراء عقار ما ، ذكر اذا كان المشتري يشتري العقار بماله لنفسه دون مال غيره ، او انه يقوم بالشراء بالوكالة عن شخص اخر ، او جزئيا بماله وايضا بالوكالة عن غيره . كما ذكر احيانا (في دمشق انذاك ذكر باستمرار) فيما اذا كان البائع قد ال اليه العقار المباع عن طريق الشراء ام الارث ، وفيما اذا كان يقوم بالبيع بطريق الوكالة ، او بالاصالة عن نفسه وبالوكالة عن غيره في آن . وتم ايضا البيع والشراء بطريق الولاية عن قاصر . ولهذه المعلومات اهميتها لانها تدلنا على طرق انتقال الملكية ، بالشراء أم بالارث ، وما يترتب على ذلك من اوضاع اجتماعية واقتصادية .

وذكر في معظم عمليات شراء العقارات التي تمت في عام ١٨٥٦/١٢٧٣ ـ ١٨٥٧ ، ومطلع العام التالي ، العبارة التالية : « بثمن قدره (كذا) وصـرة مجهولة القـدر مستهلكة بالمجلس » . وهذا يعني ان صرة طعام ، احضرها الشاري الـى المجلس (مجلس عقد البيع) في المحكمة ، كما يرجح ، قد استهلكت فيه من قبل الحاضرين ، احتفالا بعملية الشراء . وفي حالات قليلة ، ذكر ان الصرة مقبوضة بالاعتراف ، وقد تعني انها استهلكت في غير ذلك المكان والتاريخ ، او ربما حصل وعد بها . وعدم ذكر الصرة في عقود البيع التي تمت في بقية عام ١٢٧٤ وما بعده ، ربما يدل على ان هـذه العادة قد بطلت ، اكثر من انها قد رسخت ولم تعد من ضرورة لذكرها ، لانه لا يعقل ان تكون قد بدأت قبل فترة قصيرة .

وروعيت شفعة الجوار بدقة في عمليات بيع العقارات . وألغي البيـع ، لصالح الشفيع ، في عدد من الحالات . وفي حال علم الشفيع بعملية الشراء ، وعدم مطالبته بذلك مباشرة (لم يرد ذكر لطول المهلة المعطاة للشفيع للمطالبة) ، فقد حقه بالمطالبة بالشفعة . وطلب القاضي عادة الى الشهود ، الذين عدلهم (أي زكاهم وشهد بصحة أقوالهم) آخرون ، اثبات حق الشفعة . وحق الشفعة لا يورث . فقد اشترت امرأة ، لها ولاختها ، حصة شائعة في كرم ، في اواخر ربيع الثاني ١٢٥٢/ أواسط آب ١٨٣٦ ، وحين احتج على هذا الشراء وارث لكرم مجاور ، بعد اكثر من عشرين سنة ، في ٣ رمضان ٢٧/١٢٧٣ نيسان ١٨٥٧ ، بشفعة الجوار ، رفضت المرأة التسليم للوارث بحق الشفعة ، لان والده من قبله لم يطالب بشفعة الجوار ، حين كان حيا ، وان جوار الابن لكرمها قد ورثه عن ابيه . وقضى القاضي بـأن لا شفعة للابن لان الشفعة لا تورث ، ومنعه من معارضة المرأة . والاراضي الموقوفة لا تجري فيها الشفعة بالنسبة للعقارات المبنية عليها ، والتي هي ملك للافراد ، يتصرفون فيها بيعا وشراء ، لان الاساس هو الارض .

واستخدم حق التصرف في العقار ، فترة من الزمن ، تراوحت ، في اربعـة امثلة من وثائق غزة ، بين ثلاث عشرة سنة ، وما يزيد عن اثنتين وثلاثين سنة ، لمنـع مالك العقار من المطالبة بعقاره من المتصرف به ، واعتبر المتصرف بالعقار بمثابة مالك له ، بعد اثبت تصرفه به ، هدما وبناء وغير ذلك ، وبعد أن ثبت لدى القاضي ، بافادات الشهود ، ان مالك العقار لم يعارض المتصرف بالعقار طيلة تلك الفترة . وتمتع وارث المتصرف بالعقار بحقوق موروثه ، في هذا المجال ، وضمت فترة تصرف المتصرف الى مدة تصرف الوارث ، وذلك لمنع المالك من المطالبة بعقاره ، نظرا لطول

المدة مجتمعة ، لتصرف كل من المورث والوارث ، حتى ولو اثبت المالك انه تغيب عن البلدة في بعض الاوقات ولم يستطع معارضة المتصرف ، فالمهم انه علم بالامر ، ولم يحتج طيلة تلك المدة .

★ ★ ★

٣ ـ مظاهر اجتماعية :

يمكننا التعرف على هوية معظم سكان الخطوط والمحلات المختلفة في غزة ، ومكانتهم الاجتماعية والاقتصادية ، المتمثلة في حجم دورهم ، واتساع ملكيتهم ، وعدد أفراد أسرهم ، وكذلك التعرف على مدى تجمع ، أو انتشار الاسر المتقاربة في النسب ، أو الاصول ، أو المذهب ، من خلال دراسة بيع الدور وشرائها ، كلها أو أجزاء منها ، وكذلك تقسيمها ، وتعيين حصص الورثة فيها . وطبيعي ان احصاء كهذا لا يشمل جميع الدور ، ولكن تحديد موقع الدور المباعة ، والمقسمة ، من جهاتها الاربع (لانه غالبا ما كانت الجهة المطلة على طريق سالك ، أو زقاق غير نافذ ، يتممها عقار آخر ، كما ان اكثر من عقار واحد شكل الحدود في جهة ما) ، كفيل بذكر ثلاث دور ، على الاقل ، واحيانا اربع ، أو أكثر ، بمقابل كل دار خضعت لعملية شراء أو مقاسمة . وبذلك نضمن ذكر معظم دور الخط والحي ، وبالتالي المدينة ككل .

وبالاضافة الى المعلومات ، التي تزودنا بها الوثائق ، بخصوص التركيب الاجتماعي والاقتصادي لسكان مدينة غزة وريفها ، وللمقيمين والمتوطنين فيها من النزلاء ، وخاصة من المصريين ، الذين كان عددهم كبيرا ، يمكننا معرفة حجم الاسرة ، ونسبة الاناث الى الذكور ، ومستوى الدخل ، وعمليات توظيف رأس المال والربح ، من دراسة ضبوط تركات المتوفين .

ويلاحظ من مواقع الدور واثمانها ان اي خط أو محلة لم يكونا مقتصرين على طبقة اجتماعية أو اقتصادية معينة . ونجد الدور ذات الاثمان العالية تجاور دورا ذات اثمان متدنية . ومع ذلك فهناك خطوط دورها أكثر تواضعا في الثمن ، بصورة عامة ، من دور خطوط أخرى . مثلا ، دور خط مسجد الشيخ عثمان قوشقار ، بمحلة الزيتون ، اكثر ثمنا من دور خط جامع (أو مسجد) الشمعة . ودور الخط الاخير أكثر ثمنا من دور خط البطل ، علما بأن الخطين الاخيرين هما ايضا من خطوط محلة الزيتون .

ويلاحظ في خطوط محلة الزيتون ان بعضها كثرت فيه الحواكير ، مثل خـط الكمالية ، مما يدل على وقوعها على اطراف المحلة المتاخمة لحدود المدينة ، وبعضها الآخر كثرت فيه الاحواش والبايكات ، مثل خط ساقية القيدة ، مما يدل على أصول ريفية لساكنيها ، وعلى علاقاتهم الزراعية .

وكثرت الخرائب في انحاء غزة . وهنـاك خطوط تميزت في هـذا المجـال ، فعرف واحدها بخط الخرابة ، كما في خط الخرابة بمحلة الدرج ، وخط الخرابة بمحلة البرجلية . ويفترض ان تكون هـذه الخطوط اكثر فقرا من غيرها . وكثرة الخرائب ، بالنسبة لدور بكاملها ، او لاجزاء من دور مسكونة ، في مختلف انحـاء غزة ، دليل من ناحية ، على ضعف النشاط العمراني ، ومن ناحية اخرى ، على الضيق الاقتصادي ، بالنسبة لبعض قطاعات السكان على الاقل . كما انـه دليل على توافر الارض ، وعلى عدم وجود ضرورة لتوسع المساحة المعمورة في غـزة ، ربمـا بسبب عدم ازدياد السكان بشكل كبير ، وبالتالي عدم الحاجة لاشغال جميـع مناطق السكن في المدينة .

ولعل شيوع العقارات ، الذي يلاحظ بكثرة في ممتلكات غزة ، دليـل عـلى الصعوبات التي واجهت عملية بناء ، أو بيع ، عقار تهدم كله أو جزء منـه ، وكثيرا ما قسمت بيوت كبيرة ، وحتى صغيرة ، بيـن الورثة ، كمـا سبق القول . وهـذا التفتت في الملكية أوجد دورا كبيرة الى جانب الصغيرة ، اذ نتجت عن ذلك محاولات لتجميع الملكية في مكان معين كأن يعمد صاحب دار الى شراء عدد من القراريط في دار مجاورة له ويضمها الى داره ، او يطمح الى شراء بقية الدار ليجعل منها دارا اخرى ، الى جانب داره . ولم تكن هذه القاعدة مطلقة ، اذ كثيرا ما بيعت حصة من دار مشاع الى اشخاص اغراب عن المنطقة ، واحيانا عن المذهب ، ممـا يدل على ملكية صغيرة ومتسامحة تحرص على ايجاد مكان للسكن بالدرجة الاولى وقبل اي اعتبار آخر . وهذاالاقبال على ، شراء او بيع ، الدور ، او الحصص الشائعة فيها ، وبما يفسر الغياب الملحوظ لعمليات تأجير الدور او اجزائها ، بشكل فاق معـه نسبة الايجارات التي قد لا تسجل في المحكمة الا في حالة خلاف ، وذلك بالمقارنة مع كثرة عقود الايجار في دمشق ، مثلا ، في الفترة ذاتها .

ويلاحظ كذلك ان العادة ، عند بيع عقار او جزء منه ، ان يسجل في المحكمة ، أي في حجة البيع أو الشراء ، نوع ملكية الجزء المباع ، وهل انتقلت ملكيته لبائعه ، في الاصل ، عن طريق الشراء أو الارث . ومـن دراسة عقود البيع والشراء في سجل غزة الشرعي، في فترة دراستنا ، يتبين لنا ان معظم اجـزاء الدور المبيعة قـد

استملكت عن طريق الارث ، وان مشتريها كانوا من الورثة . ونتج عن ذلك تجميع الملكية في يد واحدة ، والتخلص قدر الامكان من شيوع العقار . كما بيع عدد من العقارات ، أو اجزاء منها ، بسبب وجود المسوغ الشرعي لبيعها ، وهو احتياج القاصرين ، من الورثة ، للنفقة ، او بسبب غرق التركة بالديون . ولعبت النساء دورا هاما في شراء العقارات ، أو حصص منها ، لانهن تمتعن بثروة مجمدة ، كسبنها عن طريق ارث أو نفقة ، ووظفنها بشراء العقارات او الحلي ، أو في الديون . كماانهن ادخرن المال ، بصورة عامة ، أكثر من الرجال .

ويلاحظ انه لم يكن هناك من محلة او خط خاص بالمسيحيين في غزة في فترة دراستنا . فقد سكن هؤلاء في عدد من خطوط محلة الزيتون ، كما سكنوا في محلات اخرى ، مثل محلة الخضر ومحلة الدرج . وكان المسيحيون أقل سكنا في حي السجاعية والبرجلية مثلا . وتواجد المسيحيين في خطوط ومحلات معينة ، أكثر من تواجدهم في خطوط ومحلات أخرى ، ربما يفسر بقلة نسبتهم العددية الى باقي السكان ، الامر الذي لا يمكنهم من الانتشار بصورة متساوية في مختلف محلات غزة وخطوطها . ولم تكن أمكنة عمل المسيحيين ملاصقة لمناطق سكنهم ، بل نجدهم يشغلون دكاكين في قصبة السوق الرئيسية ، في حي السجاعية مثلا . ولم تكن دور المسيحيين متقوقعة على بعضها ، في الخطوط والمحلات التي تواجدت فيها ، بل جاورت دور المسلمين ، كما في المثال التالي : دار شايعة في خط (مسجد) الشيخ عثمان قوشقار ، بمحلة الزيتون ، اشترت فيها حبيبة بنت ابراهيم الخوري اربعة قراريط ونصف قيراط وربع قيراط ، البايع ولدها عبد النور بن يوسف حديدة ، الثمن ١٥٠٠ قرش صاغ مقبوضة بالاعتراف ، حدها قبلة الزقاق الغير نافذ ، وفيه الباب ، وشرقا دار السيد محمد بن السيد مصطفى العلمي ومن يشركه ، وشمالا حوش الحاج حسن بن الحاج احمد البورنو ، وغربا دار ايوب بن الياس الحداد ، وكان للمشترية ومن يشركها حصة بالدار . ونلاحظ في عمليات بيع وشراء العقارات ، ان ذلك لم يكن ضمن اطار الطائفة الواحدة ، بل شارك فيها ، كما في اية سلعة أخرى ، مسلمون ومسيحيون ، مما يدل على عدم تقوقع الطوائف في أمكنة معينة ، وعلى اختلاط دورهم . وهناك امثلة على اشتراك الفريقين حتى في ملكية عقار واحد ، مثل الدار ، في محلة الزيتون ، بخط مسجد الوزيري ، التي اشترى فيها كل من الشقيقين ، موسى وخليل ، ولدي المعلم ايوب مخايل الرومي ، سوية بينهما ، اثني عشر قيراطا . وكان البايع حمودة بن المرحوم سليمان شبلاق ، الوكيل الشرعي عن الحرمة خديجة بنت المرحوم حسين شبلاق . بثمن قدره ٣٦٠٠ قرش اسدي ، شركة الحرمة زبيدة أخت البائعة بحق الباقي . وحد هذه الدار قبلة دار

ورثة المرحوم محمد أبو عاصي المناخلي ومن يشركهم ، وشرقا دار ورثة المرحوم مصطفى المجنون ، وشمالا الزقاق الغير نافذ وتمامه دار ورثة المرحوم درويش السوق ومن يشركهم ، وغربا الطريق السالك وفيها الباب . ثم استأجر يوسف ، أحد المشترين ، من الحاج احمد شبلاق ، وكيل الحرمة زبيدة بنت المرحوم حسيين شبلاق، فأجره الموكل المذكور نصف الدار المرقومة اعلاه ، شركة بها ، مدة خمس سنين ، بأجرة قدرها ٣٠٠ قرش اسدي ، واذن له الوكيل بصرفها في عمارة الحصة المذكورة بمعرفته . ويلاحظ من المثال السابق ، بالاضافة الى التسامح وانتفاء التكتل الطائفي ، ان الاجرة السنوية لنصف الدار ، التي عادلت ٦٠ قرشا ، تشكل نسبة ضئيلة من ثمن المأجور ، اذ تقدر بـ ١٦٦٦ر١٪ من ثمنه البالغ ٣٦٠٠ قرش .

ومما يدل على عدم رغبة المسيحيين في التقوقع أو التكتل انهم لم يحاولوا شراء دور لمسلمين جاورت دورهم ، حين طرحت هذه الدور للبيع ، بل اشتراها مسلمون آخرون ، ولم يستغل المسيحيون شفعة الجوار لتملكها .

وهكذا ، فلم تكن في غزة ، في فترة دراستنا على الاقل ، محلة أو خط خاصين بالمسيحيين ، حرصوا على حصر ملكيتهم فيها ، كما انهم لم يمتنعوا عن بيع العقارات للمسلمين أو شرائها منهم . وما ورد في مقال (غات)، في عام ١٨٨٧، ومن نقل عنه، من ان هناك حارة خاصة بالنصارى ، مما قد ينطبق على الفترة التي كتب عنها ، ليس هناك ما يؤكده في وثائق غزة الشرعية ، في فترة دراستنا .

كما انه ليس من دليل ، في الوثائق الشرعية ، في الفترة التي درسناها ، على وجود حارة خاصة باليهود في غزة ، كما جاء في المقال المشار اليه ، ولعل ذلك قد حدث في فترة لاحقة للوثائق التي ندرسها ، والتي تقف عند عام ١٢٧٧/١٨٦١ . واذا صح ذلك فانه يعني ان هجرة مكثفة لليهود الى غزة قد تمت خلال حوالي خمس وعشرين سنة ، أي بين ١٨٦١ و ١٨٨٧ ، استوجبت فرزا طائفيا بين السكان . وجاء ذكر اليهود مرتين في وثائق غزة الشرعية التي استخدمناها ، وفي المرتين لم يكن هؤلاء اليهود من سكان غزة . ففي المرة الاولى اشارة الى شلوه اليهودي اليافي ، الذي استأجر اوضة (غرفة) بخان الزيت في غزة ، محل الكمرك ، ووضع فيها امتعته ودراهمه ،ثم قفلها وتوجه الى اسكلة يافا . وعند رجوعه ادعى ان ممتلكاته في الاوضة سرقت ، واتهم اناسا حلفوا ان لا علاقة لهم بذلك . وعجز شلوه عن اثبات التهمة عليهم ، فمنع من معارضتهم . والمرة الثانية حين اشترى الخواجه معتوق مسعد ، بطريق الوكالة الشرعية عن الحرمة رحيل بنت ساسون الجوهري البغدادي اليهودي ، بتاريخ ١٧ محرم ٢٧/١٢٧٥ آب ١٨٥٨ حصة من سبعة قراريط ونصف

قيراط وربع قيراط وثمن قيراط وثلاثة ارباع ثمن قيراط في الدار الكائنة داخل اسكلة يافا ، المعروفة بدار الكنفاني ، بخط حارة اليهود . ففي الحالة الاولى كان شلوه من يافا ، وفي الحالة الثانية لا نعرف مكان اقامة رحيل بالضبط ، وليست نسبة ابيها بالبغدادي بكافية للاستنتاج على ان مكان اقامتها كان في بغداد أو في غزة ، ولكن شراءها قسما من دار في يافا يدل على علاقتها بذلك البلد ان لم يكن على اقامتها فيه . واجراء البيع والشراء امام قاضي غزة ربما يفسر بأن البائعين اقاموا في غزة ، أو ان وكيلهم ، على الاقل ، الذي اجرى عملية البيع ، كان من سكان هذه المدينة ومن المقيمين فيها . ولم يكن أمر تسجيل حجج البيع في محكمة غير محكمة المدينة التي يوجد فيها العقار المباع بالامر الممنوع ، بل كان ذلك شائعا آنذاك الى درجة استدعت اصدار أمر من والي القدس الى قاضي غزة بتاريخ ٢ جمادى الثاني ١٢٧٥/٧ كانون الثاني ١٨٥٩ ، أي بعد اربعة أشهر ونصف من صدور حجة البيع العائدة لرحيل . طلب فيه التدقيق في عملية انتقال الاملاك ، وعدم تعاطي بيع اي عقار خارج منطقة القاضي « فبعد الآن اذا تعاطيتم عملا مخلا بهذه النظامات وانوجد حجة بيع وانتقال بعد الاعلان الذي حصل ليس مستوفيا النظام المقرر او حررتم حجة بيع محل واقعا بالقدس أو في محل خارج نيابتكم فلا نقدر نصمت عن اجرى التربية اللازمة »(١٢٨) .

ولو نظرنا الى مجموع السكان في غزة لوجدنا انسجاما ومساواة في التعامل ، بين اتباع مختلف المذاهب . مثلا ، اعتمدت شهادات المسيحيين في المحكمة ، بالنسبة للمسلمين ، والعكس بالعكس . كما ان دور السكن ، كما لاحظنا ، اختلطت ببعضها . واستدان اتباع المذاهب المختلفة بعضهم من البعض الآخر ، وتشاركوا في اعمال ومشروعات تجارية واحدة . ولم يعطل هذا التعايش بعض مظاهر التمييز ، التي كانت شائعة آنذاك في الدولة العثمانية ، كأن يشار الى المسيحي بالذمي ، أو النصراني ، وان يلقب بالمدعو ، أو الخواجة ، وان تستخدم كلمة « ولد » حين نسبته ، وليس «ابن» التي كني بها المسلمون . اما كلمة «المعلم» ، التي اشير بها الى عدد من المسيحيين والمسلمين فيبدو انها كانت ذات مدلول حرفي ، تشير الى اتقانهم الحرفة ، وتعادلها كلمة « اوسطة » ، المحرفة من « استاذ » الفارسية الاصل . ولم يكن وجود المسيحيين طارئا في غزة بل كانوا من سكانها الاصليين بدليل اشارة الوثائق لاحدهم بانه من نصارة غزة .

ولم تشر وثائق غزة ، في فترة دراستنا ، الى المذاهب المسيحية المختلفة فيها . وهناك اشارة في إحدى الوثائق الى بيع الحرمة مارية بنت روفايل القبطي دارا لها

بمحلة الزيتون بغزة . فاذا كانت كلمة « القبطي » تشير الى مذهبها ، فيعني ذلك ان اقباطا من مصر هاجروا ، مثل المسلمين ، الى غزة . وهناك اشارة الى ان صراف كمرك غزة كان زنون الارمني (وامين الكمرك جناب حمدي افندي) ، ولا نعلم الى اي مذهب مسيحي انتسب زنون . ولكن امرا اصدره والي القدس الى قاضي غزة ، علمي زادة السيد مصطفى افندي ، بتاريخ ٢ جمادى الثاني ١٢٧٥/ (٧ كانون الثاني ١٨٥٩) ، اشار الى وجوب التفحص عن هوية مشتري العقار ، وهل « هو من تبعة الدولة العلية أم لا وكيفية الوقوف على هذه الحقيقة يكون من راس الملة المنسوب اليها اعني ان كان من المسيحيين ورومي المذهب مثلا ام خلافه فيصير الاستعلام من رأس ملته ومتى أخذ الجواب انه من تبعة الدولة العلية وتبين محليا سلامة جميع ذلك المحل من المحذور ملكا وموقعا فعندها يصير الرخصة من الحكومة بتحرير حجة وسند البيع للمشتري كمايوافق اصول الشرع» (١٢٩) . ونلاحظ ان الامر خص المسيحيين من اصحاب الملل ، ربما لعدم وجود غيرهم ، كما انه خص ذكر المذهب الرومي ، أي الارثوذكسي ، المعروف والمعتمد في الدولة العثمانية . واشار ضمنا الى وجود مذاهب اخرى ، ربما كانت هي المعنية بالامر الصادر ، لان طلب التأكد من أن المشتري يجب أن يكون من تبعة الدولة العلية يعني ان اناسا من غير هذه التبعه كانوا يشترون العقارات بشكل مخالف لاصول الشريعة . ولعل في هذا ما يدل على تهافت الاجانب على شراء العقارات في غزة ، وربما في غيرها .

وقد اكدت الدولة العثمانية ، في فترة التنظيمات ، وفي اعقاب صدور خط شريف همايون في عام ١٨٥٦ وقانون العقوبات الجديد في ١٨٥٨ ، على المساواة بين سكان الدولة ، بقطع النظر عن مذهبهم . ففي ٢٥ ذي الحجة ١٢٧٤/ (٦ آب ١٨٥٨)، بعث والي القدس بأمر الى قائمقام غزة ، وكبار موظفيها ، يبلغهم بوجوب تطبيق المساواة العادلة بين جميع السكان « من كل صنف وتبعة ومن أي ملة ومذهب » ، عملا بأوامر الدولة العثمانية(١٣٠) .

ولو استعرضنا تركات المتوفين في غزة ، في فترة دراستنا ، لوجدنا معلومات هامة تتعلق بالحياة الاجتماعية والاقتصادية فيها . وهناك بضع ملاحظات ، في هذا المجال ، يجدر ذكرها أولا . فالمعتاد ان تنظم ضبوط التركات ، في المدن الكبيرة ، من قبل قسام عربي ، أو بلدي ، فيما يتعلق بالمدنيين ، ومن قبل قسام عسكري ، فيما يتعلق بالعسكريين . ونظرا لوجود نائب قاض حنفي واحد ، وبالتالي محكمة واحدة في غزة ، فقد نظرت هذه المحكمة في تركات المتوفين بعامة . والمعتاد أيضا ، كما في دمشق مثلا ، ان تذكر تركات كافة المتوفين ، على اختلاف مذاهبهم وثرواتهم

واجناسهم ، في سجلات القسام ، التي اشير اليها بالمخلفات ، وذلك بشكل متتال ، وليس وفق ترتيب معين ، كأن يخصص سجل ، أو جزء منه ، للمتوفين من غير المسلمين ، أو للنساء ، أو للريفيين . ورغم ان سجل الوثائق الشرعية في غزة ، الذي اعتمدناه ،ذكر مخلفات نساء توفين فيها ، فانه لم يذكر المتوفين في الريف التابع لغزة ، باستثناء حالتين ، احداهما لشخص توفي بقرية الدوايمة ، والاخرى لآخر توفي بخان يونس ، وكلاهما من موظفي كرنتينة غزة . اما الذين يحملون ، مثلا ، نسبة « الجبالي » او « الرملي » من المتوفين ، الذين ذكرت ضبوط تركاتهم ، فهم من سكان غزة الذين احتفظوا باصولهم الريفية في اسمائهم . ولم يرد في ضبوط المتوفين في سجل محكمة غزة ذكر للمتوفين من النصارى .

ومن الملاحظات الاخرى على ضبوط التركات ما جاء في المراسلة التي وجهها قاضي القدس « منلا افندي الديار القدسية » ، الى نائب القضاء في غزة ، بمناسبة تعيين هذا الاخير في منصبه ، حين أوكل اليه ، من جملة ما أوكل « تحرير التركات الغير جسيمة وتوزيعها بين مستحقيها بالفريضة الشرعية »(١٣١) . ولا نعلم هل هذا التقييد شيء جديد أم انه تذكير بقاعدة اهملها القاضي . فاذا طبقت هذه المراسلة بحذافيرها فهذا يعني ان قاضي غزة (نائب القضاء فيها) لم ينظر في التركات الكبيرة ، التي يفترض ان امرها قد اوكل الى قاضي القدس . ولا ندري ، في حال تطبيق ذلك ما اذا كان ضبط هذه التركات قد سجلت صورة عنه في سجل محكمة غزة . ولا نعرف ، كذلك ، سقف التركة ، الذي لم يسمح لقاضي غزة بأن يتجاوزه ، أو بمعنى آخر ما هي حدود « التركات الغير جسيمة » ، التي سمح له بالنظر فيها . وبتفحص ضبوط التركات في سجل غزة الذي استخدمناه نجد ان اكبر تركة فيه بلغت ٦٥٠٨٦ قرشا اسديا ، قبل حسم الرسوم والمصاريف المترتبة على التركة .

وبلغ عدد ضبوط التركات ، التي سجلت في سجل غزة الذي إعتمدناه ، ستة وخمسين ضبطا ، تاريخ أقدمها ٢٨ جمادي الاول ١٢٧٣/ (٢٤ كانون الثاني ١٨٥٧) ، وتاريخ احدثها حوالي منتصف جمادي الثاني ١٢٧٧/ (اواخر كانون الاول ١٨٦٠ ، وهي حدود السنوات التي يعالجها السجل . ومن مجموع التركات هذه ، خصت ثمان منها نساء توفين . واذا اعتبرنا ان عدد سكان غزة قدر ، في فترة دراستنا ، بحوالي خمسة عشر الف نسمة ، فان وفاة ستة وخمسين منهم على مدى حوالي اربع سنوات يعتبر نسبة ضئيلة ، رغم ان معظم المتوفين كانوا من اصحاب الاسر . ولم تذكر الوثائق من توفي من القاصرين ، ولا بد ان نسبتهم كانت

كبيرة . واذا صعب اتخاذ ضبوط التركات كمؤشر لمعرفة نسبة الوفيات بين السكان ، فان دراستها ، اذا ما اخذناها كعينة ، توصلنا الى نتائج اجتماعية واقتصادية هامة .

ويلاحظ في تركات الرجال الثمانية والاربعين المتوفين ان اربعة منهم لم تذكر لهم زوجات ، أو أولاد على قيد الحياة ، حين توفوا . وربما كانوا غير متزوجين ، أو متزوجين ماتت زوجاتهم ، وان ستة منهم كانت لكل منهم زوجتان ، مما يدل على تدني نسبة تعدد الزوجات . كما انه لم ترد أية حالة بلغت فيها زوجات شخص واحد ، خلفن له أولادا وكن في عصمته حين وفاته ، أكثر من زوجتين ، وفي حالة واحدة كانت احدى الزوجتين قاصرة . وطبيعي ان الزوجات اللواتي طلقن ، دون أن يخلفن أولادا ، لم يذكرن ، لانهن لا يرثن ، في حين يذكر الاولاد من زوجة سابقة ، لم يشر الى اسمها ، لانها لم تكن في عصمة صاحب التركة حين وفاته .

ونلاحظ ان عدد الابناء البالغين ، من الجنسين ، للرجال المتوفين الاربعة والاربعين ، بلغ واحدا وخمسين (منهم ٢٩ من الذكور و ٢٢ من الاناث) ، وعدد القاصرين بلغ تسعين (منهم ٤٤ ذكرا و ٤٦ انثى) ، أي ان مجموع الابناء ، من بالغين وقاصرين ، كان ١٤١ . وبذلك يكون وسطي ابناء الاسرة ثلاثة ، وهذه نسبة قليلة اذا ما أخذنا بعين الاعتبار الطبيعة الزراعية لسكان غزة ومنطقتها . ويتبين أيضا ان عدد الاناث بين الابناء الـ ١٤١ ، كان ٦٨ انثى ، اي بنسبة ٤٨٪ ، ولكن نسبة الاناث بين مجموع القاصرين ، وهو ٩٠ ، بلغت حوالي ٥١٪ ، في حين بلغت من مجموع البالغين ، وهو ٥١ ، حوالي ٤٣٪ . وربما يفسر هذا التدني في نسبة الاناث بين البالغين بقلة الرعاية التي تمتعت بها الاناث ، حين كن قاصرات ، مما أدى الى ارتفاع نسبة الوفيات بينهن .

ونتج عن كثرة عدد الاناث بين ورثة المتوفين تجزئة الارث الى حصص اكثر مما لو كان العدد الاكبر ، من الورثة ، من البنين . وحدث مثل ذلك بالنسبة لتعدد الزوجات ، لان الثلث قسم بينهن مهما كان عددهن . واذا اعتبرنا ان المرأة عندما تتزوج لا تنفق على نفسها بل ينفق زوجها عليها ، حتى بعد طلاقها ، وذلك خلال عدتها الشهرية ، كما تشير عشرات الوثائق في غزة ، فانها على قلة حصتها في الميراث ، تدخر كمية لا بأس بها من المال ، وتوظف ذلك في ميادين مختلفة ، مثل شراء العقارات ، والحلي ، وعقد الديون ، بالدرجة الاولى لزوجها ، وأولادها ، ثم للآخرين .

ولعل اهم استنتاج ديموغرافي نصل اليه من دراسة التركات هو النسبة الكبيرة من الابناء القاصرين الذين خلفهم المتوفون ، والتي بلغت ٩٠ من اصل ١٤١ ، اي حوالي ٦٣٪ . ولو اضفنا الى عدد القاصرين في التركات الاربع والاربعين التي درسناها ، أربعة أجنة ، يتوقع ولادتها لدى بعض زوجات المتوفين ، لارتفعت هذه النسبة الى حوالي ٦٤٪ . ونستنتج من ذلك احد أمرين : اما ان الزواج كان يتم في سن متأخرة نسبيا ، وهذا غير معقول ، بالنسبة للمعطيات الأخرى المعروفة في المجتمع الزراعي ، مثل حرص الاهل على زواج الابناء في سن مبكرة ، لاسباب اجتماعية واقتصادية ، او ان وسطي الاعمار بين الرجال كان متدنيا . ومهما كان السبب ، فان في ذلك دليلا على ان مجتمع غزة كان فتيا نسبيا . وطول اعمار الزوجات ، بالنسبة للازواج ، ربما يفسره صغر سنهن ، بالنسبة للازواج ، عند الزواج ، وقلة الاعمال المرهقة التي يقمن بها . كما ان من بقي منهن على قيد الحياة ، بعد وفاة أزواجهن ، يدل أيضا على مقاومتهن الطبيعية ومناعتهن ، حين كن صغيرات ، فبقين عندئذ على قيد الحياة .

ويمكننا أيضا ، من خلال الوثائق الشرعية ، معرفة النسب التقريبية للزواج والطلاق وايجاد خط بياني لها مرتبط بالاوضاع الاقتصادية . فقد اخذنا ، بصورة عشوائية ، عينة تقع ضمن فترة بين ٢٣ ذي الحجة ١٢٧٤/١٤ آب ١٨٥٧ ونهاية رجب ١٢٧٧/١١ شباط ١٨٦١ ، اي في حوالي واحد وثلاثين شهرا ، فوجدنا انه ذكر فيها احدى وخمسون حالة زواج مقابل سبع وثمانين حالة طلاق . ورغم ما قد يكون في هذا من تكرار في الزواج ، أو في الطلاق ، بالنسبة لشخص واحد ، فان النسبة المقارنة تبقى ذاتها . وهذا يدل ، بوجه عام ، على تفكك في الاسرة . وفي حالات الزواج الاحدى والخمسين كانت الزوجة في ثلاث وثلاثين منها بالغة عند الزواج ، وقاصرة في الحالات الاخرى . وأقل مهر بالنسبة للبالغة كان اربعمائة قرش ، وفي هذه الحالة كان الزوجان مصريين ، من نزلاء لواء غزة . واعلى مهر بلغ ١١٠٠٠ قرش ، وكان الزوج ابن أمير بدوي ، وهذا استثناء لان أعلى مهر بالنسبة لسكان غزة ، بلغ ٥٥٠٠ قرش . وبلغ متوسط مهر البالغة ، في العينة التي درسناها ، ١٦١٨ قرشا ، في حين بلغ متوسط مهر القاصرة ١٧٢٥ قرشا . ولم تقل نسبة المهر في الريف عنها في المدينة ، بصورة عامة ، مما يدل على مستويات اقتصادية متشابهة وتقاليد مالية متقاربة في الزواج . وفي مختلف حالات الزواج شكل المقدم ، أو الحال ، من المهر نسبة تتراوح بين ٨٠ و ٩٥٪ من مجموع المهر . ويؤكد هذا الفائدة الاقتصادية من الزواج بالنسبة لاهل العروس ، كما انه يفسر سهولة الطلاق وعدم وجود رادع اقتصادي كبير له .

ويلاحظ ، في العينة التي درسناها ، ان الزواج بين الاسر المتباعدة كان هو الغالب في حين كان الزواج بين الاقرباء أقل نسبة . وربما يفسر هذ الامر ، الذي يبدو غريبا ، بالنسبة لتقاليد الزواج ، وخاصة بين الريفيين ، أو بين من هم من اصول ريفية ، ان الزواج بين الاقرباء قد لا يسجل في المحكمة ، لان أي خلاف يحل عائليا . وقلما وردت حالات زواج بين سكان الريف وغزة . وكان الزواج في الريف ، بصورة عامة ، ضمن اطار القرية الواحدة ، وفي حالات أقل بين قريتين . كما ان الزواج بطريق البدل ، كان يزوج رجل ابنته من شخص آخر مقابل زواجه من ابنة هذا الشخص ، كان معروفا ، وخاصة في الريف . أما بالنسبة للنزلاء المصريين ، سواء في غزة أم في الريف ، فغالبا ما تزاوجوا من بعضهم ، ويسهل معرفة ذلك من نسبة « المصري » التي لحقت باسمائهم ، مما ابقاهم كتلة متراصة وغريبة .

أما بالنسبة للطلاق في العينة التي درسناها ، فقد بلغت حالات الطلاق بالثلاثة احدى وثلاثين حالة من اصل سبع وثمانين ، والبقية كانت بالمخالعة . ومبادرة الطلاق بالثلاثة ، كما هو معروف ، تخص الرجل ، اما الطلاق بالمخالعة فأمره بيد الزوجة ، او وكيلها ، الذي قد يكون والدها أو شخصا آخر ، ويتم بموافقة الزوج . وارتفاع نسبة الطلاق بالمخالعة يفسر بسبب اقتصادي ، كأن تحاول الزوجة الحصول على مؤخر مهرها ، ونفقة عدتها ، ونفقة اولادها القاصرين ، ثم تتزوج من جديد في غالب الاحيان . ويستفيد والدها ، ايضا ، مرة ثانية ، من زواجها هذا . ولا يعطى الزوج موافقته ، في الطلاق بالمخالعة ، الا حين يسترد ما بذمة الزوجة أو والدها ، أو وكيلها له . والمثال التالي يوضح ذلك : سألت الحرمة فطومة بنت عمرو أبو عقبة زوجها ، الحاج احمد بن يوسف بلبل ، ان يخالعها من عصمته وعقد نكاحه على ١٢٠٠ قرش بذمتها له ، فاجابها لذلك ، وقال لها خالعتك من عصمتي وعقد نكاحي على ١٢٠٠ قرش بذمتك لي ، ثم دفعت له من ذلك ٥٤٠ قرشا ، وقاصضها بمؤخر صداقها ، وقدره ٢٠٠ قرش ، ونفقة عدتها ، وقدرها ٦٠ قرشا . والباقي لها بعد ذلك ، وهو ٤٠٠ قرش اسدي ، اذن لها ان تصرفه على ولده القاصر منها ، في مدة اربع سنوات ، كل سنة مائة قرش . ولكن ، بعد اقل من شهرين ، تزوج الزوج ، الحاج احمد بن يوسف بلبل ، الحرمة فطومة ، مخلوعته سابقا ، بمهر قدره ٨٤٠ قرشا ، الحال منها ٦٤٠ قرشا ، والباقي ٢٠٠ قرش ، وهي التي زوجت نفسها على ذلك . ولا ندري اذا كان في الامر محاولة لتغطية شيء ما ، او ان اعادة الزواج اقتضتها ضرورات اقتصادية ، وربما شخصية .

وقد تمتعت المراة ، في غزة وريفها ، بقدر كبير من الاستقلال في العمل . وكثيرا ما ظهرت في المحكمة بنفسها ، فيما يتعلق بزواجها وطلاقها ، وشرائها العقارات ،

او بيعا ، ووقفها الاوقاف ، وعقدها الديون والمطالبة بها . كما انها ظهرت في المحكمة كمدعية ومدعى عليها . ومع ذلك ، لم يرد اسم امرأة بين شهود الحال أو العدول في المحكمة . وطبيعي ان الوكيل ناب عن المرأة ، حين لم تحضر بنفسها ، واقتضى ذلك منه ان ياتي بالشهود لتأكيد وكالته عنها . وكان ظهور المرأة المسيحية في المحكمة الشرعية اقل من ظهور المرأة المسلمة ، نظرا لان زواجها او طلاقها لا يتمان في هذه المحكمة ، وناب عنها ، في الغالب ، وكيلها في قضايا البيع والشراء . ولم تميز المحكمة بين المرأة المسلمة والمسيحية من حيث اللقب والنسبة ، كما فعلت بالنسبة للرجال من الطرفين ، فكلتاهما وصفتا بالحرمة ، اذا كانتا متزوجتين ، واستعملت في نسبتهما لفظة « بنت » فلان .

ووجدت الجواري في غزة ، واختلفت الوانهن واثمانهن . مثلا ، جارية سمراء بيعت في تركة احمد عودة البطل بثمن قدره ٢٥٠٠ قرش ، واخرى سوداء ، اسمها امان ، اعتقها مالكها قبل وفاته . وكان للنساء الثريات جوار او مملوكات اعتقنهن ابان حياتهن ، واوصين لهن بالمال بعد مماتهن . وعرفت الجارية ، قبل عتقها باسمها الاول فقط ، وبلونها ، واسم مالكها . واطلق على الجارية ، التي اعطيت حريتها ، لقب « معتوقة » أو « عتيقة » ، ونسبت الى معتقها ، كأن يقال الحاجة حليمة عتيقة الحرمة السيدة الحاجة زينب .

وكثر النزلاءالاغراب في غزة وريفها . واشير الى زاوية الهنود وخان زاوية الهنود فيغزة . في محلة البرجلية ، بخط سوق الفخار . وربما دل هذا على تواجد الهنود في غزة وترددهم عليها للتجارة . وليس من دليل ، في الوثائق ، على توطن الهنود فيها ، او في ريفها ، اذ انهم لا يذكرون في عمليات بيع العقارات او شرائها ،ولا في وقائع الطلاقوالزواج والوفيات . ولا ندري اذا كان قدوم الهنود الى غزة قد تم في الماضي البعيد او القريب ، واذا ما كان متصلا . ولكن نسبة الزاوية والخان اليهم ربما يدل على تواجد مستمر ، وان يكن غير مستقر .

وهناك اشارات الى وجود المغاربة في غزة وتوطنهم فيها . فقد ذكر استيفاء الحرمة حفيظة بنت المرحوم محمد آغا البرعصي المغربي مبلغا من المال من زوجها عبد الله بن المرحوم عبد الحفيظ آغا البرعصي المغربي . وذكرت دار الحاج هيبة المغربي بمحلة السجاعية ، بخط الشيخ محمد الطيار . ولا ندري الى اي مدى تواجد المغاربة في غزة وريفها ، وبأية صفة : كمجاورين ، ام كعسكريين ، ام كتجار ،ونستدل من لقب آغا ، بالنسبة للاسمين السابقين ، الصفة العسكرية التي غلبت على المغاربة

المتواجدين بكثرة ، مثلا ، في بلاد الشام ، منذ القرن الثامن عشر ، اذ كانوا فيهـا جنودا وحراسا . والتواجد المغربي ، في بلاد الشام في العهد العثماني ، بدأ اساسا بهدف المجاورة والعلم ، ثم ازداد في المجال العسكري . وزواج المغاربة ، فيما بينهم ، كما في المثال السابق ، أمر له دلالته ، لان من طبيعة المغاربة ، في بلاد الشام ، الانطواء على انفسهم والتكتل في طوائف ، يحمل كل منها اسم منطقة في المغرب انتسب افرادها اليها ، مثل طائفة الفاسية ، والمراكشية ، والدراوية ، والتونسية ، والسوسية ، والجزائرية ، والطرابلسية . وترأس كل طائفةشيخ رعى مصالحها . وترأس الجميع شيخ المشايخ .

واشارت الوثائق الى طائفة النور في غزة ، وذلك بمناسبة مخالعة تمت بين امرأة وزوجها من النور . ويدل لجوء النور الى المحكمة الشرعية على تمسكهم بمبادىء الشريعة ، وعلى ترددهم الى غزة ، وربما على استقرارهم الجزئي او الكلي في المنطقة .

اما الفئة التي فاقت ما عداها ، من النزلاء الاغراب ، بعددها ، واستقرارها في غزة وريفها ، واشتراكها في الفعاليات الاقتصادية المختلفة ، ونشرها لكثير من المصطلحات التي اتت بها من بلدها الاصلي ، فهي المصريون . ولا عجب في ذلك نظرا لجوار لواء غزة لاراضي مصر ، وللعلاقة السياسية والاقتصادية والسكانية المستمرة بين المنطقتين . وكانت قلعة العقبة ، في فترة دراستنا ، تابعة « قضا مصر » . وجاء في كتاب (بيديكر) ، من حوالي ١٨٩٠ ، ان غـزة شبه مصرية ، وان الغطاء الذي استعملته نساؤها كان مشابها لغطاء سكان مصر .

وكثيرا ما استخدم المصريون محكمة غزة لتسجيل عقود بيع العقارات وشرائها في مصر ، بالاضافة ، طبعا ، الى استخدامهم اياها في تسجيل العقود المحلية . واشارت الوثائق الى كل مقيم من اصل مصري بالمصري ، مما سهل تمييز المصريين عن غيرهم . واشير احيانا الى البلد الام للمصري المتوطن في لواء غزة ، كأن يكون من دار قلعة نخل ، من اعمال مصر ، او من قرية الصالحية ، او غيرها . وكان عدد من المصريين القادمين الى لواء غزة من اصول بدوية ، واشير اليهم على انهم من عرب مصر ، وسميت بعض طوائفهم مثل « طايفة السعادين » و « طايفة الحواز » و « طايفة أكباد الغتاورة » .

ولم يحل المصريون في محلة أو خط خاص بهم في غزة ، فقد تواجدوا ، مثلا ، في محلات الزيتون ، والبرجلية ، والسجاعية ، وتملكوا فيها . كما تزاوجوا ،

احيانا ، مع السكان المحليين . ويبدو ان الوضع الاقتصادي للمصريين المقيمين في غزة لم يكن متميزا ، نظرا لشرائهم دورا في غزة باسعار متدنية .

ولا تتوافر معلومات مفصلة حول عمل المصريين المقيمين في لواء غزة . وقد اشير الى احدهم انه جندي ، ولا ندري صفة الجندية آنذاك . فقد اشير ، في احدى الوثائق ، الى شاب في غزة اخذ للنظام ، مما يدل على نوع من الخدمة الاجبارية في الجيش العثماني . ووصف مصري آخر في غزة بانه دقاق البارود . وهذه صفة اطلقت على اصحاب الزنود القوية ، الذين عملوا في دق البارود بمطارق طويلة القبضة تحاشيا لانفجار البارود . واشير الى اخر اقتنى ثلث دار بمحلة الزيتون في غزة بانه الاسطى . واذا كان مفهوم اللقب هنا حرفيا فانه يدل على براعته في المهنة .

وقد عمل بعض المصريين في كرنتينة غزة . وكان لهذه الكرنتينة ، التي اقيمت جنوبي غزة ، في منطقة عرفت باسمها (ضريبة الكرنتينا) ، ناظر ، ومدير ، واون باشي ، اي قائد عشرة . وذكر كتاب (بيديكر) وجود كرنتينة ، بجوار قلعة ، قرب العريش ، في منطقة الحدود مع مصر . ولا ندري ما اذا كانت هي ذاتها الكرنتينة التي اشارت اليها وثائق غزة الشرعية ، حين ذكرت ضريبة الكرنتينا ظاهر غزة . ومما يرجح انها هي نفسها ان المفروض في الكرنتينة ان تكون في منطقة الحدود ، حيث يمكن عزل المصابين . كما ان مصطفى افندي اسطنبلي ، اون باشي كرنتينة غزة ، توفي في خان يونس ، القريبة من الحدود .

وقد تواجد المصريون في ريف غزة . ومن القرى التي سكنوها زرنوقة ، خان يونس ، دير البلح ، يبنا ، وجولس . واشير الى المصريين المقيمين في هذه القرى على انهم من نزالها . وذكرت اسماء عدد منهم بمناسبة خلاف حول ملكية ثور ، او حمار ، او جمل . وبلغ من سماحة صدر قاضي غزة ، واهتمامه بتطبيق القواعد الشرعية في كل كبيرة وصغيرة ، ان احضرت هذه الحيوانات في المجلس ، او اكتفي بايقافها في بابه .

وغالبا ما تزاوج المصريون بين بعضهم ، سواء في ريف غزة ام في قراها ، مما ابقاهم كتلة متميزة لم تندمج كلية مع السكان المحليين الا بمرور الزمن . ولم تكن نسبة الطلاق بينهم باقل من نسبتها بين السكان المحليين . وقلما لجأت المراة المصرية الى تعيين وكيل عنها في القضايا التي رفعتها الى المحكمة ، بل كانت تظهر بنفسها في المحكمة .

والكتلة السكانية الرئيسية في ريف غزة ، من حيث الاهمية السياسية والاقتصادية ، كانت البدو . وسنستعرض الفعاليات الاقتصادية للبدو في بحث الاقتصاد ، ونكتفي هنا بالتعريف بهم وذكر مظاهر من حياتهم الاجتماعية مستشفة من خلال الوثائق الشرعية . فقد انقسم البدو ، في منطقة غزة ، الى قسمين رئيسيين : عربان بلاد غزة الصف القبلي ، او القبالي ، وترأسهم الشيخ عيسى ابن المرحوم الشيخ عايش الوحيدي الحسيني ، الذي لقب بشيخ مشايخ هؤلاء العربان ، وعربان بلاد غزة الصف الشمالي ، وتراسهم الشيخ حسين بن المرحوم الشيخ رباح الوحيدي الحسيني ، الذي لقب بشيخ مشايخ هؤلاء العربان . ويبدو ان الشيخ حسن بن المرحوم الشيخ رباح الوحيدي الحسيني ، الذي كان احيانا الوكيل الشرعي عن اخيه الشيخ حسين ، قد حل مكانه كشيخ مشايخ عربان الصف الشمالي ، وذلك في الفترة الواقعة بين ٢٥ شوال ١٢٧٥/(٢٨ ايار ١٨٥٩)، حين ورد اسم الشيخ حسين ، شيخ مشايخ عربان بلاد غزة الصف الشمالي ، و ٢٥ شوال ١٢٧٦/(١٦ ايار ١٨٦٠) ، حين ورد اسم الشيخ حسن شيخ مشايخ هؤلاء العربان ، هذا اذا لم يخطىء كاتب الوثائق الشرعية بين اسمي حسين وحسن ، كعادته في كثير من الاحيان .

ويبدو من تسميات شيوخ عربان الصفين الشمالي والقبالي انهم انتسبوا الى اسرة واحدة ، هي الوحيدي او الوحيدات . ولا نعرف من اي وحيدات كان هؤلاء ، اذ ذكر العارف ان هناك وحيدات الترايين ووحيدات الجبارات ، ونسب الوحيدات اصلهم الى قريش وانتموا الى الحسين بن فاطمة الزهراء .

وورد كذلك ذكر عرب السواركة ، وموقعهم الى الشرق من غزة ، ربما في منطقة بئر السبع ، وهم غير عرب السويركة الى الجنوب منها . وذكر شيخ عرب القديرات ، واسمه الشيخ عوض بن المرحوم الشيخ سلامة ابي رقيق . ويشتق اسم عرب القديرات من قدرتهم « على الطعن والنزال » ، وكانوا في الجنوب الشرقي من غزة ، الى الشرق من عرب العزازمة . كما ورد ذكر عرب بني ايوب ، وعرب وادي موسى . ولا نعلم اذا كان هؤلاء الاعراب قد شكلوا جزءا من عربان الصف القبلي أو الصف الشمالي . والدليل انه وجد مشايخ عربان خارج نطاق نفوذ شيخي مشايخ الصفين القبلي والشمالي ان الاوامر التي ارسلها والي القدس الى المسؤولين في لواء غزة اشارت الى « مفاخر القبايل والعشاير شيوخ مشايخ عربان الصف القبالا والشمالا ومشايخ العربان زيد عشيرتهم » . وقد اعتمدت الدولة العثمانية على معظم هؤلاء العربان في نقل المؤن ، وعلى الاخص الشعير والحنطة من غزة الى بندر معان لحساب قافلة الحج الشامي .

وقد التزم البدو باصول الشرع الاسلامي فلجأوا الى محكمة غزة لفض المنازعات بينهم وبين غيرهم ، او لابراء ذمتهم تجاه مالية الدولة . كما انهم سجلوا بعض عقود الزواج في محكمة غزة . فقد تزوج ، مثلا ، الشيخ عوض ابن المرحوم الشيخ سلامة ابي رقيق ، شيخ عرب القديرات ، امونة البكر البالغ بنت المرحوم الشيخ احمد الشاعر اللهواني ، بمهر مقداره اربعة آلاف وخمسماية قرش اسدي ، الحال منها اربعة آلاف قرش ، والباقي يؤخر على الزوج لاقرب الاجلين ، زوجها على ذلك وكيلها السيد سلامة الهليس . وقبل الزوج المذكور لنفسه ذلك . ولا نعلم تماما فيما اذا كان الشيخ احمد الشاعر اللهواني غزيا ، ولو ثبت ذلك لتأكد لدينا بعض علاقات الود ، لا العداء ، بين سكان غزة والبدو . ويؤكد هذا التزام مشايخ البدو بالشريعة حين سجلوا عقود زواجهم في محكمة غزة ، وكذلك شراء عدد منهم دورا لهم في غزة . وكان اعلى مهر سجل في محكمة غزة ، في فترة دراستنا ، هو مهر زواج الشيخ عيسى بن المرحوم الشيخ عايش الوحيدي الحسيني ، شيخ مشايخ عربان بلاد غزة الصف القبلي ، من امينة البكر القاصر ابنة جناب عين الاغوات الشيخ عقيلة الحاسي (لعله شيخ بدوي) ، اذ بلغ احد عشر الف قرش ، الحال منها عشرة آلاف ، مقبوض بيد والد الزوجة . وقد زوجها على ذلك الشيخ حمود شقيقها الثابتة وكالته عن والدها عقيلة آغا .

وكان الشيخ عيسى قد اشترى ، قبل زواجه هذا بحوالي ثلاث سنوات ، دارا من اكبر دور غزة ، بمحلة الخضر ، بخط حمام السمرة ، داخل بوابة الكجك ، بأعلى ثمن ذكرته الوثائق لاية دار ، ومقداره ثلاثة وثلاثون الفا وستمائة قرش ، قبضت في المحكمة بيد الشقيقين البايعين ، الشيخ عبد الله والشيخ عبد القادر ، ابني المرحوم الحاج صقر العايدي . وكان هذان قد اشتريا عشرين قيراطا من هذه الدار من الشيخ عايش ، والد الشيخ عيسى ، الاصيل عن نفسه والوكيل عن ابنتي اخته ، كما اشتريا بقية القراريط ، وهي اربعة ، من شركاء الشيخ عايش ، بموجب حجج مؤرخة في رمضان وشوال ١٢٦١/(آب ــ تشرين الاول ١٨٤٥) . والذي يلفت النظر في هذه الدار انها ضمت ما لم تضمه دور غزة الاخرى ، لتتلاءم ، كما يبدو ، مع احتياجات ساكنها البدوي . فقد اشتملت على قاعة كبيرة بخيمتين ، وقاعة بخيمة واحدة ، الى جانب لواوين ، وبيوت وغيرها . ولم تكن هذه الدار اول تملك للشيخ عيسى في غزة ، فقد امتلك دارا ، بمحلة الزيتون ، بخط الخضر ، باعها بثمن قدره ستة آلاف وثمانية قروش ، قبل اربعة اشهر من شرائه الدار الاخرى .

للبحث صلة

(٤ ــ مظاهر اقتصادية)

الحواشي :

(١) انظر حول حكم افراد هذه الاسرة ومماوكهم الامير فروخ ، كتابنا : بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون برنابرت ، ١٥١٦ ــ ١٧٩٨ ، ط ٢ ، دمشق ، ١٩٦٨ ، ص ١٦٤ ، ١٩٩ ــ ٢٠٠ ، ٢٠٨ .

(٢) انظر حول حكم حسين بشا ابن مكي في دمشق ومهاجمة البدو قافلة الحج الشامي ، التي كانت بامرته ، كتابنا :
The Province of Damascus, 1723 - 1783, paperback ed., Khayats , Beirut, 1970, 209 ff.,

(٣) الخوري ميخائيل بريك ، تاريخ الشام (١٧٢٠ ــ ١٧٨٢) ، نشره الخوري قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٣٠ ، ص ٣٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢ .

(٥) انظر مصور هذا الطريق في كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ص ٤٧٣ .

(٦) انظر : مصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين ، دار الطليعة ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٩٧ . وانظر حول طريق الحج المصري ، كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ص ٤٧٥ .

(٧) سجل غزة ، ص ١٢ مكرر ، صورة امر من اسماعيل كامل باشا ، بتاريخ١٢ جمادي الثاني ١٢٧٣/(٧ شباط ١٨٥٧) .

(٨) سجل غزة ، ص ٥٩ .

(٩) انظر : K. Baedeker, **Palestine et Syrie, Manuel du Voyageur,** Deuxième édition, Leipzig, 1893, p. 159.

(١٠) سجل غزة ، ص ٨٣ : صورة مراسلة ، ص ٣٥٨ : صورة مراسلة .

(١١) انظر الدراسة المفصلة لهذه القرى التي قام بها الدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ١٨٩ ــ ٣٠٦ .

(١٢) عارف العارف (قائمقام غزة) ، تاريخ غزة ، مطبعة دار الايتام الاسلاميــــة في بيت المقدس ، ١٣٦٢/١٩٤٣ ، ص ١٩٧ .

(١٣) Baedeker, p. 159

(١٤) العارف ، ص ٢٠٩ .

(١٥) الدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ٩٩ .

(١٦) انظر حول المنطار ، العارف ، ص ٣٢٧ ، الدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ٩٩ ، وانظر ايضا :
Baedeker, p. 159; Martin M. Meyer, **History of the City of Gaza,** 1st ed. Columbia University Press, 1907, reprinted by AMS Press, N. Y. 1966, pp. 109- 111.

(١٧) انظر :
André Raymond, **Artisans et Commerçants au Caire au XVIIIe Siècle,** 2 tomes, Damas, 1973, 1974, II, p. 855.

(١٨) Reconnaissance of Gaza, of the villages of Harrat IT TE Fear and Sajaeah, by Lt Aldrihc Rl Engrs, June, 1841.

(١٩) انظر :
Amnon Cohen and Bernard Lewis, **Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century,** Princeton University Press, 1978, pp. 117 - 677.

(٢٠) Baedeker, p. 159

(٢١) G. Gatt, « Legende zum Plane von Gaza », ZDVP (**Zeitschrift des deutschen Palestina Vereins**), XI (1888), pp. 149-159.

(٢٢) Meyer, p. 108

(٢٣) انظر بصورة خاصة Cohen and Lewis, p. 127 :

(٢٤) **Ibid.**, p. 128

(٢٥) **Ibid.**, p. 120, n. 15

(٢٦) انظر ما يلي ، ص ٢٩ .

(٢٧) **Encyclopaedia of Islam,** 2nd ed., s, v. Ghazza, pp. 1080-1081.

(٢٨) ص ٢٥٥ .

(٢٩) ذكر العارف ، ص ٢٥٥ ، ان تسميتها تعود الى شجاع الدين عثمان الكردي الذي استشهد في غزة سنة ٦٣٧/ (١٢٣٩ - ١٢٤٠) ، ابان الحروب الصليبية . وذكر الدباغ ، ج١ ، ق٢،ص٥٣، احتمال نسبة الشجاعية الى شجاع الدين عثمان الكرديالذي استشهد بغزة، ولكنه،فيهامش ٢ ، رجح ان الاسم نسبة الى « السجاعية » ، وهيبلدة من أعمال «المحلة الكبرى» ، في مصر ، وان جماعة منها نزلت غزة وسميت البقعة التي استقرت فيها باسم وطنهاالاول.

(٣٠) ذكر العارف ، ص ٢٥٦ ، ان التسمية نسبة الى القبائل التركمانية التي سكنت غزة ، في القرن الثالث عشر ،في عهد السلطنة المملوكية . ولا ندري اذا كان للتسمية من علاقة بمسجد ركن الدين التركماني الذي بناه ركن الدين عمر بن خليلالتركماني الغزي في ٧٨٢/(١٣٨٠ - ١٣٨١) ،والذي ذكر العارف ، ص ٣٥٣ ، انه اندثر في عهده .

(٣١) ذكر العارف ، ص٣٤٩ ، ان كثيرين يظنون ان الذي بنى هذا الجامع هو جان بردي الغزالي والي الشام (ومن ضمنها غزة) في مطلع الحكم العثماني .

(٣٢) هناك مسجد اخر باسم محمد المغربي تسمىبه خط في محلة البرجلية . وقد اشار العارف ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، الى مسجد المغربي ، المسمى ايضا بمسجد الشيخ المغربي ، وانه في حي الدرج. والمعروف لدينا ، من خلال الوثائق الشرعية، انخط مسجد الشيخ محمد المغربي وجد فيمحلةالبرجلية التي اندمجت ، في زمن العارف ، وما قبله بحارة الدرج . اذا فمسجد المغربي الذي اشار اليه العارف هو مسجد محمد المغربي . ويبقىمسجد علي المغربي دون تعريف .

(٣٣) هكذا وردت كتابتها في الوثائق الشرعية ، وستبقىكتابة الاسماء كما وردت .

(٣٤) ذكر العارف ، ص ٣٥٣ ، ان مسجد الشيخ مسافر ، في حي السجاعية ، كان مندثرا في زمنه. وذكر ان الذي انشاه هـو الحاج سعد الدينمسافر بن قنبقلي احد المماليك السلطانية ، فيعام ٧٠٦/(١٣٠٦ - ١٣٠٧) .

(٣٥) لعله اشارة الى مسجد العابد ، الذي ذكر العارف ، ص ٣٥١ ، انه كان مهجورا في زمنه ، وانظر ايضا ، العارف ص ٣٥٤ .

(٣٦) نسبة الى جامع الباسطية . وجاء في الوثائق تعبير ((خربة جامع الباسطية)) ، سجل غزة ، ص ١٨،٩٩جا٧٤٤/(٤ كانونالثاني ٥٨) ، ولا ندريهل الجـامع كان خربة ام أن خربة وجـدت قـرب الجامع فعرف بها . وذكر العارف ، ص ٣٥٣،ان هذا المسجد كان مندثرا في زمنه ، وقامت في مكانه مطحنة زمو .

(٣٧) ذكر العارف ، ص ٣٥٣ ، ان هذا المسجد كانمندثرا في زمنه .

(٣٨) اشار اليها Gatt, p. 157 في عام ١٨٨٧ انها ساقية اخليل .

(٣٩) ذكر العارف ، ص ٣٥٢ ، مسجد الشيخ الباز في حي التفاح بغزة ، وانه كان مندثرا بكامله في زمنه . وقد يكون ان الشيخ الباز هذا تسمى خط الباز باسمه في محلة البرجلية او ان مسجد الشيخ الباز كان في محلة البرجلية ، وسمي الخط ، بالنسبة اليه ، اختصارا بخط الباز .

(٤٠) ذكر العارف ص ٣٥٠ ان هذا المسجد انشىء من قبل شهاب الدين احمد ازفير بن الظفر دمري في سنة ٧٦٢/(١٣٦٠ - ١٣٦١) ، وينسبالى ظفر دمر من بلاد المغرب ، وانه عامر الى يومه .

(٤١) لم يرد ذكره في كتاب العارف ، سواء بين اسماء المساجد القائمة او المهجورة او المندثرة ، او بين المزارات .

(٤٢) لا نعلم فيما اذا كان للشيخ علي ابو الكاس مقام او مسجد اندثر (لم يشر اليه ، على اية حال ، العارف) في هذا الخط واشار Gatt, p. 151 الى مقبرة ابو الكاس في غزة .

(٤٣) ذكر العارف ، ص ٣٤٢ ،، والدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ١٢٦ ، ان هذا الجامع من الجوامع الكبيرة في غزة ، ويأتي بعد الجامع العمري الكبير من حيث الحجم ومتانة البناء ، والذي بناه هو احمد ابن عثمان من رجال القرن الثامن الهجري .

(٤٤) لا نعرف الاسم الكامل لهذا الشيخ ولا لماذا نسب الخط اليه .

(٤٥) اشار العارف ، ص ٣٣٠ - ٣٣٧ ، والدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ١٢٤-١٢٦ ، الى الجامع العمري الكبير وانه قائم في محلة الدرج ، وانه بني في مكانه ، في الاصل ، معبد وثني ، ثم كنيسة بيزنطية . ولكن الوثائق الشرعية في فترتنا ذكرت خط الجامع الكبير في محلة الشجاعية وكذلك في محلة البرجلية ، وربما أن الخط استمر في المحلتين نظرا لان الجامع واحد . وبما ان العارف ، ص٢٥٥، حين تعداد احياء غزة ، لم يشر الى محلة البرجلية ، التي يعتقد انها دمجت بحي الدرج ، فان هذا يفسر ورود الجامع الكبير في حي الدرج في تصنيفه . انظر وصف الجامع الكبير حوالي عام ١٨٩٠ في كتاب Baedeker, p. 159

(٤٦) ذكر العارف ، ص ٣٥٠ ، ان هذا الجامع واقع في حي الشجاعية ، ولا يعرف عن ماضيه شيئا .

(٤٧) ذكر العارف ، ص ٣٥٠ ، ان التسمية نسبة الى اسم زوجة احد حكام غزة العثمانيين .

(٤٨) التسمية ، حسب الرواية المحلية ، بالنسبة الى جزء من سور غزة القديم ، الذي كثرت فيه الابراج ، انظر Cohen and Lewis, p. 117 n. 6

(٤٩) اشار العارف ، ص ٣٥١ ، الى ان هذا الجامع ، الذي اضحى في عهده في حي الدرج ، هجره الناس ، مع جوامع اخرى ، لقلة استعمالها ، او لعدم تصليح الخراب فيها . وورد هذا الخط ايضا في محلة الدرج ، انظر فيما يلي ، ص ١٨ .

(٥٠) ذكر العارف ، ص ٣٤٨ ، وجود مسجد زاوية الهنود . وحول هذه الزاوية ، انظر فيما يلي ، ص ٢٠ .

(٥١) لم يرد في كتاب العارف مسجد بهذا الاسم . ولا ادري اذا كان لهذه التسمية من علاقة باسم الشيخ عياد بن الشيخ عبد الله الايبكي ، الذي ذكر العارف ، ص ٣٤٠ ، انه مدفون بالقرب من السيد هاشم .

(٥٢) ذكر العارف ، ص ٣٤٧ ، ان هذا المسجد كان صغيرا ، وانه ينسب الى فرج ، عبد السيد محمد خطاب ، من اواخر القرن العاشر (اواخر القرن السادس عشر)، وانه دفن في ذلك الموقع وبني مسجد عنده .

(٥٣) انظر فيما سبق ، ص ١٦ ، حاشية ٣٢ . لعل هذا المسجد هو الذي اشار اليه العارف ، ص٣٤٦، ٣٤٧، وانه كتب على مدخله ان الذي أمر بانشائه هو شاهين بن عبد الله الكجكلي، واوقف الاوقاف عليه في ١٣٨٤/٨٧٦ - ١٣٨٥ .

(٥٤) لا تتوافر معلومات حوله .

(٥٥) ذكر العارف ، ص ٣٥١ ، ان مسجد الهليس كان مهجورا في زمنه .

(٥٦) انظر فيما يلي ، ص ١٨ .

(٥٧) انظر فيما يلي : مظاهر اقتصادية .

(٥٨) انظر فيما يلي : مظاهر اقتصادية .

(٥٩) ذكر العارف ، ص ٣٥٢ ، ان هذا المسجد ، الذي كان مندثرا في عهده ، بني في القرن الثامن الهجري ، وسمي كذلك لان فيه قبر الشيخ عليالاندلسي المتوفي رجب ٧٥٩/(حزيران ١٣٥٨) .

(٦٠) ذكر العارف ، ص ٣٥٢ ، انه من الساجد المندثرة في زمنه وان مقبرة حلت مكانه .

(٦١) ذكر العارف ، ص ٣٣٧ ، ان هذا الجامع ، في حي الدرج ، من اكبر جوامع غزة واتقنها بناء ، وانه يعتقد ان السيد هاشم جد الرسول الكريم مدفون فيه ، وقيل انه بني في ١٢٦٨/(١٨٥١ – ١٨٥٢) من قبل السلطان العثماني عبد المجيد (١٨٣٩ – ١٨٦١) . ولكن مما يشكك في هذا الكلام ما جاء في وصف هذا الجامع في كتاب Baedeker, p. 159 ، في حوالي عام ١٨٩٠ من ان هذا الجامع assez vielle ، وانه رمم في ذلك القرن ، أي التاسع عشر .

(٦٢) ذكر العارف ، ص ٣٥٢ ، مسجد العجمي بانهمن المساجد التي اندثرت في زمنه ، ولكنه ذكر ان موقعه في حي الزيتون ، ونظرا لان الوثائق الشرعية ذكرت خط مسجد العجمي في حي البرجلية ومسجد محمد العجمي في حي الزيتون ، ولعل الاسمين للشخص نفسه وان خط مسجد العجمي، امتد في الحيين ، أو ان خط مسجد العجمي في البرجلية هو غير خط مسجد محمد العجمي في محلة الزيتون .

(٦٣) ذكر العارف ، ص ٣٥١ ، ان جامع الشيخ منصور ، في حي الدرج ، بجوار خان الكتان ، كان مهجورا في عهده .

(٦٤) وجد خط في محلة الدرج يحمل اسم مسجد البلاطة ، انظر فيما يلي ، ص ١٨ ، والتشابه في التسمية ربما يفسره ان الخط امتد في المحلتين باسم واحد تقريبا (مع اختلاف بين جامع ومسجد). ولا نعرف دلالة « البلاطة » .

(٦٥) لا تتوافر معلومات حول هوية الشيخ شرف .

(٦٦) لم يشر اليه العارف بين المساجد القائمة ، او المهجورة ، أو المندثرة . واذا لم يكن له من اسم اخر فلعله يندرج تحت جملة « جوامع، سمعت بها ولكني لم اعثر لها على أثر » ، كما ذكر العارف ، ص ٣٥٣ .

(٦٧) ذكر Gatt, p. 157 ساقية الدرجية في غزة عام ١٨٨٧ ولعلها ساقية الدرج .

(٦٨) لا نعلم دلالة الكلمة .

(٦٩) يبدو ان جامعا كان مندثرا في زمن العارف ، ص ٣٥٢ ، قد اقترن بالزاوية .

(٧٠) ذكر اوليا جلبي ، الذي زار غزة في عام ١٠٤٩/(انظر العارف ، ص ١٧٩) ، ان في غزة قلعة تبعد ساعة عن البحر الى الشرق . ولم ترد في الوثائق الشرعية ، في فترة الدراسة ، معلومات عن القلعة . وقد اشار الى هذه القلعة الياس ديب مطر في كتابه المطبوع عام ١٨٧٤ ، وعنوانه : العصور الدرية في المملكة السورية ، وذكره الدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ٩٨ .

(٧١) انظر فيما سبق ، ص ١٧ .

(٧٢) يظن ان عثمان قوشقار الباني الاصل ، انظر العارف ، ص ٣١٩ .

(٧٣) لم يتبين لنا وجه التسمية .

(٧٤) وجد في هذا الخط دار اولاد شبير (سجل غزة ، ص ١٨٠ ، ١٧ر٧٥/ (٢٤ تشرين الثاني ٥٨) ويبدو انه سمي نسبة اليها .

(٧٥) ذكر العارف ، ص ٣٥٤ ، مزار الشيخ عطية ، الذي كان مسجدا ، وهو في زمنه مزار فيه قبر بنت الامام الشافعي ، وخادمه الشيخ عطية ، واضاف ، ص ٣٥١، ان المسجد اصبح مهجورا في عهده .

(٧٦) ذكر العارف ، ص ٣٤٠ ، انـه من الجوامع الشهيرة بغزة في زمنه ، وانه نقش على بابه الخارجي ان سنجر بن عبد الله الجاولي ، نائب غزة في ٧١١ – ٧٢٠/(١٣١١ – ١٣٢٠) وفي ٧٤٠/(١٣٣٩ – ١٣٤٠) امر ببنائه .

(٧٧) عرف ايضا بجامع كاتب الولاية ، كما يقول العارف ، ص ٣٣٨ ، والدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ١٢٧ واضاف العارف انه بالقرب من كنيسة الروم الارثوذكس ، وانه نقش على بابه ان احمد بك كاتب الولاية امر ببناء هذا الجامع في اوائل ذي القعدة ٩٩٥/ (اوائل تشرين الاول ١٥٨٧) . وقد اشار اليه Gatt, p. 152 باسم جامع كاتب ولايات .

(٧٨) من الجوامع التي اندثرت تماما في عهد العارف ، انظر ص ٣٥٢ .

(٧٩) ذكرها Gatt, p. 152 ، من جملة سوافي غزة . يبدو انه وجد عندها مسجد عرف بمسجد القيدة ، انظر العارف ، ص ٣٥٢ .

(٨٠) ذكر العارف ، ص ٣٥١ ، ان مسجد الشيخ الياس يقع ، في زمنه ، امام مقبرة ال الشوا ، بالقرب من زاوية الشيخ عابد (انظر فيما سبق ، ص١٦) ، وانه كان مهجورا انذاك .

(٨١) اشار العارف ، ص ٣٤٩ ، الى مسجد العجمي ، في حي الزيتون ، والى قيام الصلوات الخمس فيه . وذكر ان هناك مسجدين بهذا الاسم واحد في حي العجمي واخر في حي المباشر لكنهما في حالة من الخراب شديدة . ثم ذكر ص ٣٥٢ ، ان مسجد العجمي ، في محلة الزيتون ، كان مندثرا في زمنه ، ولا نعلم أي مسجد يتفق مع المسجد الذي ذكرته وثائق غزة الشرعية . وذكر Gatt, p. 152 جامع العجمي . انظر فيما سبق ، ص ١٧ .

(٨٢) ذكر العارف ، ص ٣٥١ ، ان هذا المسجد كان مهجورا في زمنه .

(٨٣) لا تتوافر معلومات عنه .

(٨٤) كانت اسرة شرير من الاسر الكبيرة في غزة في فترة دراستنا .

(٨٥) لا تتوافر معلومات عنه .

(٨٦) من المساجد التي ذكرها العارف ، ص ٣٥١ ، بانها مجهورة في زمانه ، واطلق عليه لقب جامع .

(٨٧) سمي بذلك لانه اعلى من المناطق المجاورة ويشعر المرء وكأنه يرتقي درجا للوصول اليه ، انظر العارف ، ص ٢٥٥، و Gatt, p. 142

(٨٨) ذكره العارف ، ص ٣٥١ ، باسم جامع الشيخ ظريف ، وانه في حي الدرج ، وكان مهجورا في زمنه

(٨٩) لعل التسمية مشتقة من جامع الشيخ ذكري ،الذي ذكرGatt, p. 142 وجوده في غزة في١٨٨٧ .

(٩٠) لعل التسمية نسبة لمسجد خالد ، الذي يحمل كتابة تذكر انه جدد في أوائل جمادي الاول ٩٥٥/ (أواسط حزيران ١٥٤٨) ، وانه يضم ضريح الشيخ خالد المتوفي سنة ١٣٤٨/٧٤٩ – ١٣٤٩ ، انظر ، العارف ، ص ٣٤٧ .

(٩١) هناك خط اخر باسم الخرابة ورد في محلة البرجلية (انظر فيما سبق ، ص ١٧) ، والتسميات تشير الى كثرة الخرائب في هذين الخطين .

(٩٢) انظر فيما سبق ، ص ١٧ .

(٩٣) انظر فيما يلي ، مظاهر اقتصادية .

(٩٤) انظر فيما يلي ، مظاهراقتصادية .

(٩٥) يبدو ان التسمية لمزار الشيخ شعبان ، الذيكان من أولياء غزة ، او ربما لمقبرة الشيخ شعبان ، انظرGatt, p. 152, Baedeker, p. 159 .اذا كان الشيخ شعبان هذا هو الذي ذكره العارف ، ص٣٥١،حين اورد اسم مسجد الشيخ شعبان ابي القرون ووصفه بانه مهجور فربما تكون التسمية مشتقة ايضا من هذا المسجد .

(٩٦) لعل التسمية نسبة الى جامع البيمارستان الذي ذكره العارف ، ص ٣٥٢ ، بانه من الجوامع التي اندثرت في زمنه ، وان به رباطا انشاه الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون سنة ٧٣٠/ ١٣٢٩ – ١٣٣٠ ، وانه بقى عامرا حتى عام ١٢١٥/١٨٠٠ ، اذ تهدم ابان هجوم نابليون بونابرت .

(٩٧) لعل التسمية بالنسبة الى مقبرة الخروبي التي ذكرها Gatt,p.151

(٩٨) كان هذا الجامع عامرا في زمن العارف ، انظر، ص ٣٤٠ ، وتسميته بالنسبة الى الشيخ عبد الله الايبكي من مماليك عز الدين ايبك المدفون بجانبه .

(٩٩) لا تتوافر معلومات حول هذا الجامع .

(١٠٠) لم يرد في كتاب العارف مسجد بهذا الاسم ، لعله اتخذ تسمية اخرى .

(١٠١) انظر فيما يلي ، مظاهر اقتصادية .

(١٠٢) ذكره العارف ، ص ٣٤٩ ، بانه يقع الى جانب بئر الاجمقية ، انه سمي كذلك لوجود سدره بالقرب منه .

(١٠٣) لعل التسمية نسبة الى اسرة الشرفا التي ذكرتها وثائق غزة الشرعية في فترة دراستنا.

(١٠٤) ذكرها.Gatt, p. 154 في ١٨٨٧ ، وذكر العارف ، ص ١٧٧ ، انها بنيت في عهد حكام غزة من ال رضوان في القرن السادس عشر ،

(١٠٥) هناك خط مسجد كاتب بمحلة الزيتون – انظر فيما سبق ص ١٧ – مما يدل على ان هذا الخط مر بمحلتي الزيتون والخضر .

(١٠٦) انظر فيما سبق ، ص ١٧، حاشية ٨٢ ، ويبدو ان هذا الخط مر بمحلتي الزيتون والخضر .

(١٠٧) لعلها سميت كذلك لكون سكانها ، كما قيل (العارف ، ٢٥٥) ينتسبون الى عامر بن لؤي .

(١٠٨) انظر فيما سبق ، ص ١٦،حاشية ٣٢.

(١٠٩) George Makdisi, « Muslim institutions of learning in eleventh-century **Baghdad», Bulletin of the School of Oriental and African Studies,** London, XXIV (1961), pp. 1 - 56.

(١١٠) ص ٣٣٠ ، ٣٣٦.

(١١١) ذكره العارف ، ص ٣٣٠ ، باسم جامع المحكمة ، سجل غزة ، ص ١٢٣ ، ٧ ذا ٧٤/ (١٩ حزيران ٨ ٥) .

(١١٢) انظر فيما سبق ، ص ١٧ .

(١١٣) ذكر العارف ، ص ٣٥٢ ، انه كان مندثرا فيزمنه .

(١١٤) سجل غزة ، ص ٢٧٨ ، ٥جا ٧٦/ (٣٠ تشرين الثاني ٩ ٥) .

(١١٥) ص ٣٤٨ .

(١١٦) ذكر العارف ، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٥ ، عشرة من هذه المزارات في غزة .

(١١٧) انظر فيما سبق ص ١٧ ، وانظر : سجل غزة، ص ١٢٣ ، ٧ ن ٧٤/ (٢١ نيسان ٨ ٥) .

(١١٨) سجل غزة ، ص ٣٧١ ، ٧ م ٧٧/(٢٦ تموز٦٠) .

(١١٩) انظر كتابنا : العرب والعثمانيون ، ١٥١٦ ـ١٩١٦ ، دمشق ، ١٩٧٤ ، ص ١٣١.

(١٢٠) سجل غزة ، ص ٢٧٥ ، ختام ر ٧٦ / (٢٥ تشرين الثاني ٥٩).

(١٢١) ص ٣٤٨

(١٢٢) يبدو ان هذه الزاوية ضمت جامعا ، عرف بجامع ابي مدين الغوث . وقد ذكر العارف ، ص ٣٥٢ ، انه كان مندثرا في زمنه ، ووصفه انه في حي الدرج ، الذي اندمج في حي البرجلية .

(١٢٤) سجل غزة ، ص ٦٠ ، ١١ ص ٧٤/(١ تشرينالاول ٥٧) .

(١٢٥) Baedeker, p. 158.

(١٢٦) انظر فيما سبق ، مظاهر اقتصادية .

(١٢٧) انظر فيما يلي ، مظاهر اقتصادية .

(١٢٨) سجل غزة ، ص ١٩٠ ، صورة امر من واليالقدس الى نائب الشريعة بغزة ، بتاريخ ٢ ج ٧٥/(٧ كانون الثاني ٥٩) .

(١٢٩) سجل غزة،ص ١٩٠ ، صورة امر من والي القدس الى نائب الشريعة بغزة ، بتاريخ ٢ ج ٧٥/(٧ كانون الثاني ٥٩).

(١٣٠) سجل غزة ، ص ١٤٥ ، ٢٥ذ٧٤/ (٦ اب ٥٨) .

(١٣١) سجل غزة ، ص ٨٣ ، صورة مراسلة ،بتاريخ غرة ربيع الاول ٧٤/(٢٠ تشرن الاول ٥٧) ، ص ٣٥٨ ، صورة مراسلة ، غرة ذي الحجة ٧٦/(٢٠ حزيران ٦٠).

D. Sourde

العرب والنوبة في صدر الاسلام

د. عوض محمد خليفات

كلية الآداب - الجامعة الاردنية

اطلق العرب في العصور الوسطى اسم النوبة على الارض الواقعة على جانبي وادي النيل والممتدة من الشلال الاول شمالا وحتى سنار جنوبا . وكانت هذه المنطقة عند ظهور الاسلام تضم ثلاث ممالك هي : مملكة نوباتيا ، وكانت تشمل الاراضي الممتدة من الشلال الاول حتى بلدة عكاشة جنوب الشلال الثاني . وقد سماها المؤرخون والجغرافيون العرب « المريس » (١) . وعاصمتها بجراش التي تسمى الآن فرس (٢) . اما المملكة الثانية فكانت تسمى مقرة، وعاصمتها دنقلة. وتمتد جنوبا حتى مدينة الابواب (كبوشية) ، حيث تبدأ حدود المملكة الثالثة المسماة علوة ، وعاصمتها سوبا . وقد اتحدت المملكتان الشماليتان في دولة واحدة في وقت غير معروف تماما . ويرجح بعض الباحثين المحدثين ان هذا الاتحاد قد حصل في الفترة الواقعة بين عامي ٥٨٠م و ٦٥٢ م(٣) . وبقيت دنقلة عاصمة للدولة الجديدة ، وعرفت المملكة كلها باسم مقرة. وهذا يعني ان اسم المملكة الثانية وعاصمتها قد غلبتا على الدولة الجديدة ، مما يوحي بأن الاتحاد قد تم بالقوة من قبل مقرة ، أو أن مملكة نوباتيا قد انضوت تحت نفوذ المملكة الثانية لاسباب قاهرة .

وقد اخذت الديانة النصرانية طريقها الى النوبة في القرن السادس الميلادي ، عن طريق البعثات التبشيرية التي ارسلت مباشرة من قبل حكام الدولة البيزنطية ، وعن طريق المبشرين الاقباط ، كما كان للاتصالات التجارية بين مصر والنوبة اثر كبير في نقل الافكار والعقائد النصرانية الى تلك البلاد . ولم يكد القرن السادس الميلادي يشرف على الانتهاء حتى اصبحت الديانة المسيحية الدين الرسمي للدولة ، وعقيدة معظم السكان هناك على الرغم من وجود اناس حافظوا على معتقداتهم الوثنية القديمة حتى فترة متأخرة (٤) .

واجه المسلمون منذ وطأت اقدامهم مصر موقفا عدائيا من النوبيين . ولعل السبب في ذلك يعود الى عوامل دينية معادية للاسلام ، وخاصة بعد الانتصارات التي احرزها المسلمون على بيزنطة المسيحية في مصر ، واخضاع الاقباط النصارى هناك للحكم الاسلامي . وجدير بالذكر أن الكنيسة المصرية كانت الزعيمة الروحية لنصارى النوبة ، وكان رؤساؤها هم الذين يعينون الاساقفة النوبيين في مناصبهم (٥) . ولعل ابرز مثال على التعاون بين النوبة ومصر النصرانية كان عندما استنجد والي الصعيد في أواخر الحكم البيزنطي بملك النوبة لمعاونته ضد العرب الفاتحين . وكادت النجدة ان تصل الوالي البيزنطي لولا ان فتنة وقعت بين البجة والنوبة ، ادت الى عدم وصول التعزيزات النوبية الى الوالي البيزنطي . فلاقى مصـــيره الســيء وهزم امــــام جحافل العرب المسلمين (٦) .

على الرغم من الهزائم التي مني بها البيزنطيون في مصر ، وعلى الرغم من اخضاع مصر للحكم العربي الاسلامي فان النوبيين لم يستكينوا بل راوا ان من واجبهم معالجة المسلمين ومفاجأتهم بالحرب ، انتقاما وثأرا لما حل بأهل ديانتهم في الشمال وحماية لانفسهم قبل ان يوجه العرب انظارهم اليهم . وأخذوا يمطرون مصر الجنوبية بغاراتهم المتتالية مسببين ازعاجا وانهاكا للقوات العربية المتواجدة هناك . و يبدو ان هذه الغارات كانت خطيرة جدا ، مما حدا بالخليفة ، عمر بن الخطاب ، لان يأمر واليه في مصر للتصدي لهذا الخطر ، ووضع حد له (٧) . وقد صدع عمرو بن العاص لامر الخليفة ، فوجه عـــدة حملات عسكرية ضد النوبة ، تختلف المصادر في عددها الا انها تتفق في ان النوبيــين قاوموا المسلمين بعنف ، ولم يستطع المسلمون احراز نصر حاسم عليهم طيلة ولاية ابن العاص . ويصف أحد المقاتلين العرب الذين شاركوا في احدى هذه الحملات (عــام ٢٠ ـــ ٢١ هـ) ما لاقاه المسلمون من عنت وشدة ، ويقول « شهدت النوبة مرتين في ولاية عمر بن الخطاب ، فلم أر قوما أحد في حرب منهم . لقدرأيتاحدهم يقول للمسلم اينتحب ان اضع سهمي منك ؟ فربما عبث الفتى منا فقال : في مكان كذا فلا يخطئه . كانوا يكثرون الرمي بالنبل فما يكاد يرى من نبلهم في الارض شيء ، فخرجوا الينا ذات يوم فصافونا ونحن نريد أن نجعلهم جملة واحدة بالسيوف ، فما قدرنا على معالجتهم . رمونا حتى ذهبت الاعين ، فعدت مئة وخمسون عينا مفقوءة »(٨) . وتبعا لذلك فقد سمى العرب النوبيين « رماة الحدق » وطلب بعض المقاتلين من عمرو بن العاص مصالحتهم الا انه ابى وظل يوجه الحملة تلو الاخرى ضدهم الى ان عزل عام ٢٥ هـ زمن الخليفة عثمان بن عفان(٩) . وخلفه في ولاية مصر عبد الله بن سعد ابن ابي السرح الذي واصل غاراته على النوبة . وكانت اكبر هذه الحملات وآخرها تلك التي حدثت عام ٣١ هـ / ٦٥١ ـــ ٦٥٢ م ، والتيقادها عبد الله بنسعد بنفسه،مصمما على ان يضع حدا نهائياالهجمات

النوبة على حدود مصر الجنوبية . وعلى ان يبقي الطرق التجارية بين البلدين مفتوحة وآمنة ، بعد ان هددتها الغارات والهجمات النوبية ، وعطلتها الحروب المتوالية بـين الطرفين (١٠) .

سار عبد الله بن سعد على رأس قواته، التي استطاعت ان تجتاز الحدود النوبية بنجاح وحاصرت العاصمة دنقلة . وقد قاوم النوبيون مقاومة عنيفة ، لكن العرب دكوا العاصمة بالمنجنيق وأجبروا النوبيين على الاذعان وطلب الصلح . وقد استجاب عبدالله بن سعد لطلبهم ، وعقد معهم اتفاقا عرف باسم اتفاق البقط (١١) . ولا تتحدث المصادر عن أسباب عقد هذا الاتفاق الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ الفتوحات الاسلامية في صدر الاسلام . ومن المحتمل ان عبد الله بن أبي السرح لم يشأ ان يواصل عملياته العسكرية واخضاع النوبة للحكم الاسلامي المباشر للاسباب التالية :

١ ـ أن بلاد النوبة كانت واسعة ، وفي الوقت نفسه قاحلة ، وبالتالي فانها تحتـاج الى استمرار بقاء حاميات عسكرية عربية قوية هناك ، مما يكلف العرب كثيرا من المال والرجال دون مردود مجز . ولعل هذا السبب هو الذي جعل بعض المسلمين يطلبون مصالحة النوبة منذ زمن عمرو بن العاص وخاطبه بعضهم قائلا : ان سلبهم (أي النوبيين) لقليل وان نكايتهم لشديدة (١٢) .

٢ ـ حاجة المسلمين للمال والجند لتثبيت الحكم العربي الاسلامي في مصر ، وحمايته من التهديدات البيزنطية التي لا تزال تشكل خطرا كبيرا ومستمرا في البحر الابيض المتوسط ، وفي شمال افريقية على حدود مصر الغربية . وتبعا لذلـك فان عبد الله بن سعد قد رأى ، بحق ، ان اي جهد عسكري اضافي في الجنوب سيحرمه من القوة اللازمة في الشمال . وبالفعل لم يكد يعقد الاتفاق مع النوبيين حتى عاد الى مصر للدفاع عن سواحلها ، واشتبك بعد اعوام ثلاثة مـع البيزنطيين في معركة ذات الصواري المشهورة (١٣) .

٣ ـ يبدو ان المسلمين في المرحلة الاولى لم يطمعوا في فتح النوبة ، بل كانوا يرمـون الى تأديب النوبيين ، وحماية حدود مصر الجنوبية من غاراتهـم المتكررة ، وضمان استمرار التجارة بين مصر وهذه البلاد . وقد ضمن الاتفاق ـ كمـا سنرى ـ هذه الاهداف جميعها .

٤ ـ وهناك عامل آخر ربما حد من طموحات عبد الله بن سعد ، وهو ان بوادر الثورة على الخليفة عثمان قد أخذت تلوح في الافق ، وبدأ المحرضون على عثمـان

نشاطاتهم داخل الحجاز وخارجها . وكانت مصر وكرا لبعض هؤلاء وانصارهم. فوجد ابن ابي السرح أن من غير الحكمة أن يتوغل في النوبة بينما الخليفة، رئيس الدولة ، واخوه في الرضاعة يواجه المصاعب في مركز الخلافة وفي الامصار . ولذا قرر عقد اتفاق مع النوبيين يعطي النوبيين الحرية في بلادهم ، ويحافظ في الوقت نفسه على مصالح المسلمين ويحمي حدودهم الجنوبية في مصر ويمنحهم بعض الامتيازات الاقتصادية .

اما بنود الاتفاق فتختلف حولها الروايات وتتناقض ، ويمكن تصنيفها على النحو التالي :

١ ــ روايات يزيد بن ابي حبيب (ت ١٢٨ / ٧٤٦ م) . ولد يزيد عام ٥٣ هـ / ٦٧٣ م لاب نوبي يدعي سويد ، الذي اسر اثناء غزوة ابن ابي السرح عام ٣١ هـ (١٤). والتقى يزيد ببعض الصحابة في مصر واصبح في زمن عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١ هـ / ٧٢٠ م) احد ثلاثة اشخاص وكل اليهم الخليفة أمر الافتاء (١٥). اما رواياته عن صلح النوبة فانه لا يسندها الى راوية معين . ومن المحتمل انه اخذ بعض معلوماته الاساسية حول شروط الاتفاق بين المسلمين والنوبيين عن والده الذي ــ كما ذكرنا ــ شهد معركة دنقلة ، وسبي اثناءها ، وشهد الصلح ، وربما عرف مبادىء الصلح وشروطه . وتتلخص روايات ابن ابي حبيب بأن عبد الله بن سعد بن ابي السرح صالح النوبيين على هدنة بينهم وبين المسلمين ، على أن لا يغزو أي من الفريقين الفريق الآخر ، وان يؤدي النوبة للمسلمين عددا من السبي كل سنة . ويؤدي لهم المسلمون ، مقابل ذلك ، قمحا وعدسا . ولكن ابن حبيب لا يذكر أرقاما معينة عن عدد السبي او كمية المواد الغذائية التي يعطها المسلمون لاهل النوبة .

وفي بعض الروايات لايشير الى نوع المواد الغذائية بل يكتفي بالقول ان ابن ابي السرح تعهد بأن يهدي المسلمون الى النوبة طعاما مسمى وكسوة في كل عام (١٦) .

٢ ــ ويعطي تلميذه الليث بن سعد رواية مختصرة تشبه في بعض محتوياتها ما ورد في رواية ابن حبيب ، يذكر فيها شرط عدم الاعتداء بين الطرفين ، وأن على النوبيين ان يعطوا المسلمين رقيقا ، ويعطيهم المسلمون طعاما بقدر ذلك (١٧).

٣ ــ ويروي ابن سعد عن الواقدي عن الوليد بن كثير عن يزيد بن ابي حبيب عن شخص يدعى ابو الخير ان النوبيين سألوا عبد الله بن سعد بن ابي السرح

الصلح والموادعة فأجابهم الى ذلك على غير جزية ، لكن على هدنة ثلاثمائة راس في كل سنة وعلى ان يهدي المسلمون اليهم طعاما بقدر ذلك . وتشبه هذه الرواية روايات ابن أبي حبيب وتلميذه الليث الا انها تختلف معهن في ذكر عدد السبي . والغريب ان الواقدي لا يذكر هذه الرواية في كتابه عن فتوح مصر والاسكندرية، كما ان البلاذري هو المصدر الوحيد الذي يورد هذه الرواية(١٨).

٤ — ويورد ابن خرداذبه رواية بدون سند يقول فيها : ان عبد الله بن ابي السرح صالح النوبة على ثلاثمائة راس هدية ، ليست بجزية ولا خراج ، ولهم على المسلمين العوض على الموادعة . وهم (النوبيون) أصحاب الزرافة التي تهدى الى الخلفاء (١٩) . ويبدو أن ابن خرداذبه قد جمع معلوماته هذه من مصادر مختلفة وانها تعبر عن تطبيق متأخر لاتفاق البقط . لان اهداء بعض انواع الحيوانات للولاة المسلمين ، كالزرافة ، لم يحدث الا في العصر العباسي ، وذلك نتيجة لعدم مقدرة النوبيين على الوفاء بالتزاماتهم من الرقيق، فكانوا يعوضون النقص ببعض الحيوانات النادرة التي يطلبها الولاة او الخلفاء .

٥ — ويورد البلاذري رواية مجموعة من مصادر مختلفة ، تفيد بأن عدد السبي الذي اعتاد النوبيون ان يدفعوه للمسلمين كل سنة كان ٤٠٠ راس يأخذون بدلا منها طعاما من مصر (٢٠) .

٦ — ويورد ابن عبد الحكم رواية يسندها الى بعض مشايخ اهل مصر ، يذكر فيها ان عدد السبي الواجب تقديمه للمسلمين كل سنة كان ٣٦٠ راسا ، او ٤٠٠ راس، منها ٣٦٠ لفيء المسلمين ، ولوالي البلد اربعين رأسا (٢١) .

٧ — وينقل لنا ابن عبد الحكم رواية اخرى عن بعض مشايخ مصر المتقدمين الذين اخذوا معلوماتهم من سجلات الديوان في مصر . وتقول الرواية : ان هؤلاء الشيوخ قد نظروا في الديوان ، فوجدوا فيه مايلي : «انا عاقدناكم، ان توفونا في كل سنة ثلاثمائة راس وستين راسا ، وتدخلون بلادنا مجتازين غير مقيمين، وكذلك ندخل بلادكم على انكم ان قتلتم من المسلمين قتيلا فقد برئت منكم الهدنة.، وعلى ان آويتم للمسلمين عبدا فقد برئت الهدنة ، وعليكم رد آباق المسلمين ومن لجأ اليكم من أهل الذمة (٢٢) . ويبدو من هذه الرواية ان أصحابها لم ينقلوا وثيقة الصلح كاملة ، بل اكتفوا بالمبادىء الاساسية التي احتواها عقد الاتفاق بين الطرفين . واذا صحت المعلومات الواردة فيها ، فانها

تعتبر اقدم نص وصل الينا منقولا عن الوثيقة الاصلية المحفوظة في سجلات الديوان الرسمية بالفسطاط .

٨ ـ اما المسعودي الذي زار مصر سنة ٣٣٢ هـ فيعطي تفصيلات اكبر عن اعداد السبي المقرر سنويا ، وكمية المواد الغذائية التي يرسلها المسلمون مقابل ذلك الى النوبة ويقول : « ... فصالحهم (عبد الله بن سعد) على رؤوس من السبي معلومة ، مما يسبيها هذا الملك المجاور للمسلمين من غيرهم من بلاد النوبة ... فصار ما قبض منه من السبي سنة جارية في كل سنة الى هذه الغاية يحمل الى صاحب مصر ، ويدعى هذا السبي بأرض مصر والنوبة بالبقط . وعدد ذلك ثلاثمائة راس وخمس وستون راسا ، وآراه رسما على عدد أيام السنة ، هذا لبيت مال المسلمين بشرط الهدنة بينهم وبين النوبة. وللامير بمصر غير ما ذكرنا من عدد السبي : اربعون رأسا، ولنائبه المقيم بلاد أسوان المجاور لارض النوبة ، وهو المتولى بقبض هذا البقط ، وهو السبي ، عشرون راسا غير الاربعين . وللحاكم بأسوان الذي يحضر مع امير اسوان لقبض البقط خمسة ارؤس غير العشرين التي يقبضها الامير ، ولاثنى عشر شاهدا عدولا من اهل اسوان يحضرون مع الحاكم لقبض البقط اثنى عشر راسا من السبي على حسب ما جرى به الرسم في صدر الاسلام في بدء ايقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة » (٢٣) .

ان هذه التفصيلات الرقمية التي يذكرها المسعودي لا ترد في اي مصدر آخر سواء قبل المسعودي ام بعده . ولعل المسعودي قد ذكر ما كان موجودا في عصره وخاصة عام ٣٣٢ هـ عندما زار مصر وكتب روايته حول هذا الموضوع . واذا صح هذا الرأي فان الاختلاف في الروايات حول ارقام السبي انما تعود الى اختلاف التطبيق الفعلي للاتفاق الاصلي من سنة لاخرى .

٩ ـ ويورد المقريزي رواية اخرى مفصلة منقولة عن ابي خليفة حميد بن هشام البحتري عن ابي زكريا يحيى بن عثمان عن والده عثمان بن صالح المتوفى عام ٢١٩ هـ/٨٣٥م . تذكر الرواية أن النوبة صولحوا على ان يدفعوا سنويا ٣٦٠ راسا لفيء المسلمين ، ولصاحب مصر ٤٠ راسا ، ويدفع اليهم مقابل ذلك « الف اردب قمحا ، ولرسله ثلاثمائة أردب ، ومن الشعير كذلك ، ومن الخمر الف اقنين للمتملك ، ولرسله ثلاثمائة اقنين وفرسين من نتاج خيل الامارة ، ومن أصناف الثياب مائة ثوب ، ومن القباطي اربعة أثواب للمتملك ، ولرسله

ثلاثة ، ومن البقطرية ثمانية أثواب ، ومن المعلمة خمسة أثواب وجبةمجملة للملك ، ومن قمص ابي بقطر عشرة اثواب ، ومن احاص عشرة اثواب ، وهي ثياب غـلاظ »(٢٤) .

يبدو ان هذه الرواية لا تعكس الصورة الحقيقية للاتفاق الذي جرى بين ابن ابي السرح والنوبيين ، اذ لا يعقل ان يتعهد ابن ابي السرح بان يعطي النوبيين خمرا، ويلزم من يخلفه من الولاة باتباع هذه السنة . واذا تذكرنا ان هذه الاتفاقية قـد صودق عليها من قبل الخليفة نفسه ، فاننا على يقين بأن ما ورد في هذه الروايةلايعطي الصورة الحقيقية للصلح بين المسلمين والنوبة في تلك الفترة المبكرة . ومما يدل على صحة هذا الراي أن عطية الخمر لا ترد في الروايات المعاصرة مثل روايات ابن ابي حبيب ، ولا في الروايات التي زعم اصحابها انهم اخذوا معلوماتهم من سجـلات الديوان(٢٥) . ويبدو لي ان رواية عثمان بن صالح هذه عبارة عن مزيج من المعلومات بعضها يعود الى زمن ابن ابي السرح وبعضها الى زمن عثمان بن صالح . وربمـا اضاف اليها الرواة والنساخ فيما بعد حتى وصلت الى المقريزي على النحو الـذي رأيناه . ومن المحتمل ان بعض المعلومات الواردة فيها انما تعبر عن التبادل التجاري بين المصريين والنوبيين في الوقت الذي يتبادل فيه الطرفان البقط والهدايا . فمن المعروف أن بعض التجار المصريين من أهل الذمة كانوا يستغلون فرصة تبادل البقط السنوي للتبادل التجاري مع النوبيين . وكان بعضهم يبيع الخمر والخل المعتق للنوبيين ، فظن بعض المعاصرين والرواة ان هذا العمل كان جزءا من الاتفاق الاصلي بين المسلمين واهـل النوبـة .

اما ما تذكره الرواية من ان والي مصر قد ارسل الى الديوان ، بعد سماع الرواية من عثمان بن صالح ، فاستخرج خبر النوبة ، ووجد كلام عثمان بن صالح مطابقا لما فيه ، فلا يتعدى ان يكون ذلك اختراعا من قبل الرواة المتأخرين ليعطوا الرواية مظهرا حقيقيا . وخاصة ان الوالي كان بامكانه الاطلاع على الوثيقة مباشرة من السجلات المحفوظة لديه في الديوان ولا حاجة لان يشغل نفسه جزءا من الوقت في السؤال عمن يعرف خبر النوبة من مشايخ مصر كما تزعم الرواية .

١٠ ــ ويورد المقريزي رواية سماها « كتاب البقط » يفصل فيها شروط الصلح الذي جرى بين عبد الله بن أبي السرح وملك النوبة عام ٣١ هـ . ولكنه لايذكر سندا

لهذه الوثيقة ، ولا يخبرنا عن المصدر الذي استقى منه معلوماته . وتـــدل العبارة التي قدم بها لنص الوثيقة على انه نسخها من مصدر مكتوب . ومـــن المحتمل انه اخذ بعضا من نصوصها من روايات عبد الله بن أحمد بن ســـليم الاسواني الذي زار النوبة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري مبعوثا من الخليفة الفاطمي المعز الدين الله الى ملك النوبة . وبعد عودته صنف كتابا سماه « اخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل » (٢٦) . وقد ضاع هذا الكتاب ولم يصل الينا الا ما نقله بعض المؤلفين المتأخرين ومنهم المقريزي الذي نقل عنه بعض المعلومات عن ممالك النوبة والبجة في كتابيه : الخطط والمقفى .

اما نص الوثيقة فقد اورده المقريزي على النحو التالي : بسم الله الرحمن الرحيم عهد من الامير عبد الله بن سعد بن ابي سرح لعظيم النوبة ولجميع اهل مملكته، عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة ، من ارض اسوان الى حد ارض علوة ، ان عبد الله بن سعد بن ابي سرح جعل لهم امانا وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممـن جاورهم من اهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين واهل الذمة : انكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي صله الله عليه وسلم ، ان لا نحاربكم ، ولا ننصب لكم حربا ، ولا نغزوكم ما اقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم ، علـى ان تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلادكم مجتازين غير مقيمين فيه . وعليكم حفظ من نزل بلادكم او يطرقه من مسلم او معاهد حتى يخرج عنكم . وان عليكم رد كل آبق خرج اليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه الى ارض الاسلام ، وعليكم رد من لجأ اليكم من مسلم محارب للمسلمين وان تخرجوه من بلادكم الى ارض الاسلام ولا تستميلوا عليه ولا تمنعوا منه . وعليكم حفظ المسجد الـذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ، ولا تمنعوا منه مصليا ولا تعرضوا لمسلم قصده وجـاور فيه الى ان ينصرف عنه . وعليكم كنسه واسراجه وتكرمته . وعليكم في كل سنـة ثلثمائة وستون راسا ، تدفعونها الى امام المسلمين من اوسط رقيـق بلادكم غير المعيب ، يكون فيها ذكران واناث ، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لـم يبلغ الحلم . تدفعون ذلك الى والي اسوان . وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد ارض علوة الى ارض اسوان . فان انتم آويتم عبـدا لمسلم او قتلتم مسلما او معاهدا أو عرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم ، او منعتم شيئا من الثلاثمائة راس والستين راسا فقد برئت منكم هـذه الهدنة والامان ، وعدنا نحن وانتم على سواء ، حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكميـن .

علينا بذلك عهدالله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد صلى اللهعليه وسلم،ولنا عليكم بذلك اعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من اهل دينكم وملتكم . الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك .

وكتب عمر بن شرحبيل في رمضان سنة احدى وثلاثين(٢٧) .

يبدو من مقارنة ما ورد في هذه الوثيقة مع المعلومات الواردة في المصادر الاخرى المتقدمة انها احتوت على المبادىء العامة للصلح بين العرب والنوبة زمن ابن ابي السرح، الا ان اشارة الرواية الى المسجد الذي ابتناه المسلمون في دنقلة ، عاصمة النوبة ، يجعل الباحث يشك في صحة كل ما جاء في هذه الوثيقة ، اذ من الثابت ان المسلمين في تلك الفترة المبكرةلم يكن لهم مسجد في المدينة . وليسهناك اي دليلعلىان جماعة من المسلمين قد استقروا في دنقلة في ذلك الوقت الذي ساد فيه العداء بين المسلمين في مصر والنوبة المسيحية . وتشير الروايات بوضوح الى ان المسلمين لم يكن لهم مسجد في دنقلة حتى عام ٣٦٥هـ /٩٧٥م . ففي ذلك العام زارها ابن سليم الاسواني وحدث أن حصل عيد الاضحى ، فلم يجد مكانا في المدينة يصلي فيه ، فذهبمع ستين من المسلمين (ربما كانوا من رفاقه ، او تجارا) الى خارج المدينة ، حيث ادوا شعائر صلاة العيد ، وأقاموا احتفالا بهذه المناسبة اثار حفيظة بعض اهل دنقلة ، وطلبوا من الملك انكار هذا العمل . فأبى الملك وقال : « هذا رجل فارق اهله ووطنه في صلاح ، وهو يوم سرور ، ويريد ان يتجمل بفعله هذا فلا ابخل »(٢٨) .

ومن المستبعد ان يكون قد بني مسجد كبير في مدينة دنقلة قبل عام ٧١٧ هـ/ ١٣١٧ م . عندما اعتلى عرش دنقلة عبد الله برشمو ، ابن اخت الملك داود النوبي ، بمساعدة القوات المملوكية ، وبذلك أصبح اول حاكم مسلم في بلاد النوبة . وقام بتحويل الكنيسة الكبيرة في دنقلة الى جامع . وقد عثر على نقش عربي في المسجد المذكور كتب بأمره لتخليد هذا العمل . ويحمل تاريخ السادس عشر من ربيع الاول سنة ١٧١٧ هـ (٢٩) .

على الرغم من ان وثيقة المقريزي احتوت بعض المعلومات المشكوك فيها ، مثل قضية المسجد ، الا ان الباحث يجد ان معظم المبادىء الواردة فيها موجودة في المصادر والروايات المتقدمة . كما ان بينها وبين الروايات الاخرى التي اوردها ابن عبد الحكم نقلا عن اناس اخذوا معلوماتهم من سجلات الديوان شبها كبيرا ، من حيث نصها على الهدنة والامان ، وعدد السبى ، وكذلك التزام الطرفين باستمرار التبادل

التجاري ، وعدم ذكر اي التزام مكتوب من المسلمين بدفع كمية من الطعام الى النوبيين .

بعد هذا العرض والتحليل للروايات المختلفة التي تناولت اتفاق البقط بين المسلمين والنوبة ابان ولاية عبد الله بن ابي السرح عام ٣١ هـ فان الباحث يستطيع - رغم التناقض الموجود في الروايات - استخلاص عدد من النقاط ، او ربما الحقائق ، اتفقت عليها معظم الروايات يمكن اعتبارها الخطوط العامة الرئيسة للاتفاق المعقود بين المسلمين والنوبة في تلك الفترة المبكرة ، ويمكن اجمالها بما يلي :

١ - الهدنة والامان من الحرب بين الطرفين .

٢ - ان يدخل رعايا كل طرف بلد الطرف الاخر مجتازين غير مقيمين ، ومعنى هذا المحافظة على استمرار التجارة بين مصر والنوبة .

٣ - حماية كل مسلم او معاهد يدخل النوبة حتى يخرج منها .

٤ - على النوبيين ان يردوا الى والي مصر كل مسلم منشبق او ذمي خارج على طاعة المسلمين .

٥ - ان يدفع النوبيون سنويا ٣٦٠ راسا من السبى للمسلمين . ويتم تسليمهم تحت اشراف والي اسوان المسلم ، في قرية يقال لها القصر ، على بعد خمسة اميال من اسوان بالقرب من بلاق ، داخل ارض النوبة .

٦ - بالاضافة الى هذه البنود التي يرجح الباحث انها تشكل المبادىء الرئيسية للوثيقة التي كتبت بين ابن ابي السرح وملك النوبة ، والتي اطلق عليها المؤرخون المسلمون « كتاب البقط » ، فقد وعد ابن ابي السرح النوبيين بأن يرسل لهم بعض حاجاتهم من الحبوب والاطعمة هدية من المسلمين وليست شرطا لازما . ويبدو ان هذا الوعد كان شفهيا ولم يرد في الوثيقة المكتوبة ، ومن هنا فقد ذكر بعض المؤرخين بأنه « لا سنة للنوبة على المسلمين »(٣٠) وعلى اي حال فقد وفى ابن ابي سرح ومن تبعه من الولاة بهذا الوعد ، ومع الزمن اصبح رسما يأخذه النوبيون عند دفع البقط في كل سنة(٣١) ، فظن المؤرخون ان هذا الوعد كان جزءا من الوثيقة الاصلية . وعلى اي حال فان عدم ادراج هذا الوعد في الوثيقة المكتوبة كان خطوة من جانب ابن ابي السرح لاشعار النوبيين بهيبة المسلمين وقدرتهم . ومحاولة منه لجعل الباب مفتوحا لمن يأتي بعده من الولاة لتعديل الاتفاق ان رأوا في ذلك مصلحة للمسلمين .

ويظهر من سير الحوادث في العصور التالية ان المبادىء الاساسية لهذا الاتفاق ظلت محترمة من قبل الطرفين لفترة طويلة ، غير ان التطبيق العملي من حيث عدد السبى النوبي المقرر للمسلمين وكميات المواد الغذائية التي وعد المسلمون ان يهبوها الى اهل النوبة كانت تختلف من وقت لاخر طبقا لعدة عوامل اهمها :

١ ـ حاجات الفريقين : المسلمين والنوبيين .

٢ ـ رغبة الخليفة عندما يرفع له امر يتعلق باتفاق البقط .

٣ ـ رغبة والي مصر وغيره من الموظفين المسلمين المكلفين بتنفيذ الاتفاق مثل والي أســوان واعوانــه .

٤ ـ الحالة السياسية في بلاد الخلافة الاسلامية عامة ومصر خاصة .

٥ ـ الحالة الاقتصادية في النوبة .

وفي ضوء هذه العوامل يمكن للباحث ان يفسر الاختلاف الواضح في الروايــات حول عدد السبي النوبي وكمية المواد الغذائية الاسلامية . ويمكن اضافة سبب اخر لهذا الاختلاف الرقمي وهو ان المسلمين وسكان مصر من اهل الذمة كانوا يستغلون الفرصة السنوية لتبادل البقط فيذهبون الى بلدة القصر حيث يتبادلون التجارة مع النوبيين مما حدا ببعض المؤلفين الى الخلط بين بنود الاتفاق وبين المبادلات التجارية الحرة . وما تذكره بعض المصادر من ارسال الخمر الى النوبة من قبل المسلمين انما هو تعبير عما كان يحدث فعلا من الناحية التجارية . وظن بعض الرواة ان الخمــر جزء من التزام المسلمين نحو النوبة فذكروه في رواياتهم . ولهذا فقد امر بعض الولاة والخلفاء ، عندما علموا بهذا النوع من التبادل التجاري بوجوب استثناء الخمر مــن التبادل بين المسلمين والنوبة(٣٢) .

وكما اختلفت الروايات في عدد السبي وبعض شروط الاتفاق الاخرى ، فقــد اختلف الفقهاء المسلمون منذ فترة مبكرة حول ماهية هذا الاتفاق ، وهل يعتبر صلحا كما جرت العادة في الفتوح الاسلامية أم لا ! . وهل يعامل النوبيون معاملة اهــل الصلح من حيث عدم جواز شراء رقيقهم ام معاملة خاصة تجيز اخذ السبي وشراء الرقيــق منهــم .

لقد اعتبر الفقهاء المدنيون ، وعلى راسهم مالك بن انس ، اتفاق البقط مع النوبة صلحا ولم يجيزوا شراء رقيقهم . اما فقهاء العراق فقد اعتبروا ما جــرى

بين المسلمين والنوبة موادعة ومنعوا شراء رقيقهم لان احكام الموادعة في نظرهم امان . والامان لا يجيز الاسترقاق . وهو تفسير مخالف لتفسير الفقهاء المصريين الذين فسروا الامان بانه عدم اعتداء من الناحية الحربية فقط . وبناء على ذلك فلم يعتبروا اتفاق النوبة صلحا بل اعتبروه هدنة . وفي ذلك يقول يزيد بن ابي حبيب : « ليس بينهم (النوبة) وبين اهل مصر عهد ولا ميثاق . انما هي هدنة امان بعضنا من بعض، ولا بأس ان يشترى رقيقهم منهم ومن غيرهم » ونعت الفقهاء المصريون مالك بن انس وزملاءه المدنيين بالجهل بأمور النوبة (٣٣) .

ومن المحتمل ان الفقهاء المصريين كانوا مدفوعين بارائهم بعاملين ، الاول خبرتهم بالنوبة ومعرفتهم الوثيقة بما اتفق عليه بين المسلمين وبين النوبيين . اما العامل الثاني فهو التعبير عن مصالح المسلمين في مصر اذ ان عدم كونه صلحا يعطي المسلمين والمعاهدين في مصر الحرية في التجارة وشراء الرقيق من اهل النوبة .

وعلى اي حال فان التدقيق في بنود الاتفاق ، والتطبيق العملي لعقد النوبة ، يظهر ان ما حدث بين العرب والنوبة لم يكن صلحا بالمعنى المعروف والمألوف في الفتوحات الاسلامية في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الاسلام . فالثابت ان النوبة لم تفتح عنوة كما ان الهدنة بين الطرفين لا تعتبر صلحا وخاصة ان المسلمين لم يلتزموا بحماية النوبيين بل اعلنوا صراحة في الوثيقة المكتوبة بين الطرفين ان ليس على المسلمين دفع اي عدو يعرض للنوبيين من حد علوة (جنوب مملكة مقرة النوبية) جنوبا الى اسوان شمالا . وبناء على ذلك فان بلاد النوبة لم تعتبر جزءا من دار الاسلام كما أنها استثنيت من دار الحرب . فوضعها فريد بين البلاد التي غزاها العرب في تلك الفترة . ويمكن للباحث الحديث ان يطلق على الاتفاق بين العرب والنوبة بانه معاهدة عدم اعتداء وحسن جوار وتبادل تجاري(٣٤) ومن هنا يمكن اعتبار بلاد النوبة دار هدنة وامان تمييزا لها عن داري الحرب والاسلام .

وايا كانت الاراء حول ماهية هذه المعاهدة ، فقد استفاد الفريقان منها ، فالمسلمون ضمنوا عدم اعتداء النوبيين على حدودهم الجنوبية ، واتاح لهم الاتفاق ان يركزوا قواتهم على جبهات أخرى في البحر المتوسط وفي شمال افريقية . كما استفاد المسلمون من استمرار التجارة بين مصر وبلاد النوبة . ومهد الاتفاق الطريق للمسلمين لنشر دينهم الاسلامي وثقافتهم العربية بالوسائل السلمية ، سواء عن طريق التجارة او عن طريق استقرار بعض المسلمين في بلاد النوبة . وعلى الرغم من أن الاتفاق لم يسمح للمسلمين بالاقامة في النوبة ، فلم يتقيد المسلمون بهذا الشرط وانسابت مجموعات عربية اسلامية نحو المناطق الشمالية من بلاد النوبة ، وامتلكوا ضياعا

واراضي هناك بعد ان اشتروها من أصحابها . وقد حدث ذلك منذ ايام الامويين والعباسيين الاوائل . ورغم احتجاج ملك النوبة ضد هذا العمل ، الا ان المسلمين واصلوا زحفهم السلمي جنوبا في بلاده ناشرين معهم دينهم ولغتهم . ولم تمضي فترة طويلة حتى انتشر الاسلام بين النوبيين الشماليين في المنطقة المحاذية لصعيد مصر ، والتي كانت تعرف باسم المريس (٣٥) .

على الرغم من ذلك فان النوبيين بدورهم استفادوا من الاتفاق مع المسلمين اذ ضمنوا عدم غزو بلادهم وفتحها واخضاعها للحكم الاسلامي المباشر ، وبذلك حافظوا من الناحية الرسمية على دينهم وتقاليدهم المحلية لعدة قرون . ليس هذا فحسب بل اتاح الاتفاق لهم فرصة لمقارعة اعدائهم اصحاب مملكة علوة في الجنوب وقبائل البجة في الشرق . اضف الى ذلك فان استمرار التجارة بينهم وبين مصر الاسلامية قد وفر لهم بعض ما يحتاجونه من المواد الغذائية وانواع الاكسية .

ونظرا لضمان الاتفاقية لمصالح الطرفين فقد بقيت العلاقات سلمية بين مصر الاسلامية والنوبة المسيحية لعدة قرون ، على الرغم من بروز خلافات محدودة من وقت لاخر ولكنها لم تؤثر على جوهر الاتفاق بين الفريقين . ويبدو ان النوبيين قد حاولوا جهدهم الوفاء بعهودهم تجاه المسلمين حتى وصفهم بعض المؤلفين العرب بأنهم أهل « كف ووفاء وحسن عهد »(٣٦) . ولعل هذه الصفات كانت السبب في رواج بعض الاحاديث التي تمتدح النوبيين وتحض على حسن معاملتهم كتلك التي تقول : « من لم يكن له اخ فليتخذ اخاً من النوبة » و « خير سبيكم النوبة »(٣٧) .

استمر الاتفاق دون اية منازعات منذ ولاية ابن ابي السرح وحتى نهاية العصر الاموي(٣٨) . حيث تذكر الروايات المسيحية ان النوبيين أغاروا على جنوب مصر عام ١٣٢ هـ في عهد اخر الخلفاء الامويين ، مروان بن محمد ، وتدعي الرواية المسيحية ان الحملة النوبية كانت كبيرة جدا وضمت ١٠٠ الف فارس و١٠٠ الف جمل ، وكان الهدف منها الضغط على المسلمين لاطلاق سراح البطريرك القبطي ميخائيل من السجن(٣٩) . وعلى الرغم من ان الظروف في الدولة الاسلامية انذاك كانت مضطربة اثر المشاكل التي عانت منها الدولة الاموية في اخر عهدها ونتيجة للثورة العباسية ، الا ان الباحث يستبعد قيام مثل هذه الحملة العسكرية النوبية الكبيرة نظرا لفقر النوبة وعدم مقدرتهم على تجهيز مثل هذه الحملة ولان المصادر الاسلامية ، المتقدمة منها والمتأخرة ، لم تشر اليها على الاطلاق . بالاضافة الى ذلك فان المصدرين المسيحيين اللذين ذكرا هذه الحملة اختلفا في تاريخها وفي اسم والي مصر انذاك . واذا كان لابد من قبول وجود نزاع بين النوبة ومصر في تلك الفترة فلا يتعدى ذلك ان يكون غارة صغيرة

قام بها بعض النوبيين دون موافقة رسمية من ملكهم . وعلى أي حال فاننا لا نسمع عن تجدد للقتال بين الطرفين ولاعن نقض لاتفاق البقط الذي تحدثنا عنه سابقا .

وتدل الشواهد التاريخية على ان ملوك النوبة قد احترموا العقد المبرم مع المسلمين بالرغم من تغير الاسر الحاكمة في دار الخلافة . فبعد ان اجتاحت قوات الثورة العباسية الولايات الشرقية هرب اخر الخلفاء الامويين الى مصرحيث قتل هناك ثم هرب ابناه عبيد الله وعبد الله جنوبا الى النوبة مصحوبين بعدد من الاقارب والاتباع البالغ عددهم نحو ٤٠٠ شخص . واستجار الامويون بملك النوبة أملا في أن يبقيهم في بلاده . ولكن الملك النوبي رفض ذلك وطلب منهم الرحيل حيث توجهوا شرقا مارين بارض البجة الى ميناء باضع . وتعرضوا للجوع والعطش والتعب فهلك منهم عدد كبير من بينهم عبيد الله بن مروان . ومضى اخوه الى ميناء باضع على ساحل البحر الاحمر ، حيث عبر الى جدة ومنها سار الى مكة ، وقبض عليه واخذ الى بغداد حيث بقي سجينا حتى ايام الخليفة هارون الرشيد ، الذي امر باخراجه بعد ان اصبح كهلا ضريراً (٤٠) . ومن غير المستبعد ان يكون النوبيون ، بالاتفاق مع رجال البجة ، قد غدروا بالامويين واصحابهم وضللوهم تقربا للعباسيين ، حكام الاسلام الجدد . وقد كشفت الحفريات الاثرية الحديثة عن قبور هؤلاء الامويين على طول الطريق الذي سلكوه من النوبة الى ميناء باضع(٤١).

ويبدو ان بعض من نجا من الامويين قد استقر على الساحل السوداني للبحر الاحمر قرب باضع ، حيث اختلطوا بالسكان المحليين ، وتزوجوا منهم ، واصبح لهم شأن كبير تبعا لاصلهم القرشي . وقد كان لبقاء هؤلاء الامويين في تلك المنطقة اثر في ادعاء بعض القبائل والاسر السودانية بانها تنحدر من اصل اموى . ولعل اوضح الامثلة على ذلك اسرة الفونج المشهورة(٤٢) .

لا شك ان لموقف النوبيين العدائي تجاه بقايا الاسرة الاموية الهاربة ، اثرا ايجابيا على العلاقات بين الطرفين حتى عهد الخليفة المهدي (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٥م) مما يشير الى ان العلاقات كانت سلمية ، وان النوبيين بقوا محافظين على التزاماتهم السابقة نحو المسلمين . وفي عهد الخليفة المهدي تذكر المصادر العربية ان النوبيين التمسوا من الخليفة ان يخفف عنهم مقدار البقط ، لانهم لم يعودوا قادرين على الحصول على رقيق كاف من اعدائهم ، ويضطرون احيانا لبيع اولادهم لاكمال العدد المقرر الذي التزموا به طبقا لوثيقة العهد بين الطرفين التي عقدت ايام ولاية عبد الله بن ابي السرح . واستجاب الخليفة المهدي لهذا الطلب وامر ان يؤخذ البقط منهم مرة كل ثلاث سنوات بدلا من كل سنة . وقد وجد في سجلات الديوان بمصر ما يثبت هذا الترتيب الجديد وفي ذلك يقول البلاذري :

« وقد ادعوا حديثا انه ليس يجب عليهم البقط لكل سنة، وانهم كانوا طولبوا بذلك في خلافة المهدي ، فرفعوا اليه ان هذا البقط مما يأخذون من رقيق اعدائهم ، فاذا لم يجدوا منه شيئا عادوا على اولادهم فأعطوا منهم فيه بهذه العدة . فأمر أن يحملوا في ذلك ، على ان يؤخذ منهم لكل ثلاث سنين بقط سنة . ولم يوجد لهذه الدعوى ثبت في دواوين الحضرة ، ووجد في الديوان بمصر »(٤٣) .

ويبدو ان الخليفة قد زاد قيمة البقط بأن طلب تسليم بعض الحيوانات النادرة للمسلمين اضافة الى السبي المقرر ، ولكن الالتزام الجديد لم يكن ثقيلا وبقى التعديل الذي اقره المهدي منسجما مع رغبة النوبيين في تخفيف الالتزام الاصلي عن كواهلهم (٤٤).

ولهذا استمرت العلاقات بين الطرفين حسنة ولا تحدثنا المصادر عن أية تطورات خلال نحو نصف قرن بعد الترتيب الذي اتفق عليه زمن الخليفة المهدي . وفي عام ٢١٧هـ/٨٣٢م عندما زار الخليفة المأمون مصر ، حاول ملك النوبة انتهاز هذه الفرصة ليطلب من الخليفة المأمون التدخل لاعادة بعض الاراضي التي استملكها العرب المسلمون داخل اراضي النوبة . وكانوا قد اشتروها منذ أيام الامويين من المواطنين النوبيين القاطنين في منطقة المريس ، شمال مملكة النوبة . وادعى الملك النوبي ان هذا العمل مخالف لنص الاتفاق بين الطرفين . كما ان المواطنين الذين باعوها هم عبيد له ولا يحق لهم التصرف بأي شيء دون موافقته . ولم يحسم المأمون الامر بل احال القضية على والي أسوان ليحقق فيها ، وينفذ مايراه مناسبا . وكان الطبيعي ان تحسم القضية لصالح المسلمين ، وبذلك اصبحت معظم اراضي المريس تحت سيطرة المسلمين الفعلية ناشرين معهم دينهم وثقافتهم العربية(٤٥) .

ويبدو ان موقف المأمون قد أثار حفيظة النوبيين ، مما حدا بهم الى التفكير في الغاء المعاهد من جانب واحد ، وتحكيم السيف من جديد بين الطرفين . وفي عهد الخليفة المعتصم (٢١٨–٢٢٧/٨٣٣–٨٤٢م) ارتفعت بعض الاصوات في بلاد النوبة تنادي بوضع حد للاستسلام للعرب . وكان ولي عهد النوبة على رأس اولئك المنادين باعادة تنظيم العلاقات مع المسلمين . وحاول اقناع والده بعدم ارسال البقط المقرر سنويا للمسلمين . الا ان والده ابى ان يتخذ هذه الخطوة خوفا من العاقبة التي قد تجرها عليه وعلى بلاده . وحتى يرضي ابنه واعوانه قرر ارسال وفد الى الخليفة برئاسة ولده قرقي(٤٦) ، ليطلع بنفسه على قوة المسلمين قبل القيام بأي عمل غير ودي تجاههم . وذهب الوفد الى بغداد وبهر بما رآه من كثرة الجيوش وعظم العمارة . عند ذلك ايقن الوفد النوبي عدم قدرة النوبة على معاداة المسلمين . وحاولوا ، بدلا من ذلك ، التوسل للخليفة علّه يخفف عنهم ما وجب عليهم من البقط . والتمس ولي العهد النوبي من المعتصم مطالب ثلاثة وهي :

أ ــ تخفيف عدد الرقيق المقرر ارساله الى المسلمين .

ب ــ اعادة الاراضي التي تملكها المسلمون في بعض بلاد النوبة .

جـ ــ ازالة المسلحة التي اقامها المسلمون في بلدة القصر داخل اراضي النوبة حيث يتم تبادل البقط والهدايا .

وقد اجاب الخليفة على الطلب الاول بالقبول ، وامر ــ كما فعل المهدي من قبل ــ ان يؤخذ البقط مرة واحدة كل ثلاث سنوات ، وحتى يصبح الامر ساري المفعول من بعده فقد كتب لهم كتابا بذلك واحتفظ الوفد النوبي بنسخة منه . وفي الوقت نفسه رفض الخليفة تلبية الطلبين الاخرين(٢٧) . وبذلك اصبح الوجود العربي الاسلامي في شمال بلاد النوبة غير قابل للنقاش ، وثبت المسلمون مواقعهم هناك ، ولم يتراجعوا عنها واصبحت هذه المواقع مراكز انطلاق لنشر الحضارة العربية والدين الاسلامي في نواحي النوبة الاخرى . وعندما زار ابن سليم الاسواني المنطقة في منتصف القرن الرابع الهجري ، وجد ان كثيرا من النوبيين المحليين قد اعتنقوا الاسلام . كما تأثرت اللغة النوبية بالالفاظ العربية على الرغم من ان النوبيين ما زالوا يتكلمون لهجاتهم المحلية ، ولم يفصحوا اللسان العربي(٤٨) .

على الرغم من الحفاوة التي قوبل بها الوفد النوبي في بغداد وفي الطريق اليها ومنها ، الا ان الوفد قبل شروط الخليفة خضوعا واستسلاما ، لا عن قناعة ورضى . ولذلك فان النوبيين قد اضمروا الحقد والكراهية للحكام المسلمين ، واصبحوا ينتهزون الفرص لعدم دفع البقط ، بل والاغارة على الصعيد . وقد حدث ذلك في عهد الاخشيديين مستغلين الاضطرابات الداخلية وانتشار الاوبئة في مصر ، وتعرضها للتهديد المباشر من قبل القرامطة والفاطميين . فامتنع النوبيون عن دفع البقط واغاروا على منطقة الصعيد في عامي ٩٥١/٣٣٩ و ٩٥٦/٣٤٤ م ، وقتلوا عددا من المسلمين في اسوان وما حولها . ولكن المسلمين استطاعوا دفعهم ، وتوغلوا في النوبة واحتلوا ابريم عام ٣٤٥ هـ/٩٥٧ م بقيادة محمد بن عبد الله الخازن . وعاد المسلمون محملين بالغنائم والسبي . ولكن هزيمتهم هذه لم تكن حاسمة ولم تجبرهم على دفع البقط المعتاد . وعادوا بعد اربع سنوات لغزو الصعيد مرة اخرى ووصلوا الى اخميم وقتلوا عددا من المسلمين . وبقيت العلاقات متوترة بين الاخشيديين والنوبيين طوال الفترة اللاحقة حتى فتح الفاطميون مصر(٤٩) . والغريب في الامر ان المصادر لا تذكر ان النوبيين قد تعرضوا للمسلمين الذين استقروا في شمال النوبة (المريس) وتملكوا الاراضي فيها . وهذا يدل على ان الاعتداءات النوبية كانت موجهة ضد السلطة

الحاكمة في مصر . ولعل ذلك كان ناتجا عن مؤامرة بينهم وبين الفاطميين وهذا يفسر لنا العلاقات الحسنة بين الطرفين خلال الحكم الفاطمي لمصر .

وبمجيء الفاطميين فتحت صفحة جديدة من العلاقات بين مصر والنوبة . فقد ارسل القائد الفاطمي جوهر الصقلي بعثة برئاسة عبد الله بن احمد بن سليم الاسواني الى ملك النوبة يدعوه للاسلام ودفع البقط الذي انقطع خلال نحو عقدين زمن الاخشيديين . وقد استجاب الملك للطلب الثاني ولكنه رفض اعتناق الاسلام . وعلى أية حال فان هذه المهمة الفاطمية تعتبر اول حادثة تذكرها المصادر بشأن دعوة المسلمين لملك النوبة لاعتناق الاسلام . ولعل الفاطميين ارادوا ان يكون اسلام النوبة على ايديهم ، وبذلك يضمنون عمقا جغرافيا كبيرا للدعوة الفاطمية في افريقية الشرقية . وعلى الرغم من فشل الفاطميين في اقناع ملك النوبة باعتناق الاسلام فان العلاقات بين الطرفين ظلت حسنة طيلة العصر الفاطمي ، وتعاونا ضد بعض القبائل العربية في الصعيد كما حدث في عهد الوزير بدر الجمالي (٤٦٦ ــ ٤٨٧ هـ/١٠٧٣ ــ ١٠٩٤ م) (٥٠) .

وفي العصرين الايوبي والمملوكي غلبت المظاهر العدائية على العلاقات بين الطرفين وتوالت الغارات والغزوات المتبادلة ، حتى تم للمماليك السيطرة الفعلية على بلاد النوبة منذ اواخر القرن السابع الهجري . وفي العقد الثاني من القرن الثامن الهجري اعتلى عرش النوبة اول حاكم مسلم . ومنذ ذلك الوقت اخذت الديانة المسيحية تختفي تدريجيا في تلك البلاد . ولم يمض قرن من الزمان حتى اصبح الاسلام دين مجموعة كبيرة من السكان في النوبة والسودان الشمالي وخاصة بعد ان اصبحت المنطقة مسرحا لكثير من القبائل العربية التي زحفت من مصر هربا من سلطان المماليك ، ملتمسة مواطن جديدة تجد فيها امنها وحريتها ومعاشها (٥١) .

* * *

الحواشي :

(١) المسعودي ، مروج ، جـ٢ ، ص ٣٢ . المقريزي، خطط (نشر Wiet القاهرة ، ١٩٢٢) ج٣ ، ص ٢٥١ وما بعدها . مصطفى مسعد ، الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ، ص ٧١ وما بعدها .

(٢) عن مدينة بجراش وتاريخها وجغرافيتها انظر :
F. Li. Griffith, « Pakhoras - Bakharas - Faras in geography and history», Journal of Egyptian Archaeology, vol. XI (1925) pp. 259-268.

L. P. Kirwan, « Notes on the topography of the Christian Nubian Kingdoms », **J.E.A.**, XXI (1935) pp. 60-61.

(٤) عن ممالك النوبة قبل ظهور الاسلام وبعده يمكن للباحث ان يعود الى كثير من الدراسات الحديثة المدونة في قائمة المصادر والمراجع .

(٥) J. W. Crowfoot, « Christian Nubia », **J.E.A**, vol. XIII (1927) p. 142.

(٦) الواقدي ، فتوح مصر والاسكندرية ، ص ٤ـ٥
Wallis Budge, EA., The Egyptian Sudan, vol. 2, p. 18 (Citing Oxyrhinchus). وثائق البهنسا

(٧) المسعودي ، مروج ، ج٢ ، ص ٣٨ — ٣٩ .

(٨) البلاذري ، فتوح ، ليدن ١٨٦٠ ، ص ٢٨٠ .

(٩) عن حملات العرب ضد النوبة في ولاية عمرو بن العاص انظر :
البلاذري ، فتوح ، ص ٢٨٠ ، الطبري ، س١ ، ص ٢٥٩٣ ، المسعودي ، مروج ، ج٢ ، ص ٣٩ ، ابن عبد الحكم ، ص ١٦٩ — ١٧٠ .

(١٠) ويجدر بالذكر ان حكام مصر قد حرصوا ، منذ اقدم العصور ، على حماية الطرق التجارية بين مصر وبلاد السودان مفتوحة وامنة . وقد استعمل المصريون القوة احيانا ، لتحقيق هذا الغرض . ومنذ عهد الاسرة المتوسطة (٢١٥٠ — ١٥٨٠ ق.م) تتحدث الوثائق والمصادر عن حملات عسكرية مصرية ضد الجماعات التي تهدد الطريق التجاري . وقد سار على هذه السنة كل من حكم مصر فيما بعد . ويبدو ان العرب قد نهجوا الطريق نفسه ولا يمكن تفسير الحملات العسكرية العربية في العصور الاسلامية بمعزل عن تأمين الطرق التجارية بين مصر واقطار وادي النيل في الجنوب .
انظر :
G. A. Reisener, « Excavations at Semna and Uronarti by the Harvard-Boston expedition », **SNR**, vol. 12 part2, pp. 143-161; F. Addeson, « An archaelogical survey of the Sudan », in **The Anglo-Egyptian Sudan from within**, ed. J. A. de C. Hamilton, London, 1935, P. 21.

(١١) اختلف العلماء المحدثون في اصل كلمة بقط ،فبعضهم قال بأن اصلها لاتيني وهو Pactum ومعناه الاتفاق والهدنة . بينما قال البعض الاخر بأن اصلها مصري قديم ويعني العبد او الضريبة التي تدفــع عينا

See Lokkegaard, « Bakt» E.I 2. vol. I, P. 966; Caetani, Annalidell' Islam, vol. 4,P.521.

وايا كان المعنى الاصلي لهذا المصطلح فانه يعنيهنا الضريبة التي كان يدفعها النوبيون للمسلمين ابتداء من عام ٣١ هـ ، والتي تتكون في الاصلمن عدد محدد من الرقيق .

(١٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٨١ .

(١٣) عن معركة ذات الصواري انظر :

E.I 2. art. « Abdallah B. sa'd b. Abi Sarh »; **E.I** 1. Supplement, art. « Dhat al-Sawari ».

يجد القارىء ثبتا بالمصادر في ذيل كل من المقالتين المذكورتين .

(١٤) ابن عبد الحكيم ، ص ١٨٨

(١٥) عن يزيد بن ابي حبيب انظر :

R. Guest, Introduction to **Kitab al-Wulah wa'l-Qudah** of al-Kindi, Leiden, 1912, p. 34.

(١٦) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٨ ، بلاذري ، فتوح ،ص ٢٨١ ، الطبري ، س١ ، ص ٢٥٩٣ ، ابن الاثير ج٢ ، ص ٥٦٧ ، ابن الفرات ، تاريخ الدولوالملوك ، تحقيق قسطنطين زريق ، بيروت ، ١٩٣٨ ، ج٧ ، ص ٤٥ ، النويري ، مخطوط ، ج٢٩ ،ص ٢٥٩ ب .

(١٧) بلاذري ، فتوح ، ٢٨١ .

(١٨) المصدر السابق ، ص ٢٨٠ .

(١٩) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ص ٩٢ .

(٢٠) بلاذري ، فتوح ، ص ٢٨١ .

(٢١) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٨ – ١٨٩ .

(٢٢) المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

(٢٣) المسعودي ، مروج ج٣ ، ص ٣٩ ، ينقل المقريزي رواية المسعودي في الخطط ج٣ ، ص ٢٩٦ .

(٢٤) المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٢٩٢ – ٢٩٣ .

(٢٥) انظر الروايات رقم ١ ، ٢ ، ٧ ، ٨ .

(٢٦) عن ابن سليم الاسواني انظر :

Troupeau, G., « la Description de la Nubie' d'al-Usawani », **Arabica**, I (1954), pp. 276 ff; Y.F. Hasan, « Ibn Sulaym al-Aswàni », E. I2. vol. 3, p. 949.

(٢٧) المقريزي ، خطط ، ج٣ ، ص ٢٩١ – ٢٩٢ .

(٢٨) المقريزي ، مقفى ، مخطوط ، الجزء الخاص بالسودان ، تحقيق مصطفى مسعد ، المكتبة السودانية ، ص ٣٧١ .
Yusuf Fadl Hasan, The Arabs and the Sudan, Edinburgh, 1967, pp. 24-5.

(٢٩) Yusuf Fadl Hasan, op. cit, p. 125; p.M.Holt, «Dongola», E. I (2), vol. 2, p. 615.

أما في شمال النوبة في منطقة المريس المحاذية للصعيد فقد ابتنى المسلمون فيها مساجد منذ فترة مبكرة في عهد الدولة الاموية والعباسية .

(٣٠) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٩ .

(٣١) المقريزي ، خطط ، ج٣ ، ص ٢٩٢ .

(٣٢) المصدر السابق ، ص ٢٩٣ .

(٣٣) عن اراء الفقهاء حول هذا الموضوع انظر : ابن عبد الحكم ، ص ١٨٨ ، البلاذري ، فتوح ، ص ٢٨١ المقريزي ، خطط ، ج٣ ، ص ٢٩٣ – ٢٩٤ ، ابو عبيد ، الاموال ، ص ٢٠٥ .

(٣٤) مصطفى مسعد ، الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ، ص ١١٤ – ١١٥ .

(٣٥) المسعودي ، مروج ، ج٣ ، ص ٤١ – ٤٢ ، المقريزي ، خطط ، ج٣ ، ص ٢٥٣ (عن الاسواني) .
G . Troupeau , « la Description de la Nubiè d'al-Uswani », **Arabica** , I (1954), pp. 276-288.

(٣٦) ابن الفقيه ، البلدان ، ليدن ١٨٨٥ ، ص ٧٦

(٣٧) المصدر السابق ، ص ٧٦ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٨٢٠ ، القزويني ، اثار البلاد واخبار العباد ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ٢٤ .

(٣٨) اما ماتذكره بعض المصادر الاسلامية المتأخرة من ان المسلمين غزوا بلاد النوبة زمن هشام بن عبد الملك فأمر مشكوك فيه ولا تشير اليه الروايات المعاصرة والمصادر المتقدمة . انظر : ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، نشر قسطنطين زريق ، بيروت ، ١٩٣٨ ، ج٧ ، ص ٤٥ ، النويري ، نهاية الارب ، مخطوط ، ج٢٩ ، ورقة ٢٥٩ ب . ويبدو أن هذه المصادر خلطت بين هذه الحملة المزعومة وبين حملة عبيد الله بن الحبحاب ، والي الخراج ، ايام هشام بن عبد الملك ، على قبائل البجة في الصحراء الشرقية ، حيث اخضعهم وعقد معهم اتفاقا يشبه في كثير من بنوده اتفاق البقط مع النوبة . عن هذا الموضوع انظر :

ابن عبد الحكم ، ص ١٨٩ ، المقريزي ، ج٣ ، ص ٢٧٣ ، مصطفى محمد مسعد ، البجة والعرب في العصور الوسطى ، مجلة كلية الاداب ، جامعة القاهرة ، ج٢١ (١٩٥٩) ، ص ٢٤ – ٢٦ .
Yusuf Fadl Hasan, op. cit, p. 31; A. Paul, **A History of the Beja tribes of the Sudan**, Cambridge, 1954, p. 67.

(٣٩) سايروس بن المقفع ، تاريخ بطاركة الكنيســـة المصرية ، بيروت ، ١٩١٤ ، ص ١٨٥ – ١٨٦ ، ابو صالح الارمني ، تاريخ الشيخ ابي صالح الارمني ص ٢٢ – ١٢٣ .
The Churehes and Monastries of Egypt and neighbeuring countries, Oxford, 1894, pp. 122-3.

(٤٠) اليعقوبي ، تاريخ ، ليدن ، ج٢ ، ص ٤١٥ ، المسعودي ، التنبيــه ، ليدن ، ص ٣٢٩ ، ابن عبد ربه ، عقد ، ج٤ ، ص ٤٧٠ وما بعدها ، ابن وصيف شاه ، جواهر البحور ، مخطوط ، دار الكتب المصرية رقم ٢٢٥٥ تاريخ ، الجزء الخاص بالسودان ، تحقيق مصطفى محمد مسعد ، المكتبة السودانية ص ١٢٢ ، القزويني ، ص ٢٥٠ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، بولاق ١٣١١ هـ ، ج١ ، ص ٢٩ ، مصطفى مسعد ، البجة والعرب في العصورالوسطى ، ص ٢٧ .
Yusuf Fadl Hasan, op. cit, p. 39.

(٤١) J. F. E. Bloss, « The story of Suakin », **SNR,** vol. xix, part II, p. 279. see also: O. G. S. Crowford, « The stone tombs of the N. E. Sudan », **Kush,** vol. II, p. 6; E. T. Combe, Four Arabic Inscriptions from the Redsea », **SNA,** vol. XIII, pp. 288 ff.

(٤٢) عن اصل الفونج انظر :
Yusuf Fadl Hasan, « The Umayyad genealogy of the Funj », **SNR,** vol. XIV i (1965), pp. 27-32; L. F. Nadler, « Funj Origins », **SNR,** vol. 14, part I (1931), pp. 61-66; A. J. Arkell, « Funj Origins », **SNR,** vol. 15, part II (1932), pp. 201-250; Idem, « More about the Funj Origins », **SNR,** vol. 27 (1946), pp. 77-9; P. M. Holt, « Funj Origins: A critique and new evidence », **Journal of African History,** vol. 4 (1963), pp. 39-55.

(٤٣) البلاذري ، فتوح ص ٢٨١ .

(٤٤) المصدر نفسه .

(٤٥) المسعودي مروج ،ج٢،ص٤١–٤٢ .

(٤٦) يرد اسمه باشكال مختلفة ، قرقي ،كركي، فراقي،فرقي ولعل ذلك تحريفا لاسم جورج .

(٤٧) المقريزي ، خطط ،ج٢،ص٢٩٤–٢٩٦ .
قارن مع رواية ابن العبري :
Barchebreaus, Chronography, tr. E. A. Wallis Budge, London, 1932 pp. 133 - 5.

(٤٨) المقريزي ، المقفى ، مخطوط المكتبة الوطنية ،باريس ، رقم ٢١١٤ ، ج٤ ، ص ٢٢٧ب .

(٤٩) عن العلاقات بين مصر والنوبة زمن الاخشيديين انظر : يحيى بن سعيد الانطاكي ، تاريخ ، باريس ، ١٩٢٤ ، ص ٧١ ، ٧٥ ، المقريزي ، ج٣ ، ص٣٢٦، سيدة اسماعيل كاشف . مصر في عهد الاخشيديين ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٧٠، ص ٣٧٦ — ٣٧٧ .

(٥٠) المقريزي ، مقفى ، مخطوط ، ص ٢٢٧ب — ٢٢٨ أ ، سايروس بن المقفع ، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٣ ، ٢ ، ص٢٠٤—٢٠٥، ٢١١ .
Y. F. Hasan, op. cit, pp. 91-93.

(٥١) لما كان البحث مقصورا على فترة صدر الاسلام فلم اطنب في الحديث عن العهود التي تلت عهد المعتصم . اما عن علاقة المماليك ببلاد النوبة فيمكن للقارىء ان يجد عنها تفصيلا واسعا في كتابنا الموسوم « امارة ربيعة العربية في وادي النيل » الذي لايزال تحت الطبع وكذلك في بحثنا المعنون « انتشار الاسلام والثقافة العربية في السودان الشمالي » .

المصادر والمراجع

أ — المصادر

١ — ابن الاثير ، عز الدين ابو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) ، **الكامل في التاريخ** ، ليدن ١٨٦٢ — ١٨٧١ م ، بيروت ، ١٩٦٥م .

٢ — ابن اياس ، ابو البركات محمد بن احمد (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) ، **بدائع الزهور في وقائع الدهور** ، بولاق ، ١٣١١ هـ .

٣ — ابن خرداذبه ، ابو القاسم عبيد الله بن عبدالله (ت ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م) ، **المسالك والممالك** ، ليدن ، ١٨٨٩م .

٤ — ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧هـ / ٨٧١م) ، **فتوح مصر واخبارها** ، تحقيق توري ، نيوهافن New Haven ، ١٩٢٢ م .

٥ — ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٥ م) ، **تاريخ الدول والملوك** ، تحقيق قسطنطين زريق ، بيروت، ١٩٣٨ .

٦ — ابن الفقيه ، أبو بكر أحمد بن محمد بن اسحق الهمداني (ت ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م) ، **كتاب البلدان** ، ليدن ١٨٨٥ .

٧ — ابن وصيف شاه ، ، ابراهيم (ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٣م) ، **جواهر البحور** ، مخطوط دار الكتب المصرية ، رقم ٢٢٥٥ تاريخ .

٨ — ابو صالح الارمني (ت ٦٠٥ هـ/١٢٠٨) ، **تاريخ** ، نشر Evetts اكسفورد ، ١٨٩٤ م.

٩ ـ ابو عبيد ، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/٨٣٦م) ، **الاموال** ، القاهرة ١٩٦٨ .

١٠ـ البلاذري ، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م) .
١ ـ فتوح البلدان ، ليدن ١٨٦٦ .
٢ ـ **انساب الاشراف** ، مخطوط ، استنبول ، المكتبة السليمانية رقم ٥٩٨.

١١ـ الحموي ، ياقوت (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م) ، **معجم البلدان** ، ليبزغ ، ١٨٦٦ ـ ١٨٧٣ م .

١٢ـ سايروس بن المقفع (عاش في النصف الثاني من القرن ٤هـ/١٠م) ، **تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية،** بيروت ، ١٩١٤ ، القاهرة ، ١٩٤٣م .

١٣ـ الطبري ، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/٩٣٢م) ، **تاريخ الرسل والملوك** ليدن ، ١٨٨١

١٤ـ القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) ، **اثار البلاد واخبار العباد** ، بيروت ١٩٦٠ م .

١٥ـ الكندي ، ابو عمر محمد بن يوسف (ت٣٥٠هـ/٩٦١م) ، **الولاة والقضاة** ، ليدن ، ١٩١٢م .

١٥ـ المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٦ م) .
١ ـ **التنبيه والاشراف** ، ليدن ١٨٩٤ .
٢ ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، باريس ١٨٧٣ م.

١٦ـ المقريزي ، أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤٥م).
١ ـ **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثـار** ، نشر فيت Wiet ، طبع المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة ، ١٩٢٢ ، وانظر ايضا طبعة بولاق .
٢ ـ **المقفى** ، مخطوط المكتبة الاهلية ، باريس ، رقم ٢١١٤ .
٣ ـ **البيان والاعراب** ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، القاهرة ١٩٦١ .

١٧ـ النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب الكندي (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م ، **نهاية الارب في فنون الادب** ، **مخطوط** ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، رقم ٥٤٩ معارف عامة .

١٨ـ الواقدي ، محمد بن عمر (ت٢٠٧ هـ /٨٢٣م) ، **فتوح مصر والاسكندرية** ، **الجزء الخاص بالسودان** في المكتبة السودانية العربية ، تحقيق مصطفى مسعد ، القاهرة ١٩٧٢ م .

١٩ـ اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م ، **البلدان** ، **ليدن** ١٨٦٠ ١٨٩١ .
تاريخ ، ليدن ، ١٨٨٣ .

ب ـ المراجع :

١ ـ المراجع العربية :

١ ـ التيجاني ، عامر ، **السلالات العربية السودانية في النيل الابيض** ، الخرطوم ، ١٩٧١.

٢ ـ الشامي ، صلاح الدين علي ، **الموانىء السودانية** ، القاهرة ١٩٦٣م .

٣ ـ شبيكة ، مكي ، **السودان عبر القرون** ، القاهره ، ١٩٦٤ م .

٤ ـ شقير ، نعوم ، **جغرافية وتاريخ السودان** ، بيروت ١٩٦٧م .

٥ ـ عابدين ، عبد المجيد ، **دراسات سودانية** ، المخرطوم ، ١٩٧٢ م ، **دراسات في تاريخ العروبة في وادي النيل** ، ملحق بكتاب **البيان والاعراب** للمقريزي ، تحقيق عابدين ، القاهرة ، ١٩٦١م.

٦ ـ عبد الجليل ، الشاطر بصيلي **تاريخ وحضارة السودان الشرقي والاوسط من القرن السابع الى القرن التاسع عشر للميلاد** ، القاهرة ، ١٩٧٢م.

٧ ـ عوض ، محمد عوض ، **السودان الشمالي ، سكانه وقبائله** ، القاهرة ، ١٩٥١م .

٨ ـ كاشف ، سيدة اسماعيل ، **مصر في فجر الاسلام** ، القاهرة ١٩٤٧ .
مصر في عهد الاخشيديين ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

٩ ـ مسعد ، مصطفى محمد ، **الاسلام والنوبة في العصور الوسطي** ، القاهرة ١٩٦٠ .

١٠ ـ مسعد ، مصطفى محمد (محقق وجامع) ، **المكتبة السودانية العربية** ، القاهرة ١٩٧٢

١١ ـ نور ، قاسم عثمان ، **مصادر الدراسات السودانية بالمجلات والدوريات السودانية ١٩٢١ ـ ١٩٦٧** ، الخرطوم ١٩٧٠ .

٢ ـ المراجع الاجنبية :

أ ـ الكتب :

1 — Arkell, A. J., **A history of the Sudan,** London, 1961.

2 — Atiya, A. S., **A History of eastern christianity,** London, 1968.

3 — Belzoni, G., **Narrative of the operations and recent discoveries in Egypt and Nubia,** London, 1922.

4 — Hasan, Yusuf Fadl, **The Arabs and the Sudan,** Edinburgh, 1967.

5 — Kirwan, L. P., **The Oxford University excavations at Firka, Oxford,** 1939.

6 — Lewis, I. M. (ed.), **Islam in Tropical Africa,** Oxford Univ. press, Lond-don, 1980.

7 — MacMichael, H. A., **A History of the Arabs in the Sudan** 2nd edition, London,1967.

8 — Nadel, S. F., **The Nuba,** Oxford, 1947.

9 — Paul, A., **A History of the Beja tribes of the Sudan,** Cambridge, 1954.

10 — Villard, Ugo Monneret de, **Storia della Nubia Cristiana,** Roma, 1938.

11 — Voll, J. O., **Historical dictionary of the Sudan,** London, 1978.

12 — Wallis Budge, E. A., **Nubian Texts,** London, 1909.

13 — Wallis Budge, E. A., **The Egyptian Sudan, its history and monuments,** New York, 1976.

14 — Wallis Budge, E. A., **A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia,** London, 1928.

ب ــ المقـــــالات :

1 — Abdin, Abd al-Majid, « Some general aspects of the Arabisation of the Sudan», **SNR,** Vol. XL (1959) pp. 48-57 and 64-74.

2 — Addeson, F., « An Archaeological Survey of the Sudan », in **the Anglo-Egyptian Sudan from within,** ed. J. A. de C. Hamilton, London, 1935.

3 — Arkell, A. J., « More about the Funj Origins », **SNR,** Vol. XXVII (1946) pp. 77-9.

4 — Arkell, A. J., «Funj Origins», **SNR,** Vol. XV part 2(1932) pp. 201-250.

5 — A - Becker, C. H., « Abdallah B. Sa'd », **E. I** (2) Vol. I, P. 51.

5 — B - Bloss, J. F. E., « The Story of Suakin », **SNR,** Vol. XIX, part 2.

6 — Combe, E. T., « Four Arabic Inscriptions From the Red Sea », **SNR,** Vol. XIII, part 2, pp. 288-291 with plates.

7 — Crowfoot, J.W., «Christian Nubia», **JEA**, Vol. XIII (1927) pp. 141-150

8 — Gadallah, F.F., «The egyptian contribution to Nubian christianity»,**SNR**, XL (1959) pp. 38 - 43.

9 — Griffith, F.Li., «Christian documents from Nubia , **Proceedings of the British Academy** Vol. XIV (1928) pp. 117-146.

10 — Griffith, F. Li, « pakhoras - Bakharas - Faras in Geography and History», **Journal of Egyptian Archaeology**, Vol. XI. (1925) pp. 259-268.

11 — Hasan, Yusuf. Fadl, «The Umayyad genealogy of the Funj », **SNR**, Vol. XLVI (1965) pp. 27-32.

12 — Hasan, Yusuf Fadl, «Main aspects of the Arab migration to the Sudan», **Arabica**, Vol. XIV (1967) pp. 14-31.

13 — Haycock, B. G., « Medieval Nubia in the perspective of Sudanese history », **SNR**, (1972) pp. 18-35.

14 — Hebbert, H. E., « El-Rih: A Red Sea Island», **SNR**, Vol. XVIII (1935) pp. 303-314.

15 — Holt, P. M., « Dongola », **E.I(2)**, Vol. 2, p. 615.

16 — Holt, P. M., « Funj Origins: A critique and new evidence», **Journal of African History**, Vol. IV (1963) pp. 39-55.

17 — Kirwan, L. P., « Notes on the topography of the christian Nubian Kingdoms », **JEA,Vol.** XXI (1935), pp. 60-1.

18 — Kirwan, L. P., «Studies in the later history of Nubia », **LAAA**, Vol. XXIV, pp. 69-105.

19 — Kirwan, L. P., « The international position of Sudan in Roman and Midieval times », **SNR**, XL (1959), pp. 32-7.

20 — Lokkegaard, F., «Bakt», **E. I(2)**, Vol. I, p. 966.

21 — Mus'ad, M. M., «Some New lights on the Origin of the Blemmyes », **Kush**, Vol. 16 (1972).

22 — Mus'ad M. M., «Islam in medieval Nubia», **Cahiers d'Histoire Egyptienne**, Vol. X (1967) pp. 165-176.

23 — Mus'ad, M. M., «The downfall of the christian Nubian Kingdoms , **SNR,** Vol. XL (1959) pp. 124-27.

24 — Nadler, L. F., «Funj Origins», **SNR,** Vol. XIV part 1 (1931) pp. 61-66.

25 — Reisener, G. A., «Excavations at Semna and Uronarti by the Harvard-Boston expedition», **SNR,** Vol. XII part 2, pp. 143-161.

26 — Stevenson, R. C., «Some aspects of the spread of Islam in the Nuba mountains », **SNR,** (1963) pp. 9-20.

27 — Troupeau, G., « La description de la Nubie d'al - Uswani » **Arabica,** 1 (1954) pp. 267 ff.

Abbreviations

ASN = Archaeological Survey of Nubia.

EI = Encyclopaedia of Islam.

JEA = Journal of Egyptian Archaeology.

LAAA = Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology.

SNR = Sudan Notes and Records.

* * *

هجرة الثقافة من المشرق الى المغرب في القرن الثاني للهجرة

د . أحمد بدر

كلية الآداب ــ جامعة دمشق

تعددت المؤلفات وكثرت الابحاث الهادفة لبسط جوانب التاريخ السياسي للمغرب خلال العصور الوسطى ، وتفصيل حوادثه وتبيان الخيط الرابط لوقائعه عبر الزمن . وقد سادت في اكثر المؤلفات ، نظرة (مارسية) التي تجعل المحور او الخيط الرابط للحوادث ذلك التناحر والصراع الذي بدأ بفتح قاس عسير غرق فيه المغرب بدماء الفاتحين وسكان البلاد على السواء ، ثم تلته ثورة للمغاربة على حكم المشرق وسلطانه ، لتبدأ بعد فشلها عملية تملص وخلاص تدريجي للمغرب من ربقة هذا الحكم وذلك السلطان . واخيرا جاءت الخلافة الفاطمية ، التي نشأت على ارض المغرب اواخر القرن الثالث الهجري ووطدت سلطتها عليه في القرن التالي ، لتصل بعملية الخلاص الى ذروتهاوتحدث الخلاص التام أو الطلاق بين المشرق والمغرب(1) . واذلم نكن في صدد مناقشة صحة هذه النظرة ، لكننا نلاحظ ان الوجه الاخر من العلاقات بين المغرب والمشرق لم يحظ بالاهتمام نفسه ، وبالتالي لم يكن الانتاج العلمي فيه على المستوى ذاته من حيث التفصيل والافاضة . نعني بهذا الوجه الاخر من العلاقات ، تلكالصلات الحضارية التي ظلت مستمرة ودون انقطاع طيلة تلك العصور والتي اسفرت عن سيادة حضارة واحدة على جناحي ديار العرب والاسلام كونت لهما شخصية حضارية متميزة ، مثلت الثقافة الواحدة اكثر ظواهرها بروزا ووضوحا .

اعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ، ١٦ ــ ٢٢ جمادى الاخرة ١٤٠١ هـ / ٢٠-٢٦ نيسان ١٩٨١ م .

بدأت الخطوة الاولى والحاسمة في مجال تكوين هذه الثقافة الواحدة في اواخر القرن الهجري الاول ، عند تمام فتح المغرب ، وخلال القـرن الذي تلاه عندما توالت وتعددت طرق الاتصال وهجرة الثقافة من المشرق الى المغرب التي حملها الفاتحون في ركابهم واشخاصهم ، ثم بدأت الاحزاب السياسية التي ارتدت فيما بعد ثوب المذهب تعمل عملها وتنقل الثقافة عبر تعميقها لمفاهيم الاسلام لدى المغاربة الذين اعتنقوا الدين الحنيف ، وتبع ذلك او رافقه دور الرحلة في طلب العلم ، او التجارة من المغاربـة باتجاه المشرق او هجرة المشارقة في الاتجاه المعاكس .

هجـرة الثقافة في ركـاب الفتـح

من المعروف ان الفتوحات الاسلامية اختلفت عن الغزوات الواسعة النطـاق التي كانت تقوم بها اقوام متعددة ما بين فترة واخرى في التاريخ الانساني ، اذ انها لم تكن حربا بالمعنى المتداول للكلمة ، هدفها توسيع سلطان او كسب غنيمة ، بل كانت جهادا ، ينظمه قانون هو الشريعة الاسلاميـة التي حـددت لهـذه الحرب اهدافها بتأمين حرية نشر الدعوة ، ورسمت للقائمين بها حدود العمل وطـرق التنفيذ في بعض الاحيان ، لذلك كله كان الجيش العربي الاسلامي بنية واجهـزة مختلفا عن الجيوش الاخرى تبعا للاختلاف في الغاية ، وهـذا الامر بالـذات جعل منه اداة اكثر ملاءمة واكبر فعالية في نقل الثقافة . اذ ان الجهاد فرض ، مما جعل الصحابة والتابعين وهم حملة العلم ونقلته يقفزون الى المقدمـة فيه . لحرصهم على القيام بفروضهم ، واسهم هذا ، اضافة لمكانتهم الاجتماعية . في جعل القيادات من نصيبهم في الغالب . وقد بلغ عدد من دخل المغرب من الصحابة في فترة الفتح واقام فيه، لامد قصير او طويل حسب كتاب الطبقات ثلاثين من كبارهم ممن شاهد الرسـول الكريم ، واثني عشر من صغارهم ممن ولدوا في عهده ولم يروه . كما استقر به من التابعين المشهورين برواية العلم ونشره خمسة وعشرون(٢) .

من ناحية اخرى ضم الجيش في جملة اجهزته جهازا يمكـن تسميته بالجهـاز المعنوي حسب مصطلحاتنا الحديثة ، وتقتضي مهماته ان يكون العاملون فيه مـن حملة العلم ايضا . وقد ظهرت نواته منذ عهد الرسول الكريم فاستمر بعده لانـه سنة كما يفهم من رواية لسيف في الطبري يورد فيها ايضا المناصب المتعددة لهـذا الجهاز في معرض حديثه عن موقعة اليرموك سنة ١٣ هـ وذلك بقوله « وكان القاضي

ابو الدرداء ، وكان القاص ابو سفيان بن حرب ... وكان على الاقباض عبد الله بن مسعود .. وكان القارىءالمقداد . ومن السنة التي سن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بدر ان تقرأ سورة الجهاد عند اللقاء وهي الانفال ولم يزل الناس بعد ذلك على ذلك »(٣) .

على الرغم من اسناد الرواية مهمة القراءة لقارىء واحد الا انه يمكن الاعتقاد بأن القراء في الجيش قد تعددوا تبعا لتضخم عدد افراده وتمايز فرقه ، كما ان انتشار تعلم قراءة القرآن الكريم وحفظه في اوساط الناس جعل اعداد القراء في صفوف الجيش ، ممن لم يولوا هذه المهمة بتكليف ، كبيرة . حتى اننا نجد في ثنايا روايات الاخباريين المهتمين بتبيان تمايز فرق الجيش وحدات خاصة بالقراء . اما القاص فكان ممن يحمسون الجند اثناء الاستعداد لدخول المعركة مستخدما الاخبار والقصص الديني والتذكير بأوامر الله التي يقوم المجاهدون بتنفيذها ، فهو والحال كذلك واعظ . ومن هذه المهام التي يقوم بها مسلمون من حملة العلم (الاقباض) ، وصاحبها تجمع لديه الغنائم قبل قسمتها وقد يتولى فيما بعد قسمتها . وقد نظم الشرع العملية مما جعل العارف به مؤهلا لها . وممن قاموا بها في واحدة من عمليات فتح المغرب عبد الله بن عباس بن عبد المطلب المشهور بعلمه الواسع حتى ان اصحابه يسمونه الحبر ، اذ « كان من العلماء بكتاب الله وبتفسيره وناسخه ومنسوخه ومحكمه ، وعالما بالسنة » .

ويقول التابعي طاووس في هذا الصدد « ادركت نحو خمسمائة رجل من اصحاب رسول الله (ص) اذ ذاكروا ابن العباس فخالفوه ، لم يزل يقررهم حتى ينتهوا الى قوله »(٤) اضف الى ذلك ان الجيش كمجموعة من المسلمين اقتضى قيامهم بفروضهم الدينية نشوء بعض المهام التي عين لها موظفون معروفون بمكانتهم الدينية والعلمية ، منها جمع الصدقات التي عين لها لاول مرة في صفوف الجيش الفاتح للمغرب حنش الصنعاني(٥) ، وهو تابعي اشتهر بغزارة علمه وسعة درايته وشدة حماسته لنشر الاسلام ، وقد اخذ عنه الناس حيثما سار ، من مصر حتى الاندلس مرورا بالمغرب .

وكان طبيعيا ان يتم انتقال الثقافة التي يحملها هؤلاء الفاتحون للمغرب عبر دخول المغاربة في الاسلام ، ومع ذلك تبقى كيفية الاتصال بين الطرفين التي تمكن من هذا الانتقال مجالا لطرح التساؤلات . وتزودنا المصادر العربية في هذا المجال باخبار عدة موضحة الكيفية التي تمت بها الاتصالات .

كان اول المجالات حسب هذه المصادر ، الجيش ذاته الذي التحقت بـه الوف مؤلفة من المغاربة ، ومن كل تجمعاتهم القبلية . بدأ ذلك بأول هذه التجمعات واقربها مواطنا الى المشرق حيث دخل العرب ونعني به تجمع زناته ، ومن جملة قبائله قبيلة جرادة قوم الكاهنة ، التي حطم انتقاضها نهائيا حسان بن النعمان . وقد نقل لنـا ابن عذاري في جملة ما نقلهمناخباره انه « كان مع حسان جماعة من البربر (المغاربة) استأمنوا اليه فلم يقبل امانتهم الا ان يعطوه من قبائلهم اثني عشر الفا يجاهـدون مع العرب فأجابوه واسلموا على يديه فعقد لولدي الكاهنة ، لكل واحد منهما على ستة الاف فارس واخرجهم مع العرب يجولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفـر من البربر »(٦) . وبعد عدة قرون من الفتح تبرز من هذا التجمع على مسـرح الاحداث قبيلة يفرن التي تقول انها من موالي عثمان بن عفان ، الخليفة الراشدي الثالث الذي جرت من عهده وقائع عدة لفتح المغرب ، مما يدفع للظن بأن القبيلة قد حالفت العرب في فترة خكمهواصبح افرادها بالتالي موالي حلف يختارون حسـب العادة الجارية في المشرق ، القوم الذي ينتمون اليه . وفي عهد موسى بن نصير الذي اوصل عمليات فتح المغربالى نهايتها المظفرة ، واتبع سياسة في الفتـح قامت على اساس مهاجمة القبائل في مواطنها . وكي يأمن بقاءها على الولاء رغـم ما اشتهرت به من كثرة الانتقاض ، كان يأخذ منها رهائن ومن ثم يستخدمهم في عمليات الفتـح ويلحقهم بالجيش . وعن هذا الطريق انضم للجيش الفاتح آلاف مؤلفة من التجمعين القبليين الباقيين في المغرب ، صنهاجة ومصمودة . فقد قدم عليه حسب قـول ابن عذاري وفد كتامة الصنهاجية بالطاعة « فولى عليهم رجلا منهم واخذ منهم رهائن من خيارهم » . وفي المغرب الاقصى ، حيث يستوطن التجمع القبلي الثالث ، مصمودة في الجبال خاصة تكرر ما حصل في اجزاء المغرب الاخرى ، اذ « حمل ابو مدرك زرعة ابن ابي مدرك رهائن المصامدة ، جمعهم موسى مع رهائن البربر الذين اخذهم مـن افريقية والمغرب وجعل عليهم مولاه طارقا ودخل بهم جزيرة الاندلس » . وفي مكان اخر يحدد المؤرخ نفسه النسبة العددية المتقاربة للمشاركة بيـن قبائل المشارقـة والمغاربة وذلك بقوله « استعمل مولاه طارقا على طنجة وما والاها في سبعة عشر الفا من العرب ، واثني عشر الفامن البربر »(٧) وظلت المشاركة قائمة ايضا في الجيش الذي دخل به موسى بن نصير الاندلس بعد دخول مولاه طارق ، اذ يذكر ابن عبد الحكم ذلك بالقول « ثم خرج موسى بن نصير الى الاندلس في رجب سنة ٩٣ هـ

بوجوه العرب والموالي وعرفاء البربر »(٨) . هذه المشاركة في الجيش لابناء القبائل العربية المشرقية والقبائل المغربية والتي نسميها فن مصطلحاتنا الحديثة (اخوة السلاح) ربما كانت الواقع المعروف المشهور لدى نقلة اخبار المغرب او حفظته ، الذي اوحى لهم بابتداع اسطورة تعبر عن هذه المشاركة تعبيرا رمزيا ، وهي حسب رواية ابن عذاري « ان خالد بن يزيد العبسي كان في جملة اسراها فقالت له يوما : ما رايت في الرجال اجمل منك ولا اشجع وانا اريد ان ارضعك فتكون اخا لولدي . وكان لها ابنان احدهما بربري والاخر يوناني ... وقالت له نحن جماعة البربر لنا رضاع اذا فعلناه نتوارث به . فعمدت الى دقيق الشعير فلتته بزيت وجعلته على ثدييها ودعت ولديها وقالت كلا معه على ثديي ففعلا فقالت قد صرتم اخوة »(٩).

من الطبيعي ان تشكل هذه المشاركة في صفوف الجيش انتقال الثقافة من الطرف العربي الى الطرف المغربي . ومن الامثلة البارزة على ذلك مثل طارق بن زياد الذي اضحى عارفا بالعربية قادرا على الخطابة بها ، واذا صوبت سهام النقد للخطبة المشهورة المنسوبة اليه فان هذا النقد لم يطل اكثر من الشكل البديعي ولم يتعد الى امكانياته الخطابية ، ولا الى النص البسيط الخالي من المحسنات اللفظية الذي اوردته المصادر المبكرة نسبيا من تاريخ الاندلس(١٠) .

لكن عملية انتقال الثقافة العربية الى المغرب لم تقتصر على نتاج عمليات عفوية تمت بفعل ظروف مواتية ، وانما تعدى الامر ذلك الى عملية نشر موجهة من قبل القواد . وقد حفظت الروايات لنا ذكرا لعمل اثنين منهم وهما عقبة بن نافع وموسى ابن نصير . يذكر ابن القطان عن عمل الاول منهما في هذا المضمار في معرض حديثه عن دخول المصامدة من اقصى المغرب في الاسلام بقوله : « واكثرهم اسلموا طوعا على يديه ، وانه ترك معهم بعض اصحابه يعلمونهم القرآن والاسلام ، منهم شاكر صاحب الرباط وغيره »(١١) وممن تدخلهم الرواية ضمن اصحاب هذا الفاتح صالح بن منصور الحميري الذي نزل في منطقة الريف ونشر الاسلام في صفوف قبائله من غمارة وبعض فروع صنهاجة ، وانشأ احفاده فيما بعد دولة لهم في المنطقة عاصمتها ناكور التي تقع خرائبها على مقربة من ميناء الحسيمة الحالي(١٢) .

وقام موسى بن نصير بأمر العرب في جيشه أن يعلموا المغاربة القرآن ويفقهوهم في الدين . اما بالنسبة للناس خارج الجيش فقد ترك فيهم سبعة عشر رجلا يعلمونهم القرآن وشرائع الاسلام .

يلاحظ ان المواطن التي عمل فيها القادة الفاتحون على نشر الثقافة العربية الاسلامية ونقلها للمغاربة ، كانت في اقصى المغرب ، في حين لا يرد في الروايات شيء عن عمل مماثل لهم في المغرب الادنى . وهو امر يمكن تفسيره بأن الحاجة لعملهم هنا لم تكن قائمة ، مادام المشارقة المستقرون في هذا الموطن كثر ، نقلوا معهم جو المشرق الثقافي وكذلك وسائله في نشرها ، مثل المساجد وحتى الكتاتيب التي وجدت في القيروان منذ وقت مبكر ، بدليل ما يروى على لسان احد تلامذتها من قول : « كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله (ص) يمر بنا ونحن غلمة في القيروان فيسلم علينا ونحن في الكتاب وعليه عمامة قد ارخاها من خلفه »(١٣) . ومن الطبيعي ان تكون هذه الثقافة جامعة للتراث العربي من لغة وشعر ، اضافة للتراث الاسلامي من قرآن وحديث واقوال للصحابة . وهذا ما تؤكده الوصية المنسوبة لعقبة ، لاولاده ، عندما غادر القيروان متجها لغزوته الكبرى في المغرب ، ويقول فيها : « يا بني اوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها : اياكم ان تملؤوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن فان القران دليل على الله عز وجل ، وخذوا من كلام العرب ما يهتدى به اللبيب ويدلكم على مكارم الاخلاق ، ثم انتهوا عما وراءه . . »(١٤)

هجرة الثقافة عن طريق دعاة الاحزاب السياسية ـ المذهبية

عندما كانت علميات فتح المغرب تأخذ مجراها في النصف الثاني من القرن الاول الهجري ، كان المشرق يعج بالتيارات السياسية التي تبلورت خلال صراعها مع السلطة السياسية الاموية على شكل مذاهب اعتقادية ضمن اطار الدين الاسلامي . وعند هزيمتها في ثوراتها المعلنة على السلطة السياسية كانت تلجأ للتنظيم السري ونشر مبادئها بواسطة دعاة توجههم الى سائر انحاء ديار العرب والاسلام .

وقد افاد الدعاة الموجهون للمغرب من عدة ظروف مواتية ، منها بعده عن المركز ، ورغبة القبليين المغاربة بالاستقلال ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم ممن ينتمون الى قبيلة تربط بين افرادها رابطة العصبية التي تسعى الى الملك الذاتي ، اضافة لكون بعض هذه المذاهب تعزف على وتر المساواة بين المسلمين ، وعدم تفضيل قريش على غيرها ، كالخوارج ، واجازة بعضها للثورة على ائمة الجور ضمن اطار احد مبادئها بضرورة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . لكل هذا وجد زعماء القبائل المغربية ان بينهم وبين هذه الاحزاب ودعواتها قضية مشتركة هي عداء السلطة . لكن الامر يظهر وكأنه اكبر من قضية نفعية ، لان مبادىء هذه الاحزاب لم تنتشر فقط بل وترسخت ايضا ، واصبح لها بين المغاربة اتباع كثر متحمسون ، مما يدفعنا للبحث عن عامل اخر يضاف للعوامل السابقة ، فهل يكون طبيعة اسلام المغاربة الاول ؟ .

الملاحظ ان انتشار الاسلام كان سريعا على عكس الفتح الذي كان عسيرا وبطيئا. ففي العقد السابع من القرن الاول يصف ابن القطان موقف المصامدة في المغرب الاقصى من عقبة : « انه اول الفاتحين قدوما وانهم اسلموا طوعا على يديه »(١٥) ، وفي العقد التالي يفهم من ابن عبد الحكم ان اغلبية البتر ، احد الجذمين اللذين تنحدر منها القبائل المغربية ، قد دخل في الاسلام(١٦) ، وفي اخر القرن ، أي زمن ولاية اسماعيل بن ابي المهاجر سنة ١٠٠ — ١٠١ هـ ، تقول الاخبار انه لم يبق في زمنه احد من المغاربة الا اسلم ، وهو امر لايصدق على الجميع ، وبخاصة على اتباع الديانات التوحيدية كالمسيحيين خاصة ، الذين ظل البطارقة يأتونهم من الاسكندرية حتى بعد عدة قرون(١٧) . وهذا كله يدل على ان الاسلام شهد في المغرب انتشارا واسعا في امد قصير لم يشهد مثيلا له في البلاد الاخرى ، حتى انه كان يشمل الوثنيين في مدة لاتزيد عن ثلث قرن. ولكن هذه القبائل التي اسلمت بسرعة كانت كثيرة الانتقاض ، حتى ان ابن خلدون يقول انهم ارتدوا اثنتي عشرة مرة (والغالب ان المعنى المقصود انتقاض سياسي) وهذا ما يعرضها لعقوبة النكث بالعهد ، خاصة وان الاسلام كان اقل تسامحا مع الوثنيين وبالتالي كان اسلامهم بمثابة استسلام ولم يرافقه فهم كامل عميق . ولا ادل على ذلك من ان افريقية اول البلاد فتحا واقدمها اسلاما ظلت حتى نهاية القرن الاول غير متقيدة في ممارساتها بأوامره ونواهيه ، حتى ان ابن عذاري يورد وصفا لعمل اسماعيل بن ابي المهاجر بالقول « علم اهل افريقية الحلال والحرام ، وبعث معه عشرة من التابعين اهل علم وفضل .. وكانت الخمر بافريقية حلالا حتى وصل هؤلاء التابعون فبينوا تحريمها »(١٨) .

هذه السطحية في اسلام المغاربة اول الامر هو الذي مكن الدعاة ، وكان اكثرهم من الراسخين في العلم ، من بلورة مبادئه ومفاهيمه في اذهان المغاربة وفق الشكل المطابق لمذاهبهم .

دعاة الخوارج :

كان الخوارج اول المستغلين لهذه الظروف المواتية في المغرب ، حيث ظهر في اواخر النصف الثاني للقرن الاول الهجري داعيان كبيران لهما ، يمثل احدهما الصفرية ، ويدعو الثاني للاباضية . وهكذا ظهر في القيروان عكرمة مولى الصحابي الشهير عبد الله بن عباس(١٩) ، وكان مقامه في مؤخرة المسجد . ونجح في اقامة اتصالات من اناس من قبائل مغربية شتى ومن اماكن عدة . فبرز من بين اتباعه فيما بعد ميسرة المدغري الذي تنعته الروايات بالحقير ، والذي تقلبت به الاحوال من سقاء في سوق القيروان

لقائد اول ثورة صفرية خارجية كبيرة ، انطلقت من طنجة في اقصى المغرب عام ١٢٢هـ ٣٦ـ٧٤٠ م ، وهددت سلطان الامويين في المغرب كله ، وممن لقي عكرمة سعد المكناسي الذي اسس حفيده عيسى بن يزيد ، او مزيد الاسود معما يزيد على ٤٠٠ من الصفرية دولة اتخذت من سجلماسة في اقصى جنوب المغرب الاقصى على حدود الصحراء (تافيلالت الحالية) دولة صفرية سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧م ، ظلت قائمة حتى اواسط القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، رغم ان الحكم انتقل فيما بعد من يد عيسى الى صفري اخر هو سمعون او سمكو بن واسول او يزيلان الذي كان صفريا ايضا(٢٠) . وتغلغل المذهب الصفري في المغرب الاقصى حتى شواطىء الاطلسي عندما تزعم اشتاتا من قبائل زناتية ــ اشتهرت باسم برغواطة ــ صالح بن طريف احد اعوان ميسرة ،ولو ان المذهب اختلط هنا ببقايا معتقدات اخرى قائمة في المنطقة المعروفة بتامسنا والممتدة على الاطلسي من الرباط الى ما وراء الدار البيضاء . وامتدت مواطن انتشار الصفرية نحو المغرب الاوسط ، عندما انتشرت بين بني يفرن الزناتيين المقيمين حول تلمسان والذين بايعوا اميرهم ابا قرة اماما حوالي سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧ م .

لقي المذهب الخارجي الثاني ، الاباضي ، انتشارا مماثلا في سعة النطاق ، لكنه كان اكثر تعمقا في الافكار واكثر رسوخا حيث انتشر ، وربما نتج ذلك عن حسن تنظيم دعوته وطريقته في اعداد اتباعه وافراده . فقد لجأ شيوخ هذا المذهب منذ النصف الثاني من القرن الاول الهجري للسرية في ظل امامة جابر بن يزيد(٢١) ، والناطق باسم جماعتهم تجاه الجميع عبد الله بن اباض . وعندما خلف ابو عبيدة مسلم بن ابي كريمة جابرا في الامامة سنة (٩٥) على ما يرجح ، تطور التنظيم المركزي ونشطت الدعوة . فقد نظم الاتباع في مجالس ، وقاد الجميع عدد قليل في الاعلى ،وتقلد ابو عبيدة ضمن القيادة كل ما يتعلق بالمذهب والتبشير به ، بينما تقلد حاجب الطائي شؤون الحرب والاشراف على بيت مال الجماعة ، واعد الدعاة في مركز خاص للتعليم اشرف عليه ابو عبيدة وعلم فيه طلابا هرعوا اليه من اصقاع شتى من ديار الاسلام ، وكان يرسل منهم بعد تدريبهم على التبشير مجموعة لكل بلد يسميها (حملة العلم) او (نقلة العلم)، وفيها امام وقاض وعليها نشر المذهب وجمع الاتباع ،وارسال من ينجب منهم الى المركز في البصرة ليصار الى تعليمه وتدريبه ، وبذلك يؤمن للدعوة في كل بلد عنصرا محليا من سكانها . وكان ذلك على ما يظهر بمثابة السياسة المتبعة ، فقد روي عن احد اباضية الحجاز قوله : « قدم الينا ابو عبيدة مرة حاجا ومعه امرأة من المهلبيات ، فلما فرغوا من حجهم قالت : يا اباعبيدة اني اريد المقام بمكة فقال : لاتقيمي الخروج افضل لك ، قال ابن مسروق (من دعاة الاباضية في الحجاز) فقلت وانا اخرج معكم يا اباعبيدة فقال : امانت فأقم ، فقلت تأمر هذه بالخروج معك وتأمرني بالمقام ؟ قال : لانك قريب من مكة ونحن بعيد عنها(٢٢) .

يظهر اول دعاة الاباضية المرسلين الى المغرب وهو سلمة بن سعيد في جبـل نفوسه ، حيث افلح في جميع اتباع وارسال البعض منهم الى مدرسة البصرة ، وقدبرز منهم ابوعبد الله محمدبن عبد الحميد بن مغطير الجناداني، الذي عاد واشترك مع سلمة في نشر المذهب. ولقيت العملية نجاحا باهرا اذ اضحى جبل نفوسة معقلا رئيسا لاباضية المغرب ، سواء على صعيد اشعال الثورات او المساهمة في اقامة الدول الاباضية . كما تقدمت الدعوة غربا واستطاع دعاتها ارسال بعثة علمية من منطقتي طرابلس والمغرب الادنى تتكون من ابي ضرار اسماعيل بن ضرار الغدامسي مـن غدامـس جنوب طرابلس ، وعبد الرحمن بن رستم من القروان وعاصم السدراتي من سدراته في غرب الاوراس ، وابو داود القبلي النفزاوي من نفزاوة بجنوب المغرب الادنى ، وانضم اليهم في البصرة ابو الخطاب المعافري . قضى هذا الوفد خمس سنوات في البصرة بين ١٣٥ ـ ١٤٠ هـ ، واضحى كل عضو منه بعد عودته بؤرة اشعاع للمذهب وتتلمذ عليه اخـرون(٢٣) .

وقد انشأ عمر بن يمكتن احد التلاميذ مدرسة في جبل نفوسة لتعليم القرآن وتفسيره ، كما قاد بعض الاعضاء ثورات كانوا فيها الائمة للثائرين ، كأبي الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري ، الذي دعي له بالامامة سنة ١٤٠ هـ ، وظل كذلك طيلة اربع سنوات قتله بعدها ابن الاشعث(٢٤) . اما عبد الرحمن بن رستم فقد نجح في اقامة دولة اباضية كبيرة نسبيا قاعدتها تاهرت في المغرب الاوسط ، انضوى تحت لوائها كل اباضية المغرب حتى جبل نفوسة شرقا ، وعاشت منذ سنة ١٦١ ـ ٢٩٦هـ/ ٧٧٨ ـ ٩٠٨ م .

ولعل ما يهمنا في المقام الاول من دعوة الخوارج في المغرب ، هو نوعية الثقافة التي نقلوها اليه . وتـدل الشواهد على انها تلك الثقافة العربية الاسلامية التي حملها الصحابة وبعدهم التابعون اواخر القرن الاول الهجري واوائل الثاني ، وتتألف من كتلة تشتمل على بذور علوم دينية متعددة ، ففيها القرآن قراءة وتفسيرا وغريبا ، وفيها الحديث واقوال الصحابة وفتاواهم . ذلك لان العلوم لم تكن قد تمايزت بعد ، ولم يفترق الخوارج عن غيرهم من المسلمين في هذا المضمار باستثناء بعض الاجتهادات الخاصة بهم حول مداول نص من القرآن الكريم او الحديث او الاخذ بفتاوى صحابي دون غيره . وعرف اقطاب الخوارج المشارقة ، سواء منهم من قدم للمغرب كي ينشر مذهبه او من نقل عنه حملة العلم المغاربة ، بأنهم من مشاهير العلماء في صفوف التابعين ، وقد نقلوا علمهم عن كبار الصحابة المبرزين في هذا المضمار . فجابر بن زيد، الذي تنسب اليه امامة الاباضية ، كان من كبار التابعين ويقال انه ادرك سبعين من

اهل بدر ، واخذ اكثر ما اخذ عن ابن عباس وعائشة ام المؤمنين ، واعتبره العاملون في جمع الحديث الصحيح ، كالبخاري ومسلم وابي داود ، ثقة ، وكان له مؤلف ضخم هو مدونته التي احتوت على الحديث واقوال الصحابة وفتاواهم . اما ابو عبيدة مسلم بن ابي كريمة فقد حفظ علم استاذه جابر ، واخذ كذلك عن بعض الصحابة ويؤثر عنه قوله : « من لم يكن له استاذ من الصحابة فليس على شيء من الدين وقد عن اربعة كان عكرمة احدهم . ويقال ان عبد الله بن عباس قال له : « انطلق فافت بالناس » وقوله هو ، اي عكرمة « طلبت العلم اربعين سنة ، وكنت افتي بالباب وابن عباس في الـدار » .

اما عكرمة ناشر مذهب الصفرية في المغرب فقد اخذ عن عبد الله بن عباس وعائشة وابي هريرة وعبد الله بن عمر ، وروت عنه جماعة كبيرة من التابعين منهم جابر بن زيد امام الاباضية ، واحتج بحديثه عامة الائمة القدماء اذ اعتبر لدى الجميع حافظ علم سيده عبد الله بن عباس المشهور بين الصحابة بعلمه الواسع . لذلك كان في الحديث كما ذكرنا ، وكذلك في القرآن اذا أثر على الشعبي قوله : ما بقي احد اعلم بكتاب الله من عكرمة . كما روى عن سفيان الثوري نصحه للناس في الكوفة بان يأخذوا التفسير عن أربعة كان عكرمة احدهم . ويقال ان عبد الله بن عباس قال له : « انطلق فافت بالناس » وقوله هو ، أي عكرمة « طلبت العلم اربعين سنة ، وكنت افتي بالباب وابن عباس في الدار » .

فقهاء الجماعــة :

يظهر ان نشاط دعوة الخوارج والنجاح الذي احرزته منذ بدايتها في اواخر القرن الاول الهجري لم تخف عن علم البلاط الاموي ، وتدل اعمال الخلفاء ومساعيهم التي بذلوها ردا على ذلك ، على انهم ادركوا احد الاسباب الرئيسية لنجاحها ، وهو سطحية اسلام المغاربة ، وهذا ما يفسر مسارعة عمر بن عبد العزيز الخليفة الاموي لارسال عشرة من التابعين مع واليه للمغرب بغاية تفقيه المغاربة في الدين . وقد ركز كتاب التراجم على تبيان نشاطهم في هذا المضمار وابعاده ، بجمل محددة قد تتكرر في اكثر من ترجمة مثل « انتفع به اهل افريقية وبث فيهم علما كثيرا » و « وعلموهم السنن » وعلموهم « الحلال والحرام » كما يشيرون الى بناء العديد منهم للمساجد ، التي لا يخفى دورها في التعليم الى جانب العبادة . ومن ناحية اخرى ، كانت اعمال هؤلاء الفقهاء تجعلهم على صلة بقطاعات واسعة من الناس ، فقد كان بعضهم قضاة مثل جعثل بن هاعان بن عمير البتور (٢٥) الذي كان قاضيا للجند حتى ايام هشام بن عبد الملك ، كما ان ابا الجهم

عبد الرحمن بن رافع كان قاضيا للقيروان منذ استقرار الفتح بها زمن موسى بن نصير . وكان اسماعيل بن عبيد الانصاري تاجرا موسرا ، يرسل الاحمال من المغرب الى المشرق وقد بنى في القيروان مسجدا كبيرا دعي بمسجد الزيتونة وتصدق بسبعمائة ثوب على المجاهدين ، ونتيجة لمسلكه دعي بتاجر الله(٢٦). وفي مجال المستوى العلمي كان العشرة تابعين ،وبعضهم كان عالما مشهودا ، وراوية ثقة اعتمد عليه وروى عنه بعض مشاهير علماء المسلمين في المشرق . ولعل اهم حادثة تتجلى فيها الغاية من ارسالهم للوقوف في وجه مد الدعوة الخارجية ، بتعميق مفاهيم الدين الاسلامي للمغاربة وفق المنظور والاجتهاد الذي تراه الجماعة من اهل الطاعة للخلافة الاموية ، استعانة والي المغرب ، حنظلة بن صفوان بهم لتنفير الناس عن الخوارج . اذ يروي المالكي في الروض نقلا عن عبد الاعلى بن عقبة الغفاري : « لما ثارت الخوارج على حنظلة بن صفوان بطنجة جمع حنظلة علماء افريقية ، وهم الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز الى افريقية ليفقهوا اهلها في الدين ، منهم سعد بن مسعود وحبان بن جبلة وطلق بن حابان ، فكتبوا له رسالة ليقتدى بها المسلمون ويعتقدوا ما فيها »(٢٧) .

الدعوة الفاطمية :

بينما كان هذا الصراع على الصعيد الفكري بين تيار الجماعة والخوارج ، يجري على ارض المغرب ، وتنتقل عبره من المشرق ثقافة مرتبطة باطراف الصراع ، كانت الدعوات في المشرق تزداد عددا وتترقى تنظيما وتغنى فكرا وتتطلع الى نشر افكارها ومبادئها في اطراف الدولة . وربما لفتت نجاحات الخوارج فيه انظار اصحاب الدعوات للفرص المتوافرة فيه ، فقام المشرفون على الدعوة التي نجحت بعد قرابة قرن ونصف في انشاء الدولة الفاطمية على ارض المغرب ، بارسال داعيين سنة ١٤٥ هـ ونسب ارسالهما لجعفر الصادق (٨٣ ــ ١٤٨ هـ) ، الذي « امرهما ان يبسطا ظاهر علم الائمة من آل محمد وينشرا فضلهم » ، وامرهما ان يتجاوزا افريقية الى حدود البربر ثم يفترقان فينزل كل منهما ناحية . فلما وصلا الى مرماجنة (على نحو ثلاث مراحل من القيروان) ، نزل احدهما وكان يعرف بابي سفيان ، بتالا(تقع على بعد ٤٥ ميلا جنوب السكاف وعلى١٧ ميلا شرق الحدود الجزائرية). واستطاع بمسلكه وعمله نشر مذهبه في مرماجنة والاربس .واستفاد ايضا من وضع المدينة كمركز للتبادل التجاري لينشر مذهبه في نقطة في الجريد عن طريق جماعة كان افرادها يختلفون بالتمر الى تلك المدينة ويشترون القمح . اما الثاني فعرف بالحلواني وعمل في منطقة الاوراس ، اذ نزل في موضع الناظور على مقربة من بجاية ، ونشر مذهبه في صفوف قبائل كتامة ، ومعقلها جيل ايكجان على مقربة من سطيف ، وكذلك في نفزه وسماته ، او سماطة ،

وهي عند النسابين فرع مـن الاولى ، وبها سميت مدينة سماطـة بين بلزمـة وسجلماسة(٢٨).

الاعتـزال :

يكاد هذا التيار ان يكون فكرا بحتا ولا علاقة مباشرة له بالسياسة ،ومع ذلك كانت اوساط الجماعة تنظر اليه نظرة معادية لخوضه في امور لم يتعرض لها السلف الصالح كما ان السلطات ، سواء الاموية او العباسية قبل المأمون ، لم تنظر اليه بارتياح ، خاصة وان بعض مبادئه قد تفسر سياسيا في غير مصلحة السلطة ، كقوله بحرية الارادة الانسانية ومسؤولية الانسان عن عمله وخلق الانسان للافعال ، مما يجعل السلطة والملك من فعل الانسان . وقد ارسل هؤلاء الدعاة الى المغرب منذ ايام شيخهم الكبير واصل بن عطاء المتوفى سنة ١٣١هـ ، والذي نشط لبث الدعاة ايضا في شرق اراضي الدولة العربية الاسلامية وغربها ، كما يشير الى ذلك شاعر المعتزلة صفوان الانصاري بقوله :

لـه خلف شـعب الصين في كـل ثغـرة
الى سوسهـا الاقصـي وخلف البرابـر

رجـال دعـاة لا يفـل عزيمهـم
تهـكم جبـار ولا كيـد ماكـر

وكان داعيته الى المغرب عبد الله بن الحارث الذي يقول عنه صاحب المنية والامل انه اجابه خلق كثير (٢٩). والواضح ان عدد الاتباع اضحى كبيرا بعد امد ، واذا كان وجود جماعة كبيرة لهم في القيروان قد اقض مضاجع الفقهاء المالكية خاصة ، امرا طبيعيا ، نظرا لموقع القيروان ونشاطها الثقافي العام ، الا ان ما يستلفت النظر تجاوز الاعتزال في انتشاره للمغرب الادنى ووصوله الى المغرب الاوسط ، حيث سيصبح عددهم كبيرا في المستقبل ، اذ ينقل ياقوت عن البكري ، « ان مجمع الواصلية اصحاب واصل بن عطاء كان قريبا من تاهرت ، وكان عددهم نحو ثلاثين الفا في بيوت كبيوت الاعراب يحملونها». كذلك وصل المذهب منذ وقت مبكر الى المغرب الاقصى حيث نرى شيخ قبيلة اوربة الذي لجأ اليه ادريس بن عبد الله صاحب الدولة الادريسية معتزليا. ويضيف البكري على ذلك ان ادريس شاركه في هذا الرأي ايضا(٣٠) .

هجرة الثقافة بواسطة رحلات طلب العلم والكتب

نتج عن النشاطات السابقة في نقل الثقافة في ركاب الفاتحين واجهزة الدولة والاحزاب السياسية ــ المذهبية ، ارتقاء الثقافة بالمغرب على صعيدي عدد المثقفين بالثقافة العربية الاسلامية ، وارتقائها لديهم ، ومثل هذا الامر يزيد من الرغبة في تلقي المزيد من المشرق حيث المنبع والمصدر . وبالرغم مــن عدم انقطاع ورود العلماء من المشرق الا ان هؤلاء اصبحوا قلة نادرة اذا ما قيسوا بعدد الراحلين ، اما مراكز الفكر المشرقي التي يرتادونها فكانت بشكل رئيسي مراكز الحياة الدينية في الحجاز ، أو السياسية في العراق ، وخاصة في الكوفة والبصيرة ، ومحطة الطريق الرئيسية الى المركزين وهي الفسطاط .

وازدهرت في المغرب نتيجة لهذا الاتصال مراكز فكر كبيرة كان على رأسها القيروان وتونس في المغرب الادنى ، ومركزا تاهرت وجبل نفوسة الخارجيان . اما المغرب الاقصى فقد تأخر ظهور المركز الفكري فيه حتى اواخر القرن الثاني للهجــرة في ظل ادريس الثاني . ومن اشتهروا بالعلم فيه جاؤوه من مركزي القيروان ومركز الاندلس مع موجات السكان التي قدمت الى المدينة من هذين الموقعين ، وبدأنا نسمع عن وجود فقهاء كعبد الله بن مالك الانصاري الخزرجي التي كتب العقد بشراء ادريس الثاني للارض التي بنيت عليها عدوة الاندلس من فاس . كما تظهر اسماء حملة علم مشرقي ، ففي سنة ١٨٩ هـ وفدت على ادريس وفود العرب من بلاد افريقية وبلاد الاندلس في نحو خمسمائة من الازد وبني يحصب والصدف وغيرهم .. « فاستوزر عمير ابن مصعب الازدي وكان من فرسان العرب وساداتها .. واستقضى منهم عامر بن محمد بن سعيد القيسي من قيس قيلان ، وكان رجلا صالحا ورعا سمع مالكا وسفيان الثوري وروى عنهما كثيرا »(٣١) . وقد حمل هؤلاء الراحلون كل مافي المشرق آنذاك من علوم واكثرها علوم دينية ، او لغة وآداب .

الفقه والحديث :

من المعروف ان فترة القرن الثاني في المشرق هي فترة جمع الحديث التي بدات بقوة في اوله ، وقد اشتهر من المجموعات جامعا سفيان الثوري (المتوفى سنة ١٦٥هـ)، وهما الجامع الكبير الذي ادخله علي بن زياد في تونس ، والجامع الصغير الذي ادخله ابو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي المقيم في حصن على البحر بناحية سفاقس، وكان مشاهير الفقهاء يقصدون هذين الاثنين لسماع جامعي سفيان عليهما . اما في الفقه فقد برز

في هذه الفترة مذهب مالك بن انس في المدينة وابي حنيفة في العراق ، هذا عدا مذاهب متعددة ظهرت آنذاك وبلغت حوالي ثلاثة عشر مذهبا ، ومع ذلك كان العديد من الفقهاء لايتقيدون بأي واحد منها .

رغم هذا التعدد الكبير في المذاهب الفقهية في المشرق الا ان فقهاء المغاربة اشتهر عنهم الاخذ عن العلمين الكبيرين في الفقه آنذاك : مالك بن انس امام اهـل المدينة ، وابي حنيفة النعمان بن ثابت امام اهل الراي في العراق ، ويأتي بعدهما سفيان الثوري . وبين هؤلاء من لم يتقيد براي واحد من هؤلاء الائمة الثلاثة ، على الرغم مما يبدو لاول وهلة من قربهم من مالك بن انس اكثر من غيره . فقـد رحل اليه حسب قول القاضي عياض اكثر من ثلاثين رجلا منهم كلهم لقيه(٣٢) وسمـع منه . ويبدو لنا هذا الامر واضحا فيما لو استعرضنا شيئا من السيرة العلميـة لكبار فقهـاء المغـرب انذاك .

اشتهر علي بن زياد (ت ١٨٣ هـ) بأنه اول من ادخل موطأ مالك وفسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه ، واصبح معلما لعدد من مشاهير فقهاء المغرب ، ومع ذلك فانه لم يدخل الموطأ وحده وانما ادخل ايضا جامع سفيان الثوري .اما ابن فروخ الذي تولى القضاء في القيروان ولقي مالكا وبصحبته اشتهر وبه تفقه ، فقد اخـذ من ناحية اخرى عن ابي حنيفة ، واشتهرت عنه مناقشته لتلميذ ابي حنيفة زفـر ابن الهذيل القياس المشهور(٣٣) ، وقد دون عن ابي حنيفة عشرة آلاف مسألـة . لذلك كان يحكم بما يراه صوابا سواء من اقوال مالك او من اقوال اهل العـراق . اما ابن غانم قاضي افريقية للرشيد (ت ١٩٦ هـ) فقد اخذ من مالك وعليه اعتماده ومن سفيان الثوري وكذلك من ابي يوسف صاحب ابي حنيفة . وكان في تدريسـه يخصص يوما لكتب ابي حنيفة ، وعندما تعرض له قضايا جديدة يكتب لمالك مـن جهة ولابي يوسف من جهة اخرى . وقام البهلول بن راشد (ت ١٨٣ هـ) بتأليـف كتاب في الفقه على مذهب مالك ومع ذلك كان في احكامه يميل احيانا الى رأي الثوري

بعد ذلك جاء اسد بن الفرات،ذو الاصل الشامي من حران ،ليوازن في الاعتماد على الامامين ويحمل رايهما في كل قضية . اخذ الموطأ عن مالك وحمله الى العراق حيث رواه عنه احد كبار تلامذة ابي حنيفة ، وقد لقي اثنين منهما ، وهما ابـو يوسف ومحمد بن الحسن ، وارتبط بصداقة مع هذا الاخير ، ثم حمل مسائل جماعة ابي حنيفة وعرضها على ابن القاسم تلميذ مالك بمصر فاجابه هذا بالحكـم فيها ، اما نقلا ثابتا عن مالك ، واما ما يظن انه سمعه عنه ، او ما يعتقد انهحكمه في قضية مشابهة . وما لم يجد له اصلا عند مالك قال به باجتهاده على اصـل قول مالك .

سجل اسد كل هذا في ستين كتابا سميت الاسدية ، فعلا مقامه بها واشتهرت في المغرب . لكن المالكية خطت خطوة الى الامام بتدوين احكام ائمتها في كتاب خاص على يد سحنون الذي حمل الاسدية لابن القاسم في مصر ، فاسقط منها ما شك فيه ، وهذبها سحنون وبوبها والحق فيها ما اختار ذكره مما اختلف عليه كبار اصحاب مالك فدعيت المدونة . وقد وصفها القاضي عياض بقوله « وهي اصل المذهب المرجح روايتها على غيرها عند المغاربة واياها اختصر مختصروهم وشرح شارحوهم ونسيت الاسدية »(٣٤) .

يلاحظ مما مر ان الفقهاء المغاربة ظلوا في حالة تبعية للفقهاء المشارقة ، ولو انهم ابقوا باب الاختيار منهم مفتوحا ليأخذوا من كل قضية ما يعتقدون صحته وملاءمته ونجد عديدا من الامثلة على هذين الوجهين للرابطة التي ربطت فقهاء المغاربة باساتذتهم المشارقة . وقد بالغ بعضهم في تقليله هؤلاء المشارقة الى حد جعل السلوك حتى في الدقائق تقليدا للائمة في المشرق ، حتى ان البهلول ذاته وضع مرة خيطا في خنصره كي يذكر شيئا ، ثم خشي ان يكون ابتدع بدعة . ولما اخبره بعض اصحابه ان عبد الله بن عمر كان يفعل ذلك ، قال : الحمد لله الذي لم يجعلني ممن ابتدع بدعة في الاسلام . ونقل اخرون راي مالك في الثوب ، مما يدل على الاهتمام بجعل الثياب منسجمة مع رأيه ، مثل قوله « حياة الثوب طيه وعيبه قصر اكمامه » .(٣٥) وسأله بعضهم عن العمامة من ناحيتي الشكل والضرورة . كما كانوا يتهيبون من الحكم في القضايا الجديدة التي لا يجدون لها حكما فيما حفظوه عنه او دونوه فيرسلون الكتب الى المشرق لسؤال الائمة كما كان يفعل اخوانهم المغاربة الخوارج الذين كانوا يستفتون الائمة في البصرة . كذلك كانوا يخضعون بعض عاداتهم للتقييم على اساس الشرع لتبين عدممخالفتها ، كما هو الحل في سؤالهم لمالك عن جواز الصلاة وهم يضعون (التالمة) ، وهي قماش مصنوع بشكل خاص ، يربطونه على انفسهم ليجمعوا فيه ما يجنونه من الحشائش . وجاءهم جوابه بالقول « اذا كنتم انما تفعلون هذا لمنافعكم ، فتحضركم الصلاة فتصلون به هكذا ، ما ارى فيه بأسا ان شاء الله » . ومع اتباعهم للاحكام الجاهزة التي يستخرجها الائمة المشارقة من الاصول ، الا انهم يحاولون عند التطبيق مراعاة الظروف المحلية والحكم على الاشياء في ضوء المبدأ العام ، كما هو الحال في قضية الاشربة ، التي عرضها اسد بن الفرات في كتاب الاشربة وفيه حكم بجواز شرب المنصف ، اي عصير العنب الذي يغلى حتى يذهب نصفه ويبقى النصف الاخر . لكنه راى ان الحكم يتعلق بعنب خراسان و هوحسب قوله « كثير العسل قليل الماء فهو ينعقد على النصف ، واما غيره فلا يجوز حتى ينعقد وان بلغ الثلثين » . قال : ولقد اختبرنا عنبنا بمجردة (وادي) فوجدناه لاينعقد الا على الثلاثة ارباع لانه قليل العسل كثير الماء ، ولا يحل قبل انعقاده وكذلك قال

اهل العلم ، اذا انعقد قبل ان يبلغ الثلثين حل لان الحكم فيها انعقاده ، ولا يشرب الطلا حتى يصير اصفر كعسل النحل(٣٦) .

اللغـــة والادب :

لم تكن العلوم انذاك قد تمايزت الى حد كبير في المشرق . وكان الطلبة الوافدون من المغرب يحملون من مراكز النشاط الفكري ، وخاصة من مراكز العراق ، بعضا من نتاجه في هذه الميادين .

ومن المعروف ان الفترة كانت فترة نشاط للبحث في النحو وفي جمع اللغة ، والبحث في التاريخ الذي تبلور في تياري السيرة او المغازي واخبار الفعاليات القبلية في الماضي الاسلامي . اضف الى ذلك ان ولاة القيروان وخاصة المهالبة المشهورين بالجود في العطاء ، حاول بعضهم ان يجعل بلاطه شبيها ببلاط اسيادهم في العراق ، فساد فيه الشعر والحديث في اللغة ، كما قصد هذا البلاط بعض المشارقــة . ومن الامثلة عليها ما جرى في مجلس الوالي يزيد بن حاتم المهلبي اذ ورد على لســان قاضيه قوله : « وقد اهللنا هلال شهر رمضان فتشايرنا بالايدي . فاتهمه يزيد بانه لحن ويجب ان يقول تشاورناه » فحكم الطرفان احد النحويين في ذلك(٣٧) .

ومما انتقل الى القيروان في هذا المجال من المشرق الشعر ومجموعاته . فقد قام امان ابن الصمصامة بن الطرماح بن حكيم ، الشاعر والعالم باللغة بنقل اشعار جده التي كان يحفظها ، ومثله عياض بن عوانة بن الحكم بن عوانة الكلبي ، وكان نحويا ايضــا حافظا للشعر فنقله مع تراث العائلة من جدها في حفظ الانساب والتاريخ . كمــا دخلت في هذه الفترة كتب المغازي فقام ابو الوليد المهري بشرحها . وبدأ القيراونيون ، على شاكلة المشارقة ، بالسماع من الاعراب الذين يحلون بين صفوفهم وخاصــة للتجارة ، حتى ان وصف اليمني ابي هلال ، الذي اتجه الى تاهرت ومنها الــى بلد السودان ، للشمس ، ظل محفوظا ومكررا في كتبهم عدة قرون ، كما لم يعدم الامر ورود مشارقة الى بلاط المهالبة كما هو شأن قتيبة النحوي احد اعلام مدرســة الكوفــة في النحــو .

بهذا كان القرن الثاني للهجرة فترة التكوين للثقافة العربية الاسلامية في المغرب ، التي استمدت اصولها من المشرق ، ثم طورت هذه الاصول بالانسجام مع اوضاع المغرب . الامر الذي يعني بحد ذاته اغناء وتنويعا في الفروع ضمن اطار الثقافة الواحدة

* * *

الحواشي :

(1) G. Marçais, **La Berberie musulmane** et L'Orient, p. 133

(٢) الدباغ ، معالم الايمان في معرفة اهل القيروان ، مصر ١٩٦٨ ، ص ٣٣٠ – ٣٣٣ .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٣٩٧ .

(٤) الدباغ ، معالم الايمان ، ص ١٠٧ – ١١٢ .

(٥) ابن سعد ، طبقات ، ج٥ ، ص ٣٩١ . ابن عساكر ، التهذيب ، ج٥ ، ص ٧ . المقري ، النفح ، ج٤ ، ص ٥–٦ . ابن الفرضي ، تاريخ العلماء ، ت ١٤٨ .

(٦) ابن عذاري ، البيان ، ج١ ، ص ٤١ – ٤٣ . ابن خلدون ، العبر ، ج٧ ، ص ٩ .

(٧) ابن عذاري ، البيان ، ج١ ، ص ٤٢ .

(٨) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٢٠٧ .

(٩) ابن عذاري ، ج١ ، ص ٣٧ . المالكي ، رياض النفوس ، ص ٣٣ – ٣٤ ، وفيه ان هذا يسمى البسيسة . الدباغ ، معالم الايمان ، ص٦٥ .

(١٠) بدر ، دراسات في تاريخ الاندلس ، ص ٢١ – ٢٤

(١١) ابن عذاري ، البيان ، ج١ ، ص ٣٧ – ٤٢ .

(١٢) ابن الخطيب ، تاريخ المغرب في العصر الوسيط ، ص١٧١ – ١٧٢ . البكري ، المسالك ، ص ٩٠–٩١

(١٣) الدباغ ، معالم الايمان ، ص ١٥١ .

(١٤) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٢٢ .

(١٥) ابن عذاري ، البيان ، ج١ ، ص ٤٢ .

(١٦) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٢٠١ .

(١٧) ابن ابي دينار ، المؤنس ... ، ص ٣٨ .

(١٨) ابن عذاري ، البيان ، ج١ ، ص ٤٨ .

(١٩) ابن سعد ، طبقات ، ج٥ ، ص ٢١٦ . ياقوت الحموي ، معجم الادباء ، ج١٢ ، ص ١٨١ – ١٩٠ . المالكي ، رياض النفوس ، ج١ ، ص ٩٣ .

(٢٠) ابن الخطيب ، الاعمال (الخاص بالمغرب) ، تحقيق العبادي والكتاني ، ص ١٣٨ ، ١٤٠ – ١٤٢ .

(٢١) ابن سعد ، ج٧ ، ص ١٣١ – ١٣٢ . ابن حجر ، تهذيب ، ج٢ ، ص ٣٨ . الشماخي ، السير ، ص ٧٠ – ٧٧ .

(٢٢) المصدر السابق ، ص ٨٤ . سالم الحارثي ، العقود الفضية في اصول الاباضية ، ص ١٢٩–١٤٨.

(٢٣) الشماخي ، سير ، ص ١٢٣ – ١٢٢ . ديوز ، تاريخ المغرب ، ج٣ ، ص ١٩٤ .

(٢٤) ابن ماكولا ، اكمال ، ج٤ ، ص ٣٥٩ .

(٢٥) المالكي ، رياض النفوس ، ج١ ، ص ٧٥ . الدباغ ، ص ٢٠٢ .

(٢٦) المصدر السابق ، ص ١٩١ – ١٩٥ .

(٢٧) المالكي ، رياض النفوس ، ج١ ، ص ٦٧.

(٢٨) القاضي النعمان ، رسالة افتتاح الدعوة ، ص٥٤–٥٨ . ابن خلدون ، ج٤ ، ص٣١ . ابن الاثير الكامل ، ج٨ ، ص ٣١.

(٢٩) المنية والامل ، ص ١٩ .

(٣٠) البكري ، المسالك ، ص ١١٩ – ١٢١ . ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ج١ ، ص ٢٣ – ٢٤ .

(٣١) ابن القاضي ، جذوة الاقتباس ، ج١ ، ص ٢٧ ، ٣١–٣٢ .

(٣٢) القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج١و٢ ، ص٢٥٤ .

(٣٣) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٠٢ .

(٣٤) القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج١و٢ ، ص ٤٧٢ .

(٣٥) المالكي ، رياض النفوس ، ج١ ، ص ١٥٧ .

(٣٦) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٣٧) الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، ص٢٢٥ – ٢٢٧ ، ١٣٥–١٣٦

* * *

حول الأهمية الاثرية لمكتشفات ابلا - تل مرديخ

د. عدنان البني

المديرية العامة للاثار والمتاحف ـ دمشق

ان الاهمية الكيفية والكمية للرقم المسمارية المكتشفة في القصر الملكي في ابلا ـ تل مرديخ ، العائدة للالف الثالث قبل الميلاد ، واساءة تأويل محتوى هذه الرقم ، ومن ثم اساءة استعمال ذلك المحتوى ، قد اثارت انتباه العالم ، حتى الصحافة اليومية في الشرق والغرب ، الى جانب وحيد من مكتشفات ابلا هو تلك الرقم المسمارية . فأصبحت هذه الرقم بالنسبة للبعض كالعقل الاليكتروني فيها جواب لكل سؤال . وبالنسبة البعض الاخر اصبحت رؤيا من رؤى التوراة . وادلى الكثيرون بدلوهم بين الدلاء ووجدوا الحلول على كل الاصعدة ، وجلهم اهمل الجانب الاثري البحت لمكتشفات ابلا ، ولم يتصد له الا بعثة التنقيب نفسها وقلة من المختصين العرب والاجانب .

وخلال السنوات العشر التي انقضت بين استهلال التنقيب الاثري في تل مرديخ واكتشاف محفوظات ابلا ، وخاصة في السنوات الخمس الاخيرة ، تحققت مكتشفات اثرية صرفة وذات اهمية علمية باهرة ولكنها مرت غالبا دون ان تلفت انتباه احد تقريبا ، حتى في الاوساط الاثرية .

ولسنا ننوي في هذاالبحثاو ندعي اصلاح هذه الحال ، بل كل ما نبتغيه انءنلقي بعض الضوء على الناحية الاثرية من مكتشفاتابلا ، منوهين بهذه المناسبة بالمثابرة التي تتحلى بها بعثة التنقيب الايطالية ورغبتها في الاسراع بتزويد العالم والجمهور الواسع بثمرات جهودها(١) .

(*) بحث القي بجامعة روما ، في ختام الندوة العالمية التي عقدت حول مكتشفات تل مرديخ ـ ابلا ، في باريس ١٩٨٠ .

ان تل مرديخ الذي يبلغ طوله ١١٠٠م ومساحته ٥٦ هكتارا ليس تلا من اضخم التلال الاثرية في سورية فحسب ، بل هو من احسنها موقعا ، لكونه في منتصف الطريق بين الفرات والبحر الابيض المتوسط . وهو خير مكان يشكل استجابة لكل بحث اثري يستهدف خاصة ماضي القطر العربي السوري في تلك العصور الموغلة في القدم والتي مازلنا لا نعرف عنها الا القليل .

وفي هذه الركامات السعيدة التي تكون تل مرديخ يتتبع الباحث خلال الف عام (من حوالي ٢٥٠٠ الى حوالي ١٦٠٠ قبل الميلاد) (٢) دور بلاد الشام وعطائها في مطلع عهد نشأة المدن ومن ثم في عهد السلالات الامورية الاولى . واذا كان بعض هذا الدور معروفا جزئيا فان الملاحظ ان هناك انتقاصا من أهميته .

ان المكتشفات الاثرية في تل مرديخ قد زودتنا حتى قبل العثور على المحفوظات الملكية ، ومن ثم بعد العثور عليها ، بمعلومات وافرة عن فن عمران المدن في سورية خلال الالف الثالث قبل الميلاد وكذلك عن عمارة القصور والمعابد في الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد . كما ان تلك المكتشفات الاثرية كانت بالغة الفائدة في معرفة بعض الفنون والحرف السورية ، كالنسيج والصباغة والتنزيل والنقش والنحت والفخار، خلال تلك القرون المعتمة . كما انها القت ، بشكل غير مباشر ، الضوء على العلاقات الاقتصادية ، وعلى طرق المبادلات والتجارة بين سورية والاقطار المجاورة ، بما في ذلك مصر .

ولم يكن موقع تل مرديخ جديرا بالثقة لو لم يقيض له تنقيب ستراتيفرافي دقيق ودراسة منهجية . ان نتيجة هذه المنهجية هي الوصول الى تقويم راسخ علميا موثق اثريا لسويات التل . فاكتشاف اجزاء من اناء مصري في القصر الملكي العائد للالف الثالث يحمل كتابة تعود للفرعون المصري بيبي الاول، هو دعم للتأريخ الذي كان قد قدمه الاستاذ ماتييه للسلالة الملكية في ابـلا ، ودافع عنه في مناسبات عدة . اذ ان العلماء يجمعون على ان بيبي الاول حكم فترة تمتد من عهد سرجون الاكادي الى عهد حفيده نارمسين . وبالنسبة لبعض الاحداث اصبحنا بفضل المكتشفات الاثرية لتل مرديخ ، نمتلك تواريخ مطلقة تسهل لنا مهمات التأريخ الصعبة في مواقع أخرى . اذ اننا نرى في هذا الموقع « تطابقا بين تاريخ ابلا الذي نعرفه من المصادر القديمة وتأريخ طبقات تل مرديخ التي ظهرت في التنقيب »(٣) . وهذا الامر لم يسهل انشاء تقويم فحسب ، بل سهل ميلاد مصطلح اثري خاص بسورية ، مستقل عن

المصطلح الرافدي أو المصري ، اللذين كانا بطبقان عليه(٤). اذ ان الافاق الاثرية ، اي السويات ، موسومة باحداث تاريخية :

فسوية تل مرديخ المسماة(IIB_1) التي تعود للطور (آ) من عصر البرونز القديم الرابع ، والمؤرخة من حوالي ٢٤٠٠ الى حوالي ٢٣٠٠ – ٢٢٢٥ قبل الميلاد ، تعادل عهد سلالة ابلا الملكية .

وسوية تل مرديخ المسماة(IIB_2) التي تعود للطور (ب) من عصر البرونز القديم الرابع ، المؤرخة من حوالي ٢٢٢٥ الى حوالي ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، يقع في نهايتها قيام السلالة الامورية في ابلا .

وهاتان السويتان تقابلان كأفق اثري ، مبدئيا ، السوية (I) والسوية (j) في سهل العمق ، واجمالا السوية (j) في حماة .

ثم ان سوية تل مرديخ المسماة (IIIA) ، التي تعود للطور الاول من عصر البرونز الوسيط ، والمؤرخة من حوالي ٢٠٠٠ الى حوالي ١٨٠٠ قبل الميلاد ، تعادل عهد السلالة الامورية في ابلا ، وكذلك السوية (H) في حماة .

واخيرا ان سوية تل مرديخ المسماة (IIIB) تنتهي حوالي ١٦٥٠ او ١٦٠٠ ، وتقابل قيام الحثيين بالهجوم على ابلا .

وهذه التواريخ اكدتها ، فضلا عن ذلك ، المكتشفات الحديثة في تل مرديخ التي تضم هدايا من عهد الفرعون خفرع من السلالة الرابعة ، والفرعون بيبي الاول من السلالة السادسة كما اسلفنا(٥) ، وأخيرا الفرعون حوتت رع الذي حكم في فترة ما بين ١٧٧٠ – ١٧٦٠ ق.م .

ومهما كان موقفنا من مسائل التقويم في الشرق فلا بد من ان نعطي لهذه المكتشفات المصرية في ابلا قيمتها التاريخية البالغة ، نظرا لما تقدمه من ايضاحات من اجل تقويم ابلا ، ومن اجل الجدل المزمن حول التقويم الرافدي القصير والطويل(٦) .

وبعد هذه الايضاحات الخاصة بالتقويم ، فان مكتشفات تل مرديخ – ابلا قد اثارت لدى العلماء اتجاهين ، فبعضهم يشد ابلا نحو الرافدين وينزع احيانا حتى الى احتواء سورية الشمالية القديمة كلها في المجموعة الرافدية(٧) ، والبعض الاخر

يبالغ في الالحاح على الاصالة السورية منذ اقدم العصور المعروفة ومنهم الاستاذ ماتييه نفسه. لكن المرء يتساءل : اين كانت الحدود الجغرافية الخاصة بسورية في عصور البرونز (الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد)؟ . من الواضح ان ذلك ينطبق على المنطقة المعروفة ببلاد الشام لدى العرب جميعا ، أي الشريط الـذي يمتد غربي الرافدين من الامانوس الى سيناء ، والذي يضم الالاخ ويمحاد وأوغاريت وابلا وحماة وقطنا (تل المشرفة بجوار حمص) ودمشق والمواقع الهامة من فلسطين . واننـا لنجد في هذه المواقع تجانسا كبيرا يتحكم به الوضع الجغرافي ، والدور التجاري ، والمبادلات الاقتصادية . على ان هذه العوامل نفسها تكون هذا التجانس برفده بتيارات ثقافية تعدل تلك الخصائص التي تميز بها هذا الشطر الشامي من الهلال الخصيب(٨). وفي اعتقادنا ان بلاد الشام تأصلت خصائصها المميزة تلك مع انسياح الاموريين ــ الكنعانيين من الجزيرة العربية وتأسيس ممالكهم اعتبارا من مطالع الالف الثاني قبل الميـلاد .

وعلى اية حال ان ما تقدم يبدو لنا صحيحا في ضوء ما لدينا من معلومات حتى الان . على ان الحقيقة التاريخية هي محصلة صعبة جدا ، فالحدود السياسية القديمة والحديثة والسلالات ، واحيانا اللغات المكتوبة ، تشوشنا في موضوع الاصل والانتماء.

★ ★ ★

في هذا السياق العام ، تبدو لنا ابلا اهم مركز مدني سوري في الالف الثالث قبل الميلاد ، مدينة تجارية كبرى تعقد مع العالم المجاور صلات اقتصادية وسياسيـة واحيانا حربية . ولابد ان نفوذها كان كبيرا ، ولكن اراضيها لم تشكل ابدا امبراطورية كبرى(٩) .

وان الميل للمبالغة المفرطة في امتداد تلك الامبراطورية بالاستناد الى تأويـل خاطىء للنصوص (١٠) هو في خطورة التقليل من دور ابلا (١١) .

★ ★ ★

وعلى الضفة اليسرى من الفرات الاوسط ، أعطتنا ، مؤخرا ، مواقع كثيرة اثارا من عصر البرونز القديم (٢٩٠٠ ـــ ٢٠٠٠ ق.م) ، ومنها تل شمس الدين الغربي، تل العبد ، تل ممباقة ، تل الجفلة (قرب تل طاوى) وتل حلاوة الجنوبي ..الخ. تلك المواقع التي شملتها حملة انقاذ اثار الفرات قبل انتهاء السد وتشكل بحيرة الاسد(١٢)

والامر نفسه في موقع « ابو ضنة » قرب حلب حيث اظهر لنا سبر طبقي واسع سورا ضخما من عصر البرونز القديم ايضا . وذلك كله يضاف لما كنا حصلنا عليه في اسبار اوغاريت وحفريات سهل العمق وحفريات حماة . ولكن ، في هذه الافاق الاثرية كلها، لا يوجد ـ اثريا ـ مايوازي تل مرديخ الذي يبقى ، وربما لوقت طويل ، خير مصدر لنا عن الثقافة المادية والفكرية في سورية الشمالية خلال النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد . ومع ذلك فان ثمة مسألة تتطلب الحل وهي عدم وجود سابقات معروفة حتى الان تسهل معرفة اصول العمارة وفن التخطيط المدني في ابلا . ويتساءل المرء اين نشأ وتطور ما يسمى لدى الاستاذ ماتييه بالمفهوم السوري لعمارة القصر في ابلا ؟(١٣) وهل نأمل ان نجد النموذج الاقدم لهذا القصر في اكروبول المدينة نفسه ؟، أم يجب ان نفتش عنه فيمكان آخر ؟(١٤).

* * *

وتبقى اخيرا نقاط اخرى نأمل ان نجد جوابا لها في معاول المنقبين بتل مرديخ ، وعلى راس تلك النقاط معرفة ابلا بشكل افضل خلال عصر البرونز في اطواره الاول والثاني والثالث ، والفترة ما بين احتلال المدينة من قبل نارمسين ، وتأسيس السلطة الامورية في ابلا . ثم اننا نتمنى ان نصل الى صورة اكثر واقعية لابلا التي احتلها تحوتمس الثالث (١٥). وليس هذا من قبل الامل فحسب ، لان تل مرديخ ـ ابلا عودتنا على المفاجات الاثرية الطيبة . فما كاد العالم يستفيق من مفاجأة المحفوظات الملكية حتى بهرته روعة التحف الامورية(٦) في قبور الامراء ، في قصر الالف الثاني .

وختاما ، فان ابلا التي يرى فيها البعض امبراطورية منقوشة على الطين (١٧) ، هي بالنسبة للعالم الاثري نبع اثري لاينضب معينه .

* * *

الحواشي :

(١) هذا الامر معترف به دوليا . وقد نوه به العالم المنصف ر.بيغس في مقاله الشهير عن ابــلا ورقمها راجع :
R. BIGGS, The Ebla Tablets, Biblical Archaeologist, 43/2, Spring 1980, P. 85.

(٢) وثمة عهود اخرى في الطبقات العليا من عصر الحديد ، وحتى من العصور الرومانية والبيزنطيةوالعربية الاسلامية ، اذ نجد كتابات اموية تذكارية منقوشة على جدران البوابة الجنوبية الغربية .

(٣) P. MATTHIAE, Le palais royal et les archives d'état d'Ebla proto-syrienne, Akkadica 2, Mars/Avril 1977, p.3.

(٤) على ان هذا المصطلح الخاص بسورية يحتاج لبعض لتعديل وقد نعود له في مناسبة اخرى .

(٥) G . SCANDONE - MATTIHAE , Vasi inscritti di Chefren e Pepi I nel Palazzo Reale (G) di Ebla, « Studi Eblaïti», I. 3/4, p.33-43.

(٦) في راي ليبنسكي ان مكتشفات تل مرديخ تلائم التقويم القريب . راجع مقاله في المجلة التالية :
« Akkadica », 14, (1979), p. 46-47.

(٧) راجع على سبيل المثال :
G. BUCCELLATI and M. KELLY BUCCELLATI, « Syro-Mesopotamien Studies.», (May 1977) p. 1 - 2.

(٨) ومن ذلك ان الاثر الاكادي واضح في أعمال النحت والمنقوشات الابلية (العمائم « والبروكات » والوجوه وتنزيل العيون ، وكذلك مواضيع الاختام الاسطوانية) .

(٩) راجع :
A. ARCHI, Ebla according to tests.

وهو عنوان محاضرة القاها في حلب عام ١٩٧٨

(١٠) A. ARCHI, Notes on Eblaite Geography, « Studi Eblaiti», II/1, 1980
H. KLENGEL, the Archives of Ebla and Syrian History, Problems and Effects, colloquium on Ebla, Roma, May, 1980.

(١٠) مثال ذلك ما ذهب اليه بيتناتو في مؤلفه التالي :
G. PETTINATO, Ebla, Un impero incisa nell argilla, Milano 1979, p. 111.

(١١) مثل ذلك المؤلف التالي الذي يجعل من ابلا دولة مدنية صغيرة فحسب :
CH. BARMANT und M. WEITZMANN, Ebla, Neu entdeckte Zivilisation jn alten Orient, Frankfurt, 1979, p. 136.

(١٢) راجع دليل معرض آثار الفرات (حلب ١٩٧٤)، والحوليات الاثرية العربية السورية (العدد ٢٥) ومجلة AASOR الامريكية ـ عدد ٤٤ عام ١٩٧٧ ـ وأبحـاث ندوة آثـار الفـرات الاوسـط (ستراسبورغ ١٩٨٠) .

(١٣) P. MATTHIAE, « akkadica », 2, p. 9.

(١٤) يقول روبرت بريدوود منقب سهل العمق ليس لدينا دليل واحد من حفريات حماه وسهل العمق على وجود هندسة معمارية في سورية في طور حماه (I) والعمق (I,J) راجع مؤلفه :
Plain of Antioch, I'p. 533.

(١٥) حاليا تعتقد البعثة الايطالية انها كانت في ذلك الوقت حقلا من الاطلال مع بعض مساكن على الاكروبول راجع :
P. MATTHIAE, Akkadica, 2, 1977, p. 4.

(١٦) P.MATTHIAE, Two Princely tombs at tell Mardikh-Ebla, «Archaeology» vol. 33/2 (1980) p. 9s.

(١٧) اشارة الى كتاب بيتناتو ابلا أمبراطورية منقوشة على الطين المذكور في الحاشية رقم ١٠ من هذا المقال.

* * *

المشرق الاسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة
«عصر الفارابي»

د. نقولا زيادة

المقدمــة

(١)

يكاد يجمع الباحثون المحدثون(١) ، استنادا الى الروايات التي وصلتنا من القدامى(٢)، فيما يتعلق بحياة الفارابي ، على الامور الاتية :

أولا ــ ان الذي نعرفه عن حياة هذا الفيلسوف ، بالنسبة الى مكانته العلمية وأثره في نطور الفكر العربي الاسلامي ، ضئيل جدا . فالرجل لم يخلف لنا ترجمـة لحياته ، والذي رواه القدامى ضئيل جدا .

ثانيا ــ اسمه محمد وكنيته ابو نصر ولقبه الفارابي . أما تسلسل اسماء ابائه ففيه خلاف .

ثالثا ــ ولد في مدينة وسيج (٣) من اعمال فاراب ، ومن هنا جاء لقبه . فهو تركي عنصرا .

رابعا ــ توفي الفارابي في دمشق سنة ٣٣٩ (٩٥٠ ــ ٩٥١) وقد ناهز ثمانين سنة ، فيكون مولده اذن حول سنة ٢٥٩ (٨٧٢-٨٧٣) .

خامسا ــ ان الفارابي دخل بغداد حول سنة ٣١٠ هـ ، وكان يومئذ يناهز الخمسين(٤) .

سادسا ــ قضى الفارابي نحو عشرين سنة في بغداد ، وفيها وضع اكثر كتبه ، وانتقل سنة ٣٣٠ (٩٤١ ــ ٩٤٢) الى بلاط سيف الدولة الحمداني . ومـن ذلك الوقت ، الى حين وفاته ، كان كثير التنقــل والسفر . فــزار مصر (؟) ودمشق وغيرهما .

---

* بحث مقدم الى مهرجان الفارابي ببغداد .

سابعا ــ كان الفارابي يعيش عالمه الخاص ، بعيدا عن الاضواء . فلا اتصل ببلاط ، ولا عمل عند سلطان .

وهذا القليل يترك امامنا مجالا لعدد كبير من الاسئلة :

١ ــ ما الذي تعلمه الفارابي قبل دخوله بغداد واين تعلمه ؟ فالذي يجمع عليه قدامى الرواة انه دخل بغداد وهو يعرف التركية والفارسية . ثم يختلفون في قضية معرفته العربية . فهل **تعلمها** في بغداد ام انه **اتقنها** في العاصمة العباسية ؟ ليس من المعقول ان يعيش الفارابي خمسين سنة دون ان يثقف نفسه ، والرجل لم يدخل بغداد الا وقد اتصل بالكثير من شؤون المعرفة . والمعرفة ، في ذلك الوقت ، كانت العربية سبيل الحصول عليها . فنحن نأخذ بالرأي القائل بان الرجل كان يعرف العربية **متعلما** قبل دخوله بغداد ، ولكن الذي تم له في العاصمة العباسية هو اتقان العربية لاستعمالها **معلما ومؤلفا** . وثمة فرق بين الامرين .

٢ ــ هل من الممكن تحديد الاماكن التي استقى فيها الفارابي معارفه قبل وصوله بغداد ؟ اذا كان الفارابي ولد في فاراب في حوض نهر سيحون (سرداريا) ، وتنقل حتى وصل بغداد ، فالمنطقة التي تنقل فيها تشمل رقعة واسعة تمتد من بلده ، عبر ما وراء النهر وفارس . وقدكان في هذه الرقعة مدن مختلفة فيها مدارس وشيوخ ومدرسون .

٣ ــ من هم شيوخ الفارابي واساتذته في هذه المنطقة وفترة العقود الاولى من حياته ؟ ولا شك ان الاجابة على هذا السؤال صعبة ، ان لم تكن مستحيلة ، على اساس ما بين أيدينا من المصادر .

وفي سبيل محاولة توضيح بعض الامور المتعلقة بالسؤال الثاني اولا ، والسؤال الاول ثانيا ، نود ان ندرس عصر الفارابي زمانا ومكانا ، أي من ناحيتيه التاريخية والجغرافية . ونحن نستميح القراء العذر ان نحن اطلنا في ذلك . اذ لابد من التعرف الى المنطقة والفترة والمجتمع (او المجتمعات) التي عاصرها الفارابي ، ولا نشك في انه اتصل بها .

ولنبادر الى القول بان المنطقة التي تعنينا بشكل خاص بادىء بدء هي التي سماها الجغرافيون العرب ما وراء النهر وخراسان ، والتي تضم اليوم جمهوريات ازبكستان وتركمنستان وخزكستان في الاتحاد السوفييتي ، والجزء الغربي من افغانستان ، والجزء الشرقي من ايران .

القســم الاول

(٢)

تكون المنطقة التي حددنا رقعة اتصال بين الشرق (الصين والهند) والغرب (من ايران الى البحر المتوسط) وبين الشمال ، حيث كانت تقوم قبائل رحل متنقلة هي التي اطلق عليها الترك والمغول (وثمة اجزاء منها لا تزال كذلك) والجنوب الذي غلبت عليه ، منذ الاف السنين ، حياة مستقرة مدنية . واذا كان سكان الشمال يعتمدون الرعي أساسا لمعيشتهم ، فقد كان سكان الجنوب يرتكزون على الزراعة في ذلك . وقد كان لكل من الفريقين صناعاته الخاصة به .

وبسبب من وقوع هذه المنطقة في مركز الاتصال ، فقد كانت دوما على الطريق ، وكانت التجارة تعبرها من جميع الجهات . ومع التجارة كانت تنتقل عناصر حضارية مختلفة .

الا أن التجارة لم تكن السبيل الوحيد لنقل العناصر الحضارية . ذلك ان الدول والامبراطوريات التي قامت في الرقعة الكبيرة الممتدة من البحر المتوسط الى تخوم هندكوش والبامير ، ومن الخليج العربي الى بحري قزوين (الخزر) وآرال ، هذه الدول والامبراطوريات كانت عاملا قويا في توسيع رقعة الحضارة ، حتى قبل قيام الدولة العربية الاسلامية .

ولسنا نريد ان نوغل في مجاهل التاريخ القديم جدا ، اذ لا حاجة بنا الى ذلك . والذي نريد ان نفعله هنا هو ان نضع امام القارىء جدولا تاريخيا بالدول التي كان لها تأثير في المنطقة ، ثم ننتقل بعد ذلك الى تتبع ما عرفته المنطقة من تطور حضاري نتيجة لقيام هذه الدول وما حملته معها الى المنطقة ومنها .

١ ـ والدولة الاولى الحرية بعنايتنا هي الامبراطورية الفارسية القديمة التي قامت في اواسط القرن السادس واستمرت الى اواخر الرابع ق.م لما قضى عليها الاسكندر . وقد شملت رقعة هذه الدولة ايران الحالية وجزءا من افغانستان اليوم ومنطقة ما وراء النهر (نهر جيحون او اموداريا) ، هذا فضلا عن ان هذه الدولة شملت ارض الرافدين وديار الشام ووادي النيل غربا .

٢ ـ توغل الاسكندر ، بعد قضائه على امبراطورية الفرس ، في منطقة ما وراء النهر (٣٣٠ ـ ٣٣٧ ق.م) وكان من جراء ذلك أن ضمت تلك الارجاء القاصية الى

امبراطوريته ، التي توزعها بعده خلفاؤه ، فكانت المنطقة التي يهمنا امرها الان جزءا من الامبراطورية التي اقامها سلوقس سنة ٣١٢ ق.م ، بعد نزاع طال امده بين خلفاء الاسكندر ، والتي امتدت من المتوسط الى حدود الهند. الا ان هذه الامبراطورية الواسعة خرج عنها ، مما يهمنا امره ، جزءان ، أولهما بارثيا (او فرثيا)التي نشأت عنها دولة الفرثيين القوية (٢٥٠ ق.م ــ الى ٢٢٦ م) والتي حكمت اخيرا ايران وبلاد الرافدين وكانت عاصمتها اصلا نيسا (هيكاتومبوليس ؟) واخيرا ضمت دولتهم منطقة الصغد من ما وراء النهر . وانتقلت العاصمة فيما بعد الى مكان على مقربة من المدائن . اما الجزء الثاني فقد كان بكتريا ، التي ظلت اغريقية عرشا وادارة ، التي شملت المنطقة الممتدة من مرو الى البامير ومن سمرقند الى هندكوش . وهذه الدولة ظهرت ايضا سنة ٢٥٠ ق.م الا ان امرها انتهى حول سنة ١٤٠ ق.م . وكانت بكترا (بلخ) عاصمة هذه الدولة .

(٣) كان الدور الان للمنطقة الشمالية الشرقية التي دفعت بجماعات من رعاتها المعروفين باسم يوي ــ تشي (Yue-che) جنوبا ، وكان نتيجة هذه التحركات المتتابعة القضاء على دولة بكتريا حول سنة ١٤٠ ق.م ومع توزع هذه الجماعات في جهات مختلفة قامت دولة كوشان التي بلغت ذروتها في القرنين الاولين للميلاد ، وكان اكبر ملوكها كاشنكا (١٢٠ ــ ١٤٠ م) .

(٤) بين سنتي ٢٢٦ و ٦٤٢ م سيطرت الدولة الساسانية على المنطقة الممتدة من ارض الرافدين الى حدود افغانستان ونهر سيحون (سرداريا) . وقد قام الهطل (Hephthalites) ، وهم قبائل من الترك والمغول الشرقيين بالهجوم على الجزء الشرقي من الامبراطورية واسسوا لانفسهم دولة على شيء من المنعة (اواسط القرن الخامس) الا ان جماعة من الاتراك الغربيين هاجمتهم من الشمال ، والساسانين اعادوا عليهم الكرة من الغرب ، فقضوا عليهم . لكن الاتراك الان اقاموا لانفسهم ملكا فيما وراء النهر .

هذه هي التجربة التاريخية العسكرية السياسية التي مرت على المنطقة المعني بها الان في الاثني عشر قرنا التي سبقت الفتح العربي لتلك الجهات(٥) .

(٣)

الا ان المهم ليس ما تم هناك من حروب وقتال وقيام دول وذهابها ومعاهدات ومحالفات . المهم في رأينا هو التجربة الحضارية التي عرفتها المنطقة في هذا الزمن المديد . وهذا ما نود ان نعرض له الساعة .

اولا : تذكر النقوش التي خلفها دارا الكبير على المباني التي شادها في سوسة عاصمة ملكه على انه جلب الذهب من بكتريا واللازورد والعقيق الاحمر من بـلاد الصغد والفيروز من خوارزم . وهذا دليل واحد فقط على مدى الاهتمام بالتجارة ــ ونقصد التجارة البرية الشرقية ــ الذي نجده عند الفرس القدماء . وكان معنى ذلك الاهتمام بالطرق ايضا . ففي حدود الامبراطورية نفسها كان ثمة « الطريق الملكي » الممتد من افسس ، في غرب اسية الصغرى ، الى سوسة والذي بلغ طوله نحو ٢٥٠٠ من الكيلومترات ، والطريق الاطول الذي كان يصل بابل بهمدان (اكبتانا) وكابل (هذا بالاضافة الى طرق ثانوية) والطريقان الرئيسيان كانا يصلان الامبراطورية الفارسية بالطرق الشرقية الى الهند من جهة ، والى مناطق حوض تاريم (والصين) . وكانت السلطة المركزية ، على الاقل في ايام بعض ملوك تلك الاسرة ، قوية منظمة : فقد كان ثمة مفتشون ينتقلون الى الولايات المختلفة للاطلاع على الادارة والمحافظة على الطرق ومراقبة الاعمال والمشاريع المختلفة .

وحري بالذكر ان التجارة الخارجية الفارسية ــ شرقا وشمالا ــ كانت واسعة ومنوعة . فالمتاجر المختلفة كالخيول والجمال والابقار والصوف والجلود كانت تصل ايران عبر المنطقة التي يعنينا امرها . ولعل النحاس وامورا اخرى كانت تنقل من ايران الى المنطقة المذكورة . ومن المرجح ان الحرير كان معروفا في ايران في القرن الخامس ق.م . ومعنى هذا وجود تبادل تجاري مع الصين .

ثانيا : كان ثمة اهتمام بالمشاريع الزراعية . ولعل اهم ما نقله الفرس القدامى الى شرق الامبراطورية وولاياتها الشرقية الشمالية هي القنى المحفورة في جـوف الارض (وتسمى واحدتها قناة او كارز) . وهذه القنى ، فضلا عن انها قد تنقل المياه ، فانها تسمح للتربة الكلسية ان ترشح المياه منها بشكل بطيء ثم تتجمع ، او تنضم الى المياه الاخرى ، وتصبح كسبا للزراعة والزراع .

يضاف الى ذلك أن الامبراطورية القديمة قامت بدور انتقال النباتات مـن الشرق الى الغرب . ومع ان القضية لم تدرس بشكلها النهائي ، فان الباحثين يؤكدون مثلا على ان الدراق والمشمش وصلا الاصقاع الايرانية ، في طريق انتقالهما مـن الصين ، في ايام دارا الكبير . ويبدو ان الارز وصل حتى بلاد الشام قبل وصول حملة الاسكندر اليها ، وان نقله من مشارف الهند الى هذه المناطق هو من عمـل الامبراطورية ، كما ان انتاج الفستق نقل الى حلب ، والسمسم حملت زراعته الى مصر . ولعل الدجاجة والطاووس يعود وصولهما الى الغرب الى هذه الامبراطورية .

ومما هو هام جدا هو أن الفرس القدامى نقلوا عن مملكة ليديا (في اسية الصغرى) سك النقود . وهذا الامر اتاح لهم ادخال عنصر النقد في الاقتصاد ، سواء كان ذلك في دفع الضرائب ام في التبادل التجاري . وهذا ، بدوره ، شجع الصيرفة . ومما هو جدير بالاهتمام هو ان الامبراطورية الفارسية القديمة ، باتصالاتها التجاريةالمختلفة الاتجاهات والنشاطات ، شجعت لا التجارة في السلع الثمينة فحسب ـ مثل البخور العربي والحرير الصيني والكتان المصري والبهارات والطيوب الهندية ـ بل انها فتحت الابواب الواسعة امام المتاجرة في الاشياء التي يحتاج اليها الناس عادة مثل الحبوب والاقمشة الرخيصة والفخار (٦) .

ثالثا : كان احتلال الاسكندر للمنطقة التي تعنينا وقيام دولة يونانية ـ بكترية ودولة سلوقية ، مدعاة لانتقال الحضارة اليونانية وما فيها من اراء وفنون الى تلك المنطقة . ولا بد من ان نذكر انالاسكندر انشأ عددا من المدن في الجهات التي فتحها منها الاسكندرية في اريانا (اريجانا) (هراة فيما بعد) والاسكندرية التي اقامها على نهر سيحون (سرداريا او جكسارتس) . وتبع خلفاؤه سنته في انشاء المدن . وقد ذكر بارتولد ان المدن التي حملت اسماء الاسكندر وانطيوخوس وسلوقس وغيرهم كثيرة . فهناك انطاكية شمالي سرادريا (سيحون) ومدينتان بنفس الاسم في حوض مرغاب وهما اللتان أصبح اسمهما فيما بعد مرو الروذ ومرو الشاهجان(٧) . وهذه المدن كان سكانها يتألفون ـ بالاضافة الى من قد يقطنها من اهل البلاد الاصليين ـ من اليونانيين الذين كانوا يرافقون الجيوش اليونانية (ايام الاسكندر وخلفائه) والجماعات اليونانية التي نقلها الاسكندر من مصر واسية الصغرى الى تلك الجهات ومن التجار اليونان الذين ساروا على خطى رجال الحرب ليفيدوا من وجودهم هناك . وفي ايام الدولة الساسانية كان الاسرى من الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) يوزعون على المدن هذه وغيرها .

في هذه المدن الحديثة ، وفي سواها من المدن القديمة ، تطورت الصناعات بدافع مما حملته الحضارة الهلينية الى تلك الجهات . واصبح الفن تظهر فيه مؤثرات يونانية ، حتى في بلاد ما وراء النهر(٨) .

رابعا : نعرف من رحلة تشانغ تشئين (Chang Ch'ien) التي قام بها في عهد وو-تي امبراطور الصين (١٤٠ ـ ٨٧ ق.م) ومن الحملات التي ارسلها هذا الملك لتأمين الحصول على خيول فرغانة اللازمة لجيوشه امورا أهمها : ان الاتصال بين الصين الشمالية وشمال ايران كان معروفا وان كان الطريق غير مضمون دائما . وهذا الطريق كان يبدأ من شمال الصين وبعد ان يجتاز مدينة انسي كان يتفرع

الى طريق شمالي واخر جنوبي . وهذا كان ضروريا لتجنب صحراء تكلا مكان . فالشمالي كان يمر بواحات اهمها طرفان وكوشا حتى يصل كشغر ، والجنوبي كان يمر براحات نيا وخوطان ويركند الى كشغر . اما التفرع بعد كشغر الى الغـرب فكان يصل الى الكثير من مدن ايران وارض الرافدين . وهذا الطريق ، مع زيادة في المراكز والمحطات ، واهتمام اصحاب الامر به ، ظل المحور الرئيسي للتجارة بين الصين وما وراء النهر وخراسان حتى مطلع القرون الحديثة(٩) .

خامسا : في ايام الدولة الفرثية ظهرت امور هامة تتعلق بالكتابة والادب كان لها تأثير في الحياة الثقافية في المنطقة . فقد كانت الارامية مستعملة في الامبراطورية الفارسية القديمة منذ القرن الخامس ق.م ، الى جانب كتابة ايرانية حروفها مأخوذة عن الارامية (اما مباشرة او بالوساطة) . مع مجيء الاسكندر واليونان انتشـرت اللغة اليونانية (والقانون اليوناني) في كثير من المدن . واستمرت اللغة اليونانية لغة رسمية ، للنقوش والنقود وغير ذلك ، في ايام الفرثيين . ومن هنا كان ثمـة اثر يوناني مباشر في الحياة الادبية . واذا تذكرنا ان الزرادشتية يعود ظهورها الـى ايام هذه الدولة ، كان معنى هذا تمازج في الاداب الدينية المعروفة والمتلاحمة في تلك المنطقة ، البوذية والزرادشتية والاساطير اليونانية واخبار الابطال الاسطوريين مـن شمال ايران نفسها وغيرها . وكل هذا كان ينقله الشاعر ــ المغني(١٠) .

سادسا : في ايام دولة بني ساسان كان ثمة احياء وتقوية وتنظيم للتجـارة عن طريق تحسين الطرق القديمة وزيادة الخانات (الفنادق) في الطرق والعنايـة بالابار وتجميع المياه واقامة مراكز التعشير اي المراكز الجمركية . فضلا عن ان الساسانيين وضعوا حدا ، ولو موقتا ، للهجوم الشمالي وبذلك حافظوا على الامن ، وهذا يسر للتجارة الجو المناسب(١١) .

وما دمنا نشير الى العمران الساساني ، فلنذكر ان اردشير وشابور ، وهما اول ملكين من الاسرة الجديدة ، كانا شديدي الاهتمام بتمصير المدن . وقد عدد فراي سبعا وثلاثين مدينة في الامبراطورية الساسانية بنيت او عمرت او وسعت او اصلحت او سورت في عهدهما(١٢) . وكان الملك الثاني ، شابور ، قد انتصر على الرومـان مرات ، وكان يبعث بالاسرى لاستيطان المدن والاهتمام بها عمارة وفنا وتسويرا .

سابعا : يبدو ان البوذية وصلت الصين في القرن الاول الميلادي ، وزاد انتشارها مع الزمن ، بحيث ان الكثرة من السكان كانت ، في القرن الرابع ، تدين بالبوذية . وقد ظل اتباعها يعتبرون الهند المحجة الروحية لهم . ولابد ان كثيرين من بوذيي

الصين زاروا الهند للتزود بالكتب المخطوطة واثار كبار البوذيين ، لكن الزمن حفظ لنا روايتين لرحالين صينيين زارا الهند . اولهما فا ــ هسين (Fa-hsien) الذي بدأ رحلته سنة ٣٩٩ م والثاني هو هسوان ــ تسانغ (Hsuan-tsang)الذي بدأ برحلته سنة ٦٣١ م . ولسنا نوي هنا ان نتابع هذين الرحالين في تنقلهما ، فذلك أمر يطول ، ولكننا نود ان نشير الى بضعة امور مرتبطة بالحياة الثقافية في المنطقة التي نعنى بها الان(١٣) .

فمن ذلك ان المدارس التي تعنى بتعليم البوذية كانت متعددة ، ولم تقتصر على التعليم الديني بل كانت مراكز للرياضيات والفلك . وكانت الثقافة السنسكريتية عميقة الجذور في اماكن مختلفة (اوديانا في الهند وكوشا وكشغر) . وكان سكان خوطان يقدرون اهل المعرفة والبحث ويحبون الموسيقى(١٤) .

ويبدو انه كان في بخارى دير ــ مدرسة(١٥) .

أما الصناعات ، وخاصة ما يتعلق بالاقمشة على اختلاف انواعها وصناعة المعادن ، فقد بلغت حد الاعجاب عند رحالينا .

والذي نود ان نقوله هو ان هذه المنطقة كان قد مر عليها ، منذ قيام الدولة الفارسية الاولى حتى انقضاء دولة الساسانين تجارب حضارية هيأتها للقيام بدور هام كنقطة اتصال بين الصين وتركستان وايران والهند وما يجاور هذه كلها من بلاد وشعوب .

(٤)

نود ان نضع بين ايدي القراء ملاحظ مقتضبة تتعلق بالحياة الفكرية والثقافية في المنطقة . على ان هذا يقتضي ان تحمل امورا تتعلق بغرب ايران وارض الرافدين وبلاد الشام ، اذ ان الكثير مما عرف طريقه الى الشرق والشمال الشرقي من دولة الساسانيين كانت المناطق الغربية نقطة انطلاقه .

اولا : في الفترة الممتدة من القرن الرابع الى اواخر القرن السادس للميلاد كانت للاسكندرية مكانة خاصة في الحياة العلمية ، في الطب والفلسفة والرياضيات ، هذا فضلا عن نواح متعددة من اللاهوت المسيحي . وكان هناك مدرستان تشاركان الاسكندرية شيئا من مكانتها هما انطاكية وغزة . والمتعارف عليه ان المناهج التعليمية في انطاكية كانت ، بدءا من القرن الرابع ، تقليدا للمناهج الاسكندرية .

ثانيا : في القرن الرابع انشئت في نصيبين مدرستها الاولى التي كانت تعنى بالدراسات اللاهوتية . الا انه مما يجب ان يذكر دوما هو ان الدراسات اللاهوتية ، سواء في ذلك النسطورية او اليعقوبية ، كانت تعتمد نواحي من المنطق (والفلسفة) اليوناني في تفاسيرها وتلاحيها وجدلها . ومن ثم فقد كان هناك حركة ترجمة الى اللغة السريانية لما يحتاجه القوم من المنطق والفلسفة عند اليونان . هذه المدرسة مرت بها ، في اواخر القرن الرابع او اوائل القرن الخامس ، فترة ضعف ، بحيث اننا لا نرى الكثير من آثار معلميها العلمية . لكنها عاد اليها نشاطها في اواخر القرن الخامس . وظل علماؤها يشتغلون بالامور اللاهوتية والترجمة طوال القرن السادس وحتى الى القرن السابع .

ثالثا : كان في ادسا (الرها) مدرسة تعود الى القرن الرابع . وقد اصبحت هذه المدرسة منذ القرن الخامس مركزا علميا كبيرا لنشر المعرفة بحيث تخرج منها عدد كبير من الاساقفة والادباء والعلماء . وقد كان بعض اساتذة نصيبين قد انتقلوا اليها ايام تقهقر حالة هذه المدرسة الاخيرة . وفي هذه المدرسة ازدهر الادب السرياني من حيث انه ادب ترجمة وادب ديني وادب شعري ونثري فني واسطوري . الا ان هذه المدرسة ، التي كانت نسطورية في مذهبها الديني ، لم يرض عنها الاباطرة البزنطيون دوما . لذلك امر الامبراطور زينون باغلاقها (٤٨٩) . عندها هاجر اساتذتها الى نصيبين التي كانت تقع في الامبراطورية الساسانية . وتعتبر هجرة هؤلاء بمناسبة احياء فعال لمدرسة نصيبين على ما نجده في قوانينها الجديدة (٤٩٦). وهذه المدرسة ظلت تقوم بعملها العلمي الكبير حتى القرن السابع للميلاد . ومن هنا كانت الاسقفيات النسطورية المختلفة تزود باساقفتها ، كما كانت المدارس النسطورية في الدولة الساسانية تزود باساتذتها منها . وقد كان في مدرسة نصيبين في اواخر القرن السادس نحو ٨٠٠ تلميذ .

رابعا : ان المنازعات الدينية بين اليعاقبة والنساطرة كانت خيرا على الحركة العلمية في المراكز المختلفة . وكان للنساطرة نشاط تبشيري اقوى في الجهات الشرقية من الامبراطورية الساسانية . فقد كانت مرو منذ اواخر القرن الخامس مركزا لاسقفية نسطورية . وفي سنة ٥٤٠ عين ثيودور (النسطوري) اسقفا (أي مطرانا) لمرو . وكان في مرو اكاديمية علمية دينيــة ، مع مايقتضي ذلــك مــن الاهتمام بالعلوم الدنيوية المساعدة كالمنطق والفلسفة ، والنافعة كالطب والرياضيات . كذلك كان في كل من سلوقية وحران ومنبج وحمص مدرسة واحدةعلى الاقل . وقد انتشرت الثقافة اليونانية بين اهل حران حتى ان جيرانهم اطلقوا على مدينتهم اسم « هيلينوبولس » (ومعناه مدينة الهلينيين) ، وكان يقصد بذلك « المدينة الوثنية » .

خامسا : مع ان كسرى (٥٣١ ــ ٥٧٨) كان يشن الغارات والحروب ضد البيزنطيين ، فقد كان معجبا بالحضارة اليونانية الرومانية ، وكان حريصا كل الحرص على ان يدخلها الى بلاده فهو الذي استضاف سبعة من الفلاسفة اليونان لما اقفل جستنيان مدرسة اثينا سنة ٥٢٩ . (ولكن هؤلاء لم يألفوا الجو الجديد ففضلوا العودة الى بلادهم ٥٣٣) . الا ان ذلك لم يحل دون كسرى وتجديد السعي لانشاء اكاديمية يونانية الصبغة على غرار اكاديمية الاسكندرية في بلاده ، وانتهى به الامر الى انشاء اكاديمية جنديسابور . وقد نقل اليها المنهاج الاسكندري في الطب والرياضيات . ولعله من الممكن ان هذا المنهاج قد نقل اما عن مدرسة انطاكية او عن مدرسة حمص ، وكانت كلتاهما قد نقلتا منهاج الاسكندرية . على انه ليس ما يمنع من ان يكون النقل قد تم عن طريق العلماء الذين رحلوا من الاسكندرية الى بلاد الشام او ارض الرافدين . وحري بالذكر ان تعليم الطب في جنديسابور كان يقوم على الملاحظة العملية (السريرية) في المستشفى ، على النحو الذي انتشر فيما بعد في الدولة العربية الاسلامية .

سادسا : اشرنا من قبل الى وجود اكاديمية (مدرسة) نسطورية في مرو . ونود ان نشير هنا الى بعض المدن التي وصلتنا اخبارها واخبار مدارسها . فمنها ريشهر وشيز (في اريجانا او اريانا) . ويبدو ان الاولى كان فيها مكتبة ضخمة . وكانت بلخ مركزا دينيا كبيرا للبوذية وللزرادشتية ، مع ما يرافق ذلك من اديرة ومدارس ورهبنات وتعليم . وقد كان في مدينة خوارزم وما حولها زرادشتيون ومسيحيون نسطوريون اصلا (وان كان هناك بعض الارثوذكس) وبوذيون . ويرى الباحثون ، مما ذكره البيروني ، ان بقايا قوية من الحضارة الايرانية كانت تتناقل هناك ، وان كنا لم نحصل على آثار مكتوبة لها . وكانت بخارى في ايام الزرادشتيين تعتبر بانها « مثابة العلوم كلها » .

★ ★ ★

يتضح من هذا العرض المقتضب للتجربة السياسية والحضارية والثقافية التي بلتها المنطقة التي حددناها في مطلع هذا الحديث ، والتي كانت تشمل في المصطلح الجغرافي العربي خراسان (الشرقية) وبلاد ما وراء النهر ، بالمعنى الواسع لهذا التعبير ، انها ــ على العموم ــ كانت تفيد من حالات الاستقرار والامن ، فتقوم فيها المدن الكبرى ، وتنشط فيها الزراعة والصناعة والتجارة ، وتتعرف الى المنجزات الحضارية التي تصل اليها من الصين والهند والفرس واليونان ، وتتصل بالحركات الفكرية المرتبطة بالاديان التي انتشرت فيها كالبوذية والزرادشتية والمانوية والمسيحية وقد عرفت تيارات متنوعة . ومع انها كانت تتعرض كثيرا الى قيام دول من الشرق والشمال تطغى عليها ، او تهاجمها جماعات من رعاة السهوب الشمالية فتعزل بعض

اجزائها ، الا ان ذلك كله لم يمنع المؤثرات الخارجية ان تتوطن فيها وتنتج فنونـا وصناعات محلية متأثرة بالاتي من الخارج(١٦) .

(٥)

لما اتيح للعرب ان يفتحوا تلك البقاع وتستقر لهم دولة ، وينتشر الاسلام في اجزائها ، اصبحت تلك المنطقة جزءا من الدولة العربية الاسلامية ، واتسعت المجالات امامها تحيث استطاعت ان تسهم اسهاما كبيرا في المنجزات الحضارية الجديـدة . واصبح اتصالها بالاجزاء الغربية من الدولة الجديدة لا يحول دونه حائل . وعندئذ اصبح دورها ، كنقطة للاتصال مع الصين والهند ، اوسع مدى وابعد اثرا ، ومصرت فيها مدن جديدة ، كما عمرت مدن كانت قد تضررت بسـبـب الاحـداث المنوعة . وهذا هو ما نريد ان ننتقل الى الحديث عنه الان .

بعد معركة نهاوند (٦٤٢/٢١) انهارت المقاومة الساسانية المنظمة ، ووجـد يزدجرد (الثالث) آخر ملوك بني ساسان نفسه شريدا ، واقتصرت المقاومة للجيوش العربية على جيوب محلية ، لكنها لم تكن ، في غالب الاحيان ، شيئا يذكر . وقـد تم النصر الاولي في خراسان بسبب قيام جيشين عربيين اتجها نحو تلك المنطقة في وقت واحد . ففي سنة ٦٤٩/٢٩ سارت قوة من الكوفة بقيادة واليها سعيد بـن العاص متخذة طريق همذان والري قاصدة جرجان وخراسان ، كما خرجت في الوقت نفسه قوة من البصرة بقيادة اميرها عبد الله بن عامر متجهة الى واحة طبس عبر فرس وكرمان . وعلى يد هذين القائدين تم الاستيلاء على نيسابور وسرخس وطوس وهراة ومرو . وسار الربيع بن زياد الى سيستان (سجستان) واستولى عليها . ونجح الاحنف بن قيس في فتح بلخ .

الا ان الخلاف الذي نشب في الدولة بين سنتي ٣٥ و ٤٠ (٦٥٦ ــ ٦٦١) ادى الى التراجع من خراسان وضعف في السيطرة على الامور في تلك الجهات . على انه ما كاد معاوية يتولى الخلافة حتى عاد النشاط هناك الى ما كان عليه . ولما ولي زياد بن ابي سفيان البصرة ، قسم خراسان الى اربعة ارباع سمي كل منها باسـم المدينة الرئيسة فيه وهي : نيسابور وبلخ ومرو وهراة . ولما عين عبد الله بن زياد على خراسان عاد التقدم العربي الحربي الى سابق زخمه فجازت جيوش العـرب نهر جيحون (اموداريا ــ اكسوس) وتغلبوا على حاكم بخارى . وتذكر بعض الروايات ان امراة تسمى « خاتون » هي التي كانت تحكم المدينة يومها . واستمرت الغزوات

في ما وراء النهر بقيادة مسلم بن زياد (ولي الامر في سنة ٦٨١/٦١) فقاد حملات موفقة ضد خوارزم ، ثم وصل الى سمرقند .

وقد اضطرب امر الفتوح ايام الخلاف بين الخليفة عبد الملك وعبد الله بن الزبير (٦٤ – ٦٨٣/٧٣ – ٦٩٢) لان اثر الخلاف وصل الى القبائل العربية التي استقرت في خراسان . ومع ذلك فقد استولى موسى بن عبد الله على ترمذ على شاطىء جيحون الشمالي . فلما عاد السلام الى الدولة بعث الخليفة المهلب بن ابي صفرة الى خراسان الذي جاز النهر الى كش (شهرسابز) ونسف (نخشاب) . ولما توفي المهلب ولي ابنه يزيد مكانه . الا ان العمل الحربي المنظم في بلاد ما وراء النهر تم على يد قتيبة بن مسلم الذي تمكن من فتح المنطقة بشكل منظم ، وارسى الجند العربي في الشاش (طشقند) شمالي نهر سيحون (سرداريا – جاكسارتس) ومنها هاجم اسفيجاب . وفي الوقت ذاته استولى اخوه عبد الرحمن على دولة خوارزم . وقد قضى قتيبة نحبه في تلك الانحاء .

وقد توقف العمل العسكري هناك بعد وفاته ، وبدأت دعوة ابي مسلم تشغل الناس ، كما ان قبيلة من الاتراك تسمى ترغش قامت شمال نهر سيحون وقاومت الفتح العربي ، بل لعلها استرجعت اكثر المناطق الواقعة خلف نهر جيحون . لكن امور ترغش اضطربت . فلما ولي الامر نصر بن سيار (٧٣٧/١٢٠) استرجع المنطقة وفرض فيها النظام والامن .

وفي الوقت الذي كان ابو مسلم يعد الجيوش في خراسان ضد الامويين ، كانت قوى صينية تقاتل العرب في ما وراء النهر . لكن زياد بن صالح ، الذي تولى الحرب بعد قيام الدولة العباسية نجح في رد هؤلاء على اعقابهم وتغلب عليهم في معركة الطراز الفاصلة (٧٥١/١٣٤) ، بحيث لم يتدخلوا بعدها في شؤون ماوراء النهر . وقد كان من اثار هذه المعركة ان الاسرى الصينيين علموا اهل سمرقند صناعة الورق ، الذي شاع استعماله بعد ذلك بدل الرق والبردي .

على ان مما يلفت النظر ان هذه المنطقة التي نتحدث عنها كان حكام بعض اجزائها اول من انتزعوا السلطة محليا واداروا البلاد ادارة مستقلة ، ولو ان غالبهم ظلوا يعترفون بخلافة بغداد ولو اسميا .

وكان اول من اسس واحدة من هذه الدول طاهر بن الحسين الذي كان قائد جيش المأمون في خلافه مع اخيه الامين . فلما انتصر المأمون ولاه خراسان فانفرد بامرها . وحكمت هذه الدولة من سنة ٢٠٥ الى ٢٥٩ (٨٢١ – ٨٧٣) . وكانت

العاصمة اولا مرو ، لكنهم نقلوها فيما بعد الى نيسابور . وقد قلد الامراء الطاهريون عاصمة الخلافة فاتخذوا لهم بلاطا وشجعوا العلماء والشعراء .

وثمة دولة اخرى انشأها يعقوب بن ليث الصفار (٢٥٣/٨٦٧) في سجستان ودام امرها الى ٢٩٨ (٩١١) اذ استولى عليها السامانوين . اما ما حدث لامرائها بعد ذلك فليس يعنينا امره من الناحية السياسية . الا ان هؤلاء القوم كان منهـم من عني بالعلم والعلماء واشهرهم خلف بن احمد الملقب بولـي الـدولة (٣٥٢ — ٣٩٣/٩٦٣ — ١٠٠٣) .

على ان اهم الدول التي قامت في المنطقة التي نعنيها هي الدولـة السامانية (٢٠٤ — ٣٩٥/٨١٩ — ١٠٠٥) . وكانت بخارى عاصمتهم مركز طـرق القوافل الاسيوية ، وكعبة للعلم في تلك الديار .

لسنا نود ان نؤرخ للدول التي قامت في ظلال الخلافة العباسية ، فليس ذلك مما نعنى به الان . ولكن لابد من الاشارة الى دولة الحمدانيين وذلك لارتباط سيف الدولة بحياة الفارابي . والدولة الحمدانية كانت في الموصل اصلا ، لكن الذي يهمنا منها هو اقامتها في حلب (٣٣٣ — ٣٩٤/٩٤٥ — ١٠٠٤)(١٧) .

القســـم الثـــاني

ملاحـــظ تمهيديـــة

(٦)

قبل ان ننتقل الى وصف المنطقة جغرافيا واقتصاديا على ما كانت عليه في عصر الفارابي ، نود ان نضع النقاط التالية امام القراء .

اولا : الصورة التي ننوي ان ننقلها الان منتزعة اصلا من ثلاثة من الجغرافيين البلدانيين العرب وهم ، على ترتيب الزمن الذي صنفوا فيه ، الاصطخري صاحب كتاب « المسالك والممالك » (كتب بين ٣١٨ و ٣٢١/٩٣٠ و ٩٣٣) وابن حوقـل ، الذي وضع « صورة الارض » (الف كتابه في النصف الاول من القرن الرابع/العاشر) والمقدسي مؤلف « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » (٣٧٥/٩٨٣) . الا اننا لـن نغفل اولئك الذين سبقوهم من المسالكيين مثل ابن خرداذبه (تو حول ٢٧٢/٨٨٥) واليعقوبي (تو حول ٢٨٨/٨٩١) وابن رسته (تو بعد ٢٩٠/٩٠٣) وقدامة بن جعفر (تو بعد ٣١٠/٩٢٢) .

ثانيا : من الواضح ان ابن حوقل والمقدسي توفيا بعد الفارابي ، لكن المعلومات التي يقدمانها لنا فيها ما يعكس العقود الاولى من القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) ، اي انها معاصرة لبعض عقود من حياة المعلم الثاني .

ثالثا : الغاية من تفصيل الصورة الجغرافية الاقتصادية هو توضيح المنطقة التي ولد فيها الفارابي وعاش قبل ان يدخل بغداد . وسنرى ان مدنا كثيرة من هذه المنطقة كانت غنية ، اذ احتفظت بالكثير من التقاليد الزراعية والتجارية والصناعية القديمة التي سارت الى الامام حين استقرت امور الدولة العربية الاسلامية . كما ان هذه المدن احتفظت بتقاليدها من حيث الاهتمام بالعلم والثقافة ، وان كانت هذه ، بطبيعة الحال ، قد صبغت بالصبغة العربية الاسلامية ، بسبب انتشار الاسلام هناك .

رابعا : ستمر بنا ، في هذه الوصف الجغرافي ، فيما يتعلق بالمدن المذكورة هناك ، ان بعضا من تلك المدن الكبرى كانت تتكون ، من حيث طوبوغرافيتها ، من الاقسام التالية : المدينة والقهندز (القلعة) والربض . والاول هو المدينة الداخلية ، والثاني حصن المكان وقلعته والثالث ما يحيط بالاثنين (غالبا) ، وهو ضواحي المدينة . وقد يكون للمدينة سورها الخاص وللقهندز سور خاص ، وقد يحيط بالمدينة والقهندز والربض سور خارجي . وثمة عناصر ثلاثة هامة توجد في المدن وهي المسجد الجامع ودار الامارة (في الحواضر) والحبس . وهذه تكون في المدينة غالبا ، لكن الحبس قد يكون داخل دار الامارة(١٨) .

خامسا : البلدانيون الثلاثة لا يتفقون تماما على تحديد كل من خراسان وما وراء النهر . فالاصطخري وابن حوقل يعتبران بلاد الختل من خراسان(١٩) . فيما يعتبر المقدسي المنطقة كلها (اي خراسان وما وراء النهر) اقليما واحدا يسميه اقليم المشرق ، ويقسمه الى قسمين ، جانب هيطل (الختل) وجانب خراسان (٢٠) اما نحن فسنتحدث هنا عن المنطقة تحت عنوانين اولهما يتناول خراسان ، وثانيهما يتناول ما وراء النهر . وتجنبا للتكرار لن نعدد ما يدخل في كل منهما الان لكننا سنوفي ذلك حقه عندما نصل اليه .

خراسان في عصر الفارابي

(٧)

كانت خراسان في أيام ابن حوقل لال سامان ، وكان فيها ثلاثون عملا ونيف ، « وكل عمل منها لا يخلو من قاض وصاحب بريد وبندار وصاحب معونة . هذا الى

غير عمل من اعمالها فيه قضاة يتصرفون عن قاضي الناحية التي هو بها ، واصحاب اخبار وبرد ينهون اخبارهم الى صاحب ناحيتهم ، وجباة للخراج ... واعظم هـذه النواحي منزلة واكثرها جيشا وشحنة واجلها منزلة وجباية نيسابور ومرو وبلخ وهراة » . (٢١) وهذا التعيين يتفق مع ما مر بنا من ان خراسان قسمت اربعة ارباع ، كل ربع فيها سمي باسم المدينة الرئيسة فيه .

« ونيسابور (٢٢) مدينة في ارض سهلة ابنيتها من طين وهي كانت مفترشة البناء نحو فرسخ مثله ولها مدينة وقهندز وربض ، وقهندزها وربضها عامران ومسجد جامعها في ربضها بمكان يعرف بالمعسكر . ودار الامارة بمكان يعرف بميدان الحسين والحبس عند دارة الامارة . وبين الحبس ودار الامارة وبين المسجد الجامع نحـو ربع فرسخ ، ودار الامارة بها من بناء العاتي عمرو بن الليث ، ولقهندزها بابان وللمدينة اربعـة ابواب ، فاما اسواقها سوقان : احداهما تعرف بالمربعة الكبيرة والاخرى بالمربعة الصغيرة ... وفي خلال هذه الاسواق خانات وفنادق يسكنها التجار بالتجارات ، وفيها الخانبارات للبيع والشري . فيقصد كل فندق بما يعلم انه يغلب على اهلـه من انواع التجارة . وقل فندق منها لا يضاهي اكابر اسواق ذوي جنسه . ويسكن هذه الفنادق اهل اليسار ممن في ذلك الطريق من التجارة ، واهل البضائع الكبار والاموال الغزار . ولغير المياسير فنادق وخانات يسكنها اهل المهن وارباب الصنائع بالدكاكين المعمورة والحجر المسكونة والحوانيت المشحونة بالصناع : كالقلانسيين في سوقهم غير فندق فيه الحوانيت والحجر المملوؤة بهـم ، وكذلـك الاساكفـة والخرازون والحبالون الى غير ذلك في اضعاف اسواقهم الفنادق المملوؤة بذوي الصنائع منهم . واما فنادق البزازين وخانباراتهم بها وبيعهم فيها وشراهم فاكثرالبلدان يشركهم في ذلك ولا يقصرون عنهم . وشرب البلد ومياهه فاكثره من قنى تجري تحت مساكنهم وتظهر خارج البلد في ضياعهم ، ومنها قنى تظهر في البلد وتجرى في دورهم وبساتينهم بقصبة نيسابور . ولهم نهر كبير يعرف بوادي سغارذ ويجتمع اليه كثير من قنى البلد فيسقى منه بعض اجنة البلد ورساتيق كثيرة . وعلى هذا الوادي قوام وحفظة عليه وعلى قنيهم في عمق الارض ، وربما كان منها شيء بينه وبين وجه الارض مائة درجة ، ويزيد وينقص في نفس نيسابور . وليس بخراسان مدينة اصح هواء وافسح قضاء واشد عمارة وادوم تجارة واكثر سابلة واعظم قافلة من نيسابور . ويرتفع عنها من اصناف البز وفاخر ثياب القطن والقز ما ينقل الى سائر بلدان الاسلام ، وبعض بلدان الشرك لكثرته وجودته ، لايثار الملوك والرؤساء لكسوته اذ ليس يخرج من بلد ولا ناحية كجوهريته ولا يشاكله لرفعته وخاصيته ...

ولنيسابور حدود واسعة ورساتيق عامرة وفي ضمنها مدن معروفة .

وكانت دار الامارة بخراسان في قديم الايام بمرو وبلخ الى ايام الطاهرية فانهم نقلوها الى نيسابور ، فعمرت وكبرت وغزرت وعظمت اموالها عند توطنهم اياها وقطونهم بها ، حتى انتابها الكتاب والادباء بمقامهم بها وطرأ اليها العلماء والفقهاء عند ايثارهم لها ، وقد خرجت نيسابور من العلماء كثرة ونشأ بها على مر الايام من الفقهاء من شهر اسمه وسمق قدره وعلا ذكره .

« ومدينة مرو قديمة تعرف بمرو الشاهجان ازلية البناء . وهي في ارض مستوية بعيدة من الجبال فلا يرى منها جبل بالقرب وليس في شيء من حدودها جبل . وارضها سبخة كثيرة الرمال وابنيتها من طين . فيها ثلاثة مساجد للجمعات فاما اول مسجد اقيمت فيه الجمعة فمسجد بني داخل المدينة في اول الاسلام ، فلما كثر الاسلام بني المسجد المعروف بالمسجد العتيق على باب المدينة ويصلي فيه اصحاب الحديث ، وبني من بعد ذلك المسجد الذي على ماجان . ويقال ان ذلك المسجد والسوق ودار الامارة من بناء ابي مسلم . ودار الامارة على ظهر هذا المسجد . وفي هذه الدار قبة بناها ابو مسلم كان يجلس فيها وفيها يجلس امراء مرو(٢٣) . وبها قهندز خراب ومقداره مقدار مدينة وهو مرتفع وقد سيقت اليه قناة ماء يجري فيه الى يومنا هذا ، وربما زرع عليها مباقل ومباطخ وغير ذلك. فاما اسواقها فعلى قديم الايام كانت على باب المدينة جنب الجامع ، فنقلها ابو مسلم الى ماجان . وهي من انظف الاسواق واوجدها لسائر ما يحتاج اليه من ليل ونهار . ومصلى العيد في محلة رأس الميدان في مربعة ابي الجهم ويطوف به من جميع جوانبه ونواحيه البنيان والعمارات .. والبلد ارباع معروفة الحدود ولارباعه انهار معروفة فمنها نهر هرمزفرة وهو نهر عليه ابنية كثيرة من البلد وهو مما يلي سرخس . وللمدينة الداخلة اربعة ابواب ...

« ولمرو نهر عظيم تتشعب هذه الانهار منه وانهار الرساتيق عنه ومبتداه من وراء الباميان ، ويعرف بنهر مرغاب .. ومجرى هذا النهر على مرو الروذ وعليه ضياعهم .. ومقاسم الماء من زرق قرية بها مقسم ماء مرو . وقد جعل لكل محلة وسكة من هذا النهر ساقية صغيرة عليها الواح خشب فيها ثقب مقدرة لا يترك احد يزيد فيها ولا ينقص ، ويأتي كل قوم من شربهم بمقدار ان زاد الماء دخل عليهم الزيادة وان نقص نقصوا باجمعهم لا ايثار لقوم على قوم . ومتولي هذا الماء امير مفرد وهو اجل من والي المعونة بمرو . وبلغني انه يرتزق على هذا الماء زيادة على عشرة آلاف رجل لكل واحد منهم على هذا الماء عمل .

وكانت مرو معسكر الاسلام في اول الاسلام ومنها استقامت مملكة فارس

للمسلمين ... ويرتفع من مرو الابريسم والقز الكثير ، ويقال ان اصل الابريسم بجرجان وطبرستان على قديم الايام وقع من مرو . ومنها يرتفع القطن الذي ينسب في سائر الاقطان اليها جودته وهو الغاية في اللين ، والثياب التي تجهز منها الى كثير من البلاد . ولها منابر مضافة اليها وبرسمها . وبالسوسقان منبر وهذه منابر مضافة اليها ومدنها القريبة منها .

وأما هراة فهو اسم المدينة وكان عليها حصار وثيق ، وخارجها وداخلها مياه ومن داخلها القهندر ، ولها ربض والمسجد الجامع بها ودار الامارة خارج الحصن بمكان يعرف بخراسان اباذ منقطع عن المدينة . وبينها وبين المدينة نحو ثلث فرسخ على طريق بوسنج من غربي هراة ، وبناؤها من طين . والمدينة مقدار نصف فرسخ في مثله وكان لمدينتها الداخلية اربعة ابواب ... وعلى كل باب سوق وفي داخل المدينة والربض مياه جارية . وللحصن اربعة ابواب بحذاء كل باب من ابواب المدينة باب لهـذا الحصـن . وخـارج الحصـن جـدار يطـوف بالحصـن كلـه أطـول من قامة وكان بينهما اكثر من ثلاثين خطوة .. والمسجد الجامع في المدينة وحواليه الاسواق والسجن على ظهر قبلة مسجد الجامع . وليس بخراسان وما وراء النهر وسجستان والجبال مسجد عمر بالناس على دوام الايام من مسجد هراة ومسجد بلخ واليه مسجد سجستان ، فان بهذه المساجد كثرة من الفقهاء وزحمة من ارباب القرآن على رسم الشأم والثغور . وهي فرضة لخراسان وسجستان وفارس .

« والجبل من هراة على فرسخين على طريق بلخ ، ومحتطبهم من مفازة بينهم وبين اسفزار وليس لهذا الجبل محتطب ولا مرعى وانما يرتفقون منه بالحجارة للارحية والفرش وما اشبه ذلك وعلى راس هذا الجبل بيت نار يدعى سرشك وهو معمور ، وبينه وبين المدينة بيعة للنصارى وليس بينها وبين المدينة مياه ولا بساتين سوى نهر المدينة ، على باب المدينة ، فاذا عبرت القنطرة لم تر بعدها ماء ولا خضرة الى البلد . وعلى سائر الابواب والجهات مياه جارية وبساتين ..

« واكبر مدينة بنواحي هراة بعد هراة كروخ واوفه ، ويرتفع من كروخ الكشمش المجلوب الى الافاق والزبيب الطائفي المحمول الى العراق وسائر البلاد ومعظمه يرتفع من مالن . وكروخ مدينة قصدة واهلها شراة .. وبناؤها من طين وهي في شعب بين جبال مقدار عشرين فرسخا وجميعها مشتبكة البساتين والمياه والاشجار والغياض والقرى العامرة . واوفه اهل جماعة وهي نحو كروخ في القدر . ولها بساتين ومياه وبناؤها من طين ايضا . ومالن اصغر من كروخ وهي ايضا مشتبكة البساتين والمياه والاشجـار والكـروم عامـرة . وخيسـار قليلـة الاشجـار والميـاه ،

وهي اصغر من مالن واهلها اهل جماعة . واستربيان اهلها خوارج وهي اصغر من مالن ، ولها مياه وبساتينهم قليلة والغالب عليهم في غلاتهم الزروع دون الكروم وهي في جبال وعرة . وماراباذ فكثيرة البساتين والمياه وهي مدينة اصغر من مالن، ويرتفع منها ارز كثير يجلب الى النواحي ...

« واما بوسنج ففيها من المدن خركرد وفركرد وكره ، واكبرها بوسنج وهي مدينة نحو نصف هراة وهي وهراة في مستواة ، ومن بوسنج الى الجبل نحو فرسخين وهو الجبل الذي من هراة اليه فرسخان ، وبناؤهم من جبس وليس كبناء هراة ولهم مياه واشجار كثيرة . ولهم من اشجار العرعر ما ليس بجميع خراسان في بلد ويحمل هذا الخشب الى سائر النواحي . وماؤهم من نهر هراة وهو النهر الذي يجري الى سرخس وينقطع دون سرخس في اكثر الاوقات ، وينضب في الصيف ويصل اليها الماء في الشتاء فيمر في وسط البلد . ولبوسنج حصار وعليه خندق وله ثلاثة ابواب: فباب يعرف بباب علي يفضي الى طريق نيسابور ، وباب هراة يشرع الى هراة ، وباب قوهستان يأخذ الى قوهستان . واكبر المدن بها بعد بوسنج كوسرى وهي مدينة خصبة ولها ماء وبساتين قليلة ، وهي نحو الثلث من بوسنج وبناؤهم من طين . وخركرد لها ماء وبساتين كثيرة وهي اصغر من كوسرى . وفركرد اصغر من خركرد وماؤها الجاري قليل وهم اصحاب سوائم وليس لهم بساتين كثيرة . وكره لها بساتين ومياه كثيرة وهي نحو فركرد في الكبر .

وباذغيس بها من المدن جبل الفضة ...

« وكنج رستاق مدينتها بين ولها كيف وبغشور ، ومنها ابو منصور البغوي صاحب بريد نيسابور وايسر من بخراسان واكثرهم كتبا واحسنهم انشاء ، والكنهم بالعربية وافصحهم بالفارسية ، وهو اخطر من رأيت بخراسان واكثرهم صامتا وناطقا وتجارات وضياعا وكراعا واوثقهم عند سلطانه حكاية . وسلطان هذه الناحية مقيم ببين ، وهي اكبر هذه المدن ..

واما الغور فانها دار كفر وانما تذكر في الاسلام لان بها مسلمين ، وهي جبال عامرة ذات عيون وبساتين وانهار وهي حصينة منيعة وفي اوائلهم مما يلي المسلمين قوم يظهرون الاسلام وليسوا بمسلمين ... وجميع البلاد المطيفة به للمسلمين من جميع النواحي وليس في جميع بلد الاسلام ناحية كفر يشتمل على اقطارها وحدودها المسلمون غير الغور ، وهم في وسطهم (وقبائل برغواطه الذين بنواحي فاس والسوس وسجلماسة وماسة ، وهم قوم في زنقة من الارض يحيط بها البحر المحيط) . واكثر رقيق الغور

يقع الى هراة وسجستان ونواحيها . وتمتد جمال الغور في حدود خراسان وظاهر الباميان الى البنجهير حتى تدخل بلاد وخان وتمر في بلاد الترك على حدود الشاش الى خرخيز ، وهذا الجبل من اوله الى اخره معادن للفضة والذهب واغزر معادنـه ما قرب من خرخيز ومر على نواحي فرغانه واشروسنه ، ولو عمل لزاد على ما بالبنجهير . .

« واما سرخس فمدينة بين نيسابور ومرو وهي في ارض سهلة ، وليس بها ماء جار الا نهر يخرج اليهم فضله في بعض السنة ولا يدوم ماؤه ، وهو وفضل مياه هراة وزروع سرخس بخوس ، وهي مدينة تكون نحو نصف مرو عامرة صحيحة التربة ، والغالب بعد الزرع على نواحيها المراعي وهي قليلة القـرى ومعظم املاكهم الجمال والاغنام وهي مطرح لحمولات ما وراء النهر ، ومدن خراسان وماؤهم من ابار وارحيتهم على الدواب وليس بها طواحين الماء وجميع ابنيتهم من طين . ونسا مدينة خصبة كثيرة المياه والبساتين وهي في الكبر نحو سرخس ومياههم جارية في دورهم وسككهم وهي نزهة ولها رساتيق واسعة خصبة ، وهي في اضعاف جبال . وفراوه مدينة ثغر في وجه البرية على الغزية وهي منقطعة عن القرى وفيها منبر ويقيم بها المرابطون ، وهم عدد يسير الا انهم يرجعون الى عدة وافرة وينتابهم الناس للرباط عنهم ، وليس لهم قرية ولا يتصل بهم عمارة ولهم عين ماء يجري ومنها شربهم وممرها في وسط القرية ، وليس لهم بساتين ولا زرع ولا مباقل ويكونون دون الفرجل ذي بأس .

وبلخ مدينة يتصل بعملها طخيرستان والختـل وبنجهير وبذخشان واعمال الباميان وما يتصل بها ...

« واما بلخ فمدينة جليلة مثل مرو وهراة ، وهي في مستواة وبينها وبين اقرب الجبال اليها نحو اربعة فراسخ ، وهي بربضها نحو فرسخ في مثله وبناؤها الطين ولها ابواب فاشهرها : باب النوبهار وباب واخته وباب الحديد وباب الهندوان وباب اليهود وباب الشستمن وباب بختى ، وعليها سور يشرع منه هذه الابواب . وربضها حسن آخذ من شرقها وجنوبها وغربها وقد حف بها . ومسجد جامعها بالمدينة في وسطها واسواقها تحف بمسجد جامعها وهو مسجد معمور بالناس على مر الاوقات وتعاقب الايام والساعات . ولها نهر يدير عشر ارحية مارا على باب النوبهار ويسقى رساتيقها وتحتف بابوابها كلها البساتين والكروم . وسور المدينة من طين وهـي مدينة قديمة ازلية تجمع جميع التجارات وتقصد بالامتعة من سائر الجهات ، وفي اهلها علم ويغلب عليهم الادب ودقة النظر في الفقه والعلوم الغامضة وقد خرجت غير رئيس وعرف من اهلها غير نفيس .

وليس للباميان حصار وهي على جبل ويجري بين مدنها نهر كبير ويقع الى غرجستان ، وفواكههم تجلب اليهم وليس لهم بساتين وتنقل الثمار من ارسف وغيرها . وليس بنواحي الباميان مدينة على جبل سواها وجميعها ذوات انهار واشجار وثمار غزنة فانه ايضا لا بساتين بها ولا نهر . وليس بهذه النواحي والمدن التي هي في نواحي بلخ اكثر مالا وتجارة من غزنه لانها فرضة الهند ، وان كانت قد تغيرت في سنة خمس وخمسين ... ومدينة كابل مدينة لها قهندز موصوف بالتحصن والمنعة واليه طريق واحد وفيها المسلمون ولهم ربض فيه الكفار واليهود .. وهي ايضا فرضة للهند وطريقها سابل الى كل جهة لهم ويباع بها من النخيل في كل حول مما يعمل بقصبتها وسوادها دون الباقي منه بايدي التجار على ما يذكره تجارهم بالفي الف دينار وزائد . والذي شاهدت دون ذلك لاسباب جرت من الفتن بدخول الجيش مع الحاجب اليهم ، والخلاف بينه وبين الملوك المجاورين لها ومطالبتهم بما بعد عهد سلفهم به من الضرائب القديمة والكلف السالفة ، وجباية الاموال الجسيمة كالجزية عن رؤوسهم والاخرجة من بلادهم . ويرتفع من كابل ثياب من القطن حسنة يعمل منها السبنيات الفاخرة والشرابيات المثمنة وتخرج الى خراسان وتدخل الى الصين وتنبت بالسند واعمالها ، وبها معادن حديد كثيرة . وكابل جروم ولا نخيل بها ويقع في بعض نواحيها ثلج .

« ويرتفع من بلخ واعمالها في نفسها النوق المتقدمة على سائر ما في جنسها لصحة مراعيها وخلوص نتاجها والبخاتي التي بها فتختار ، غير ان بخت سمرقند اصلب واشد وابدن من نوق بلخ ولا نظير لها في جميع الارض . وبها الاترج الحسن الفائق الكباب والنينوفر وقصب السكر وما لا يكون الا بالبلدان الحارة الجرومية غير انه لا نخيل بها . وبها من انواع النواوير الحسنة المختلفة الاشكال الطيبة الارائيج والاصباغ ما ليس بكثير من الاماكن كهو . ويقع بها وفي نواحيها الثلوج العظيمة وهي من اكابر بلاد الصرود ويجمد بها الماء .

« واكثر السوائم بخراسان من الابل بناحية سرخس وبلخ ، واما الغنم فاكثرها ما يجلب اليهم من بلاد الغزية ومن الغور والخلج . وبخراسان من الدواب والرقيق والاطعمة والملبوس مما يحتاج الناس اليه ما يسعهم ينقل الى سائر الاقطار عنهم . واما الدواب فانفسها ما يقع من نواحي بلخ ، وانفس الرقيق ما يقع من بلاد الترك ولا نظير لرقيق الترك في جميع رقيق الارض ، ولا يدانيه في القيمة والحسن . وغير غلام رأيته قد بيع بخراسان بثلاثة آلاف دينار ، وتبلغ عندهم الجارية التركية ثلاثة الاف دينار ، ولم ار بجميع اقطار الارض من الرقيق ما بلغ هذه القيمة من غلام ولا جارية رومية ولا مولدة ، ولا سمع في خبر ولا اثر الا ما كان معه آلة السماع مع

الحذق البارع والاداء الصحيح ، ومن هذا الجنس كثير في دور آل سامان وعنـد الجلة والقواد من اهل خراسان . وانفس ثياب القطن والابريسم ما يرتفع مـن نيسابور ومرو . واخير لحمان الغنم والذه ما يجلب من بلاد الغزية ، واعذب المياه عندي واخفها ماء جيحون وذلك ان البرد يسرع اليه والحم في اقرب وقت من الزمان. وايسر اهل خراسان اهل نيسابور ، وانجب بلدان خراسان اهل بلخ ومرو في الفقه والدين والنظر والكلام ، وازكى اراضي خراسان سقي نيسابور والاعداء ما بيـن هراة ومرو الروذ . وليس بخراسان جروم الا ما كان بناحية قوهستان فيما يلي فارس وكرمان واشدها بردا وثلوجا نواحي الباميان .

ما وراء النهر في عصر الفارابي

(٨)

الجزء الذي اطلقنا عليه ، متبعين في ذلك بعض الجغرافيين البلدانيين ، مـا وراء النهر من المنطقة التي نعنى بدرسها . يشمل ، نهر جيحون وما عليه وخـوارزم والصغد (السغد) واقاليم نهر سيحون .

وحدود ما وراء النهر وميزات الاقليم فقد ذكرها الاصطخري بقوله :

« واما ما وراء النهر(٢٤) فيحيط به من شرقيه : فامر وراشت ، ومـا يتاخم الختل من ارض الهند على خط مستقيم ، وغربيه بلاد الغزية والخرلخية من حـد طراز ، ممتدا على التقويس حتى ينتهى الى فاراب وبيسكند وسغد سمرقند ونواحي بخارى الى خوارزم ، حتى ينتهي الى بحيرتها (بحيرة ارال) ، وشماليه التـرك الخرلخية من اقصى بلد فرغانة الى الطراز على خط مستقيم ، وجنوبيه نهر جيحون من لدن بذخشان الى بحيرة خوارزم على خط مستقيم ، وجعلنا خوارزم والختـل في ما وراء النهر لان الختل بين نهر جرياب ووخشاب ، وعمود جيحون جرياب ، وما دونه من وراء النهر . وخوارزم مدينتها وراء النهر ، وهي الى مدن ما وراء النهر اقـرب منها الى مـدن خراسان .

« ما وراء النهر من اخصب اقاليم الاسلام وانزهها واكثرها خيرا ، واهلها يرجعون الى رغبة في الخير ، واستجابة لمن دعاهم اليه ، مع قلة غائلة وسلامة ناحية ، وسماحة بما ملكت ايديهم ، مع شدة شوكة ومنعة وبأس وعدة وآلة وكراع وسلاح ، فاما الخصب بها فانه ليس من اقليم ذكرناه الا يقحط اهله مرارا قبل ان يقحـط

ماوراء النهر ، ثم ان اصيبوا ببرد او جراد او آفة تأتي على زروعهم ففي فضل ما يسلم في عرض بلادهم ما يقوم باودهم ، حتى يستغنوا عن نقل شيء اليهم من غير بلادهم ، وليس بما وراء النهر مكان يخلو من مدن او قرى او مباخس او مراع لسائمة ، وليس شيء لابد للناس منه الا وعندهم منه ما يقيم اودهم ويفضل عنه ملغيرهم ، فاما اطعمتهم فمن السعة والكثرة على ما ذكرناه ، واما مياههم فانها اعذب المياه واخفها ، وقد عمت المياه العذبة جبالها وضواحيها ومدنها ، واما الدواب ففيها من النتاج ما فيه كفاية لهم مع كثرة ارتباطهم لها ، وكذلك البغال والحمير والابل ، واما لحومهم فان بها من النتاج ما يجلبونه من الغزية والخرلخية ، وما يتصل بهم من حواليها ما يفضل عن كفايتهم ، اما الملبوس ففيها من ثياب القطن ما يفضل عنهم ، حتى ينقل عنهم الى الافاق ، ولهم انفراء والصوف والاوبار ، وببلادهم من معادن الحديد ما يفضل عن حاجتهم في الاسلحة والادوات ، وبها معدن الفضة والذهب والزيبق ، الذي لا يقاربه في الغزارة والكثرة معدن في سائر بلدان الاسلام الا بنجهير في الفضة . واما الزيبق والذهب وسائر ما يكون في المعادن فاغزرها ما يرتفع مما وراء النهر ، وليس في شيء من بلدان الاسلام النوشاذر والكاغد الا في ما وراء النهر ، اما فواكههم فانك اذا تبطنت السغد واشروسنة وفرغانة والشاش رأيت من كثرتها ما يزيد على سائر الافاق ، حتى يرعاها لكثرتها دوابهم ، واما الرقيق فانه يقع اليهم من الاتراك المحيطة بهم ما يفضل عن كفايتهم ، وينقل الى الافاق من بلادهم ، وهو خير رقيق يحيط بالمشرق كله ، وبها من المسك الذي يجلب اليهم من تبت وخرخيز ما ينقل الى سائر الامصار منها ، ويرتفع من الصغانيان الى واشجرد من الزعفران ما ينقل الى الافاق ، وكذلك الاوبار من السمور والسنجاب والثعالب وغيرها ، مما يحمل الى اقصى الغرب ، مع طرائف من الخدنك والختو والبزاة ، وغير ذلك مما يحتاج اليه الملوك ... وترى الغالب على اهل الاموال بما وراء النهر صرف نفقاتهم الى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخير الا القليل منهم . وليس من بلد ولا منهل ولا مفازة مطروقة ولا قرية آهلة الا بها من الرباطات ما يفضل عن نزول من طرقه . وبلغني ان بما وراء النهر زيادة على عشرة آلاف رباط ، في كثير منها اذا نزل النازل اقيم علف دابته وطعام نفسه ان احتاج الى ذلك ، وقل ما رايت خانا او طرف سكة او محلة او مجمع ناس في الحائط بسمرقند يخلو من ماء جمد مسبل . ولقد اخبرني من يرجع الى خبره ان بسمرقند في المدينة وحائطها فيما يشتمل عليه السور الخارج زيادة على الفي مكان ، يسقى فيها ماء الجمد مسبلا ، من بين سقاية مبنية وجباب منصوبة . واما بأسهم وشوكتهم فانه ليس في الاسلام ناحية اكبر حظا في الجهاد منهم ، وذلك ان جميع حدود ما وراء النهر الى دار الحرب .

« أما من خوارزم الى ناحية اسبيجاب فهم الترك الغزية ، ومن اسبيجاب الى اقصى فرغانة الترك الخرلخية ، ثم يطوف بحدود ما وراء النهر من السندية وبلد الهند من ظهر الختل الى حد الترك في ظهر فرغانة . فهم القاهرون لاهل هـذه النواحي ، ومستفيض انه ليس في الاسلام دار حرب هم اشد شوكة من الترك . فهم ثغر المسلمين في وجه الترك ، يمنعونهم من دار الاسلام ، وجميع ما وراء النهـر ثغر ، يبلغهم نفير العدو ، ولقد اخبرني من كان مع نصر بن احمد رحمه الله في غزاة شاوغر ، انهم كانوا يحزرون ثلاثمائة الف ... وبلغني ان بالشاش وفرغانـة من الاستعداد ما لا يوصف مثله عن ثغر من الثغور ، وهم على بعد دارهم اول سابق الى الحج ، لا يدخل البادية قبلهم احد ، ولا يخرج منها بعدهم احد ... حتى دعا ذلك الخلفاء الى ان استدعوا مما وراء النهر رجالا . وكانت الاتراك جيوشهم ، لفضلهـم على سائر الاجناس في البأس والجراة والشجاعة والاقدام ، ودهاقين ما وراء النهر قوادهم وحاشيتهم وخواص خدمهم ... فصاروا حاشية الخلافة وثقاتهم ورؤساء عساكرهم ، مثل الفراغنة والاتراك الذين هم شحنة دار الخلافة ، والاتراك الذين كانوا لبأسهم ونجدتهم غلبوا على الخلافة مثل الافشين وآل ابي الساج ، مـن اشروسنة ، والاخشيذ من سمرقند ، والمرزبان بن تركسفي وعجيف بن عنبسة من السغد ، والبخارا خذاه وغيرهم من امراء الحضرة وقوادها وجيوشها ، والملـوك على هذا الاقليم وعلى سائر خراسان آل سلمان ، وهم من اولاد بهرام جوبين الذي سار ذكره في العجم بالبأس والنجدة . فلمثل هذه الاسباب ليس في الاسـلام ملك امنع جانبا ولا اوفر عدة ولا اكمل اسبابا للملك منهم ، لانه ليس في الاسلام جيش الا وهم شذاذ القبائل والبلدان والاطراف ، اذا تفرقوا في هزيمة وتمزقوا في حادثة لم يلتق منهم جمع بعد غير جيش هؤلاء الملوك ، فان جيوشهم الاتراك المملوكون .

واما نزاهة ما وراء النهر فاني لم ار ـ ولا بلغني في الاسلام ـ بلدا احسن خارجا من بخارى ، لانك اذا علوت قلعتها لم يقع بصرك من جميع النواحي الا على خضرة ، تتصل خضرتها بلون السماء ، فكأن السماء بها مكبة خضراء مكبوبة على بسـاط اخضر ، تلوح القصور فيما بينها كالنوائر فيها ، واراضي ضياعهم مقومة بالاستواء كأنها المرآة ، وليس بما وراء النهر وخراسان بلد احسن قياما بالعمارة على ضياعهم من اهل بخارى ، ولا اكثر عددا على قدرها في المساحة منهم ، وذلك مخصوص بهذه البلدة . ويحيط ببخارى وقراها ومزارعها سور قطره عشرة فراسخ في مثلها كلها عامرة . واما سغد سمرقند فانها من حد بخارى على وادي السغد يمينا وشمـالا تتصل الى حد البتم لا تنقطع . ومقدارها في المسافة ثمانية ايام ، مشتبكة الخضرة والبساتين ، فهي ميادين وبساتين ورياض مشتبكة ، قد حفت بالانهار الدائـم

جريها ، والحياض في صدور رياضها وميادينها ، مخضرة الاشجار والزروع ، ممتدة على جانبي واديها ، ومن وراء الخضرة من جانبيها مزارع تحرسها ، ومن وراء هذا المزارع مراعي سوائمها . والقلعة من كل مدينة وقرية بها تبص في اضعاف خضرتها ، كأنها ثوب ديباج اخضر ، قد سيرت بمجاري مياهها ، وزينت بتبصيص قصورها . وهي ازكى بلاد الله واحسنها اشجارا وثمارا ، وفي عامة مساكنهم البساتين والحياض والمياه الجارية ، قل ما تخلو سكة او دار من نهر جار . وبفرغانة والشاش واشروسنة وسائر ما وراء النهر من الاشجار الملتفة والثمار الكثيرة والرياض المتصلة ما لا يوجد مثله في سائر الامصار . وبفرغانة في الجبال الممتدة بينها وبين بلاد الترك — من الاعناب والجوز والتفاح وسائر الفواكه مع الورد والبنفسج وانواع من الرياحين ، كل ذلك مباح لا مالك له ولا مانع دونه ، وكذلك في جبالها وجبال ما وراء النهر من الفستق المباح ما ليس في بلد غيره . وباشروسنة ورد يتصل الى آخر الخريف » .

وقد قسم الجغرافيون كلا من الاقاليم الرئيسة كورا ونواحي (على اختلاف فيما بينهم في تصنيف الكور والنواحي) . ونهر جيحون ، وما عليه ، هو اول ما يصادف الذاهب من خراسان الى اواسط اسية ، وقد اشار اليه كثير من الجغرافيين على انه حد بين توران (اي الاتراك) وايران (اي الفرس)(٢٥) . ونهر جيحون فان عموده هو نهر جرياب الا انه تجتمع اليه انهار كثيرة من بلاد الختل والوخش فيصير بذلك نهرا عظيما(٢٦) . وينتهي الى خرارزم وبحيرتها .

« ولا ينتفع بماء هذا الوادي(٢٧) بالختل والترمذ الى ناحية زم احد ، فتعمر به زم وآمل وفربر ، ثم ينتهي الى خوارزم فيعمر خوارزم ، وعامة نفعه لاهل خوارزم، فاول كورة على جيحون مما وراء النهر : الختل والوخش ، وهما كورتان غير انهما مجموعتان في عمل واحد ، وهما ما بين نهر حرياب ووخشاب ، فمن مدن الختل : هلبك ومنك وتمليات وفارغر وكارنبج وانديجاراغ ورستاق بنك ، ومدن الوخش ، هلاورد ولاوكند ، ومقام السلطان بهلبك ، ومنك وهلاورد هما اكبر من هلبك ، غير ان مقام السلطان بهلبك . والذي يتاخم الوخش والختل ووخان والسندية وكران ، وهي دور كفر يقع منها المسك والرقيق . وبوخان معادن من الفضة غزيرة ، وفي اودية الختل ذهب يجمع في السيول من بلاد وخان ، وبين وخان وتبت قريب ، وارض الختل ذات زروع كثيرة ومياه وثمار ، وهي على غاية الخصب والسعة ، وبها دواب ومواش كثيرة .

وقد رأينا ان ننقل ، ببعض الايجاز ، ما قاله الاصطخري عن ما وراء النهر(٢٧أ)
« فاذا جزت الختل والوخش الى نواحي واشجرد والقواذيان والترمذ والصغانيان

وما في اضعافها فانها كور مفردة بالاعمال ، واما الترمذ فانها مدينة على وادي جيحون لهـا قهندز ومدينة وربض ، ويحيط بالربض ايضا سور ، ودار الامارة في القهندز ، والحبس خارج القهندز في المدينة في السوق ، والمسجد الجامع في المدينة ، والمصلى داخل السور في الربض ، واسواقها في مدينتها . وابنيتها طين ، ومعظم سككها واسواقها مفروشة بالاجر ، وهي عامرة آهلة ، وفرضة تلك النواحي على جيحون ، واقرب الجبال اليها على نحو مرحلة ، وماؤهم للشرب من جيحون ونهر يجري من الصغانيان ، وليس لضياعهم من جيحون شرب ، وشرب ضياعهم من نهر الصغانيان ، ولها من المدى صرمنجن وهاشم جرد ، والقواذيان مدينـة لهـا كورة ، وهي اصغر من الترمذ ، ولها من المدن نوذز ، والواشجرد نحو الترمـذ في الكبر ، وشومان ، اصغر منها ، ويرتفع من واشجرد وشومان الى قرب الصغانيان زعفران كثير ، يحمل الى الافاق ويرتفع من القواذيان الفوة ، والصغانيان مدينة اكبر من ترمذ ، الا ان الترمذ اكثر اهلا ومالا ، وللصغانيان قلعة . واما اخسيسك فهي بحذاء زم ، وزم في ارض خراسان الا انهما مجموعتان في العمل ، والمنبر بالزم ، وهي مدينة خصبة صغيرة ، والغالب على اطرافها السوائم من الابل والغنم ، وعلى ظهر كل واحدة منهما مفاوز وآبار ومراع . واما فربر فهي مدينة من بخارى ، وقد وصفناها في جملـة بخارى .

واما خوارزم فانه اسم الاقليم ، وهو اقليم منقطع عن خراسان وعما وراء النهر ، وتحيط به المفاوز من كل جانب ، وحدها متصل بحد الغزية فيما يلي الشمال والمغرب ، وجنوبيه وشرقيه خراسان وما وراء النهر . وهي في آخر نهر جيحون ، وليس بعدها على النهر عمارة الى ان يقع في بحيرة خوارزم ، وهي على جانبي جيحون ، ومدينتها في الجانب الشمالي من جيحون ، ولها في الجانب الجنوبي مدينة كبيرة تسمى الجرجانية ، وهي اكبر مدينة بخوارزم بعد قصبتها ، وهي متجر الغزية ، ومنها تخرج القوافل الى جرجان والخزر والى خراسان .

« فاما قصبتها فانها تسمى بالخوارزمية كاث ، ولها قلعة ليست بعامرة ، وكانت لها مدينة فخربها النهر ، وبنى الناس من وراء المدينة ، وقد قارب النهر القلعة ويخاف على تهدمها ، والمسجد الجامع على ظهر القلعة ، ودار حوارزم شاه عند المسجد الجامع ، والحبس عند القلعة . وفي وسط المدينة نهر جردور يشق المدينة ، والسوق على جانبي هذا النهر ، وطولها نحو ثلث فرسخ في نحوه . واما ابوابها فقد تهدم بعض المدينة وذهب ابواب ما تهدم منها ، والباقي قد بنى خلف ما تهدم على الوادي . وأول حد خوارزم يسمى الطاهرية مما يلي آمل ، فتمتد هذه العمارة في جنوبي جيحون ، وليس في شماليه عمارة ، الى ان ينتهي الى قرية تسمى غارابخشنه ،

ثم يكون من غارابخشنه الى مدينة خوارزم عامرا من جانبي جيحون جميعا . وقبل غارابخشنه بستة فراسخ نهر يأخذ من جيحون فيه عمارة الرستاق الى المدينة ... عرضه نحو خمسة ابواع (لعلها ازرع)، وعمقه نحو قامتين، فيحمل السفن . ويتشعب منه بعد ان يجري خمسة فراسخ نهر يعمر به بعض الرساتيق، وليس للعمارة على شط جيحون من الطاهرية الى هزاراسب كبير عرض . يعرض بهزاراسب فيصير عرضه نحوا من مرحلة الى مقابل المدينة، ثم لايزال يضيق حتى يصير بالجرجانية نحو فرسخين ... وبعده نهر خيو .

« وخوارزم مدينة خصبة كثيرة الطعام والفواكه، الا انها لا جوز بها، ويرتفع منها من ثياب القطن والصوف امتعة كثيرة تنقل الى الافاق، وفي خواص اهلها يسار وقيام على انفسهم بالمروة الظاهرة، وهم اكثر أهل (المنطقة) انتشارا وسفرا، فليس بخراسان مدينة كبيرة الا وبها من اهل خوارزم جمع كبير، ولسانهم لسان مفرد، وليس بخراسان بلد على لسانهم، وزيهم القراطق والقلانس، وخلقهم لا يخفى فيما بين اهل خراسان، ولهم بأس على الغزية ومنعة، وليس ببلدهم معادن ذهب ولا فضة ولا شيء من جواهر الارض، وعامة يسارهم من متاجرة الترك واقتناء المواشي، ويقع اليهم اكثر رقيق الصقالبة والخزر وما والاها مع رقيق الاتراك، والاوبار من الفنك والسمور والثعالب والخز وغير ذلك من اصناف الوبر .

فهذا ما على جيحون من الكور، فنبدأ مما وراء النهر في كورة بخارى، لانها اول الكور وبها دار امارة خراسان، وهي مستقيمة على ترصيف كور ما وراء النهر . أما بخارى، واسمها نومجكث، فهي مدينة في مستوى، وبناؤها خشب مشتبك، ويحيط ببنائها قصور وبساتين وسكك وقرى تكون اثني عشر فرسخا في مثلها . ويحيط بجميع ذلك سور يجمع هذه القصور والابنية والقرى والقصبة، فلا يرى في اضعاف ذلك كله مفازة ولا خراب . ومن دون هذا السور — على قصبة المدينة وما يتصل بها من القصور والمساكن والمحال والبساتين التي تعد من القصبة، ويسكنها من يكون في جملة القصبة شتاء وصيفا — سور آخر قطره نحو فرسخ في مثله، ولها مدينة داخل هذا السور، يحيط بها سور حصين، ولها قهندز خارج المدينة يتصل بها مقدار مدينة صغيرة، وفيه قلعة اخرى، ومسكن ولاة خراسان من آل سامان فى هذا القهندز . ولها ربض، والمسجد الجامع على باب القهندز في المدينة، وحبسها في القلعة، واسواقها في ربضها . وليس بخراسان وما وراء النهر مدينة أشد اشتباكا من بخارى، ولا اكثر اهلا على قدرها، ولهم في الربض نهر السغد يشق الربض واسواقها، وهو آخر نهر السغد، فيفضى الى طواحين وضياع ومزارع، ويسقط فاضله في مجمع ماء يجاور بيكند الى قرب فربر يعرف بسام خواش . واما المدينة فلها

سبعة ابواب حديد ... ومياههم من النهر الاعظم وينشعب من هذا النهر في المدينة أنهار للشرب والـــري .

أما رساتيق بخارى فمنها الذر وفرغيدد وسخر ورستاق الطواويس وبورق وخرغانة السفلى .. فهذه الرساتيق داخل الحائط ، وخارج الحائط جزه وشابخش ويسير رستاق ـ وغيرها ... ويتشعب من عمود نهر السغد في حد بخارى خارجا عن القصبة من الحائط الخارج بناحية الطواويس الى ان ينتهي الى باب المدينة انهار كثيرة ، تتفرق في القرى والمزارع في الحائط ، وعليها عمارة قرى بخارى .. وما فضل من ماء نهر السغد فانه يجري في نهر يعرف بالذر ، وهو النهر الذي يشق ربض بخارى ، ومنه انهار المدينة ، واكثر هذه الانهار تحمل السفن كبرا وغزارة ، وكلها تأخذ من النهر داخل حائط بخارى من حد الطواويس الى ان تنتهي الى المدينة . وابنية قرى بخارى كلها على اشتباك البناء والتقدير في المساكن وارتفاع اراضي الابنية ، وهي محصنة بالقلاح بالابنية المجموعة ، وليس في داخل هذا الحائط جبل ولا مفازة ، واقرب الجبال اليها جبل وركه ، ومنه حجارة بلدهم للفرش والابنية ، ومنه طين الاواني والنورة والجص ، ولهم خارج الحائط ملاحات ، ومحتطبهم من بساتينهم وما يحمل اليهم من المفاوز من الغضا والطرفاء . واراضي بخارى كلها قريبة الى الماء لانها مغيض ماء السغد ، ولذلك لا تنبت الاشجار العالية فيها مثل الجوز والدلب والحور وما اشبه ، فاذا كان منه شجر فهر قصير غير نام . وفواكه بخارى اصح فواكه ما وراء النهر والذها طعما ، ومن عمارة بخارى ان الرجل ربما قام على الجريب الواحد من الارض فيكون منه معاشه ، ومن كثرة عددهم ان ما يرتفع من بلادهم يقصر عن كفايتهم ، لوفور عددهم وتضاعفهم على ما يخرج من اراضيهم ، فيحمل اليهم الميرمن الطعـــام وسائر ما يحتاجون اليه من سائر ما وراء النهر .

ولبخارى مدن داخل حائطها وخارجا عنه ، فما داخل حائطها فالطواويس ، وهي اكبر منبر بعد القصبة ، وتومجكث وزندنه ومغكن وخجادة ، وخارج الحائط بيكند وفربر وكرمينيه وخديمنكن وخرغانكث ومذيامجكث . فاما الطواويس فانها مدينة لها سوق ، ومجمع عظيم ينتابه الناس من اقطار ما وراء النهر في وقت معلوم مـــن السنة ، ويرتفع منها من الثياب القطن ما ينقل الى سائر المواضع ، وهي مدينة كثيرة البساتين والماء الجاري خصبة . ولها قهندز ومدينة ومسجد جامعها في المدينة ،واما المدن التي داخل الحائط فهي متقاربة في الكبر والعمارة ، ولكل منها حصن ، واما كرمينية فهي اكبر من الطواويس واعمر واكثر عددا واخصب ، وخديمنكـــن من كرمينية ، وبحذائها خرغانكث ومذيامجكث ، وهي متقاربة في الكبـــر والعمـــارة ، ولكرمينية قرى كثيرة ، وكذلك لكل منبر قرى ومزارع ، الا بيكند فانها وحدها ،

غير ان بها من الرباطات مالا اعلم في بلدان ما وراء النهر اكثر عددا منها ، وبلغني ان عددها نحو من الف رباط ، ولها سور حصين ومسجد جامع تؤنق في بنائه وزخرف محرابه ، فليس بما وراء النهر محراب احسن زخرفا منه ، وفربر مدينة من جيحون ، ولها قرى وهي عامرة خصبة .

واما لسان بخارى فانه لسان السغد الا انه يحرف بعضه ، ولهم لسان الدرية ، واهلها يرجعون من الادب الى ما يفضلون به ما وراء النهر . ونقودهم الدرهم ولا يتعاملون بالدينار فيما بينهم .. ولهم داخل الحائط وخارجه اسواق متصلة معلومة في اوقات من الشهر دارة ، يجري فيها من الشراء والبيع الثياب والرقيق والمواشي وغير ذلك مما يتسع به اهلها . ويرتفع من بخارى ونواحيها من ثياب القطن ما ينقل الى الافاق وكذلك البسط والمصليات وثياب من الصوف تستحسن ، ويتحدث اهل بخارى ان من بركة القلعة انه لم تخرج منها جنازة وال قط ، وما عقدت فيها راية خرجت فهزمت ، وهذا من الاتفاق العجيب ان صح ، ويقال ان اصل أهل بخارى في قديم الايام ناقلة اصطخر ، وسكن ولاة خراسان من السامانية مدينة بخارى ، لانها اقرب مدن ما وراء النهر الى خراسان ، فمن كان بها فخراسان امامه وما وراء النهر وراءه ، ولهم من حسن الطاعة وقلة الخلاف على الولاة ما يؤدي الى اختيار المقام بينهم على سائر ما وراء النهر . واول ولاة خراسان من آل سامان اسماعيل بن احمد ، جاءته ولاية خراسان وهو ببخارى فاستدام المقام بها ، فبقيت الولاية بها في اولاده ، وقد كان ولاة ما وراء النهر يقيمون قبل ذلك اما بسمرقند واما بالشاش وفرغانة في وجوه الترك ، وكان عمل ولاة بخارى يحزر مفردا من خراسان الى ان زالت ايام آل طاهر .

ويتصل ببخارى من شرقيها السغد ، واولها اذا جزت كرمينية الدبوسية ثم ربنجن والكشانية واشتيخن وسمرقند ، وكل هذا قلب السغد ، وقصبة السغد سمرقند ، وهي مدينة على جنوبي وادي السغد ، مرتفعة عليه ، ولها قهندز ومدينة وربض ، فاما القهندز ففيه الحبس ودار الامارة عامران . واما المدينة فلها سور واربعة ابواب ... ولها اسواق ومساكن وماء جار يدخل اليها في نهر من رصاص ، وهو نهر قد بنيت له مسناة عالية من حجارة ، يجري عليها الماء من الصفارين حتى يدخل من باب كش ، ووجه هذا النهر رصاص كله ، وذلك ان حوالي المدينة خندقا قد تسفل ، لانه استعمل طينه في سور المدينة ، فبقي حواليها خندق عظيم ، فاحتيج الى مسناة في هذا الخندق يجري الماء عليها الى المدينة ، وهو نهر جاهلي في وسط السوق بموضع يعرف برأس الطاق ، وهو اعمر موضع بسمرقند . وعلى جنبات هذا النهر غلال موقوفه على مرمات هذا النهر ، وعليه حفظة من المجوس عليهم حفظه

شتاء وصيفا . والمسجد الجامع في المدينة بينه وبين القهندز عرض الطريق ، وفي المدينة مياه من هذا النهر وبساتين ، وفيها دار الامارة لال سامان غير دار الامارة بالقهندز والمدينة من الربض على جانبه ، قريب من وادي السغد الذي هو بين الربض والمدينة ، وذلك ان سور الربض ممتد من وراء وادي السغد ، والوادي للربض كالخندق مما يلي الشمال ، ويكون قطر السور المحيط بربض سمرقند فرسخين . غير ان الربض شربه ومجمع اسواقه رأس الطاق ، ثم تتصل به الاسواق والسكك والمحال ، وفي تضاعيف ذلك قصور وبساتين فليس من سكة ولا دار الا وفيها ماء جار الا القليل ، وقل دار تخلو من بستان . حتى انك اذا صعدت اعلى قهندزها لم تبد المدينة للنظر ، لاستتارها بالبساتين والاشجار ، واكثر الاسواق والتجارات في الربض الا شيئا يسيرا في المدينة . وهي فرضة ما وراء النهر ومجمع التجار . ومعظم جهاز ما وراء النهر يقطع بسمرقند ، ثم يتفرق الى سائر الكور ، وكانت دار امارة ما وراء النهر بها الى ايام اسماعيل بن احمد (الساماني) فنقلها الى بخارى . ولسور ربضها ابواب .. وتربة سمرقند من اصح تربة وايبسها ، ولولا كثرة البخارات من المياه الجارية في سككهم ودورهم وكثرة اشجار الخلاف بينهم لاضر بهم فرط يبسها ، وبناؤها طين وخشب . واهلها يرجعون الى جمال بارع ورزانة ، وهم من الافراط في اظهار المروة وتكلف القيام على انفسهم مايزيدون على سائر بلاد خراسان ، حتى يجحف ذلك باموالهم . وبسمرقند مجمع رقيق ما وراء النهر ، وخير الرقيق بما وراء النهر تربية سمرقند ، وبينها وبين اقرب الجبال نحو مرحلة خفيفة الا انه يتصل بها جبل صغير يعرف بكوهك ، يمتد طرفه الى سور سمرقند ، وهو مقدار نصف ميل في الطول ، ومنه احجار بلدهم ، والطين المستعمل في الاواني والنورة والزجاج وغير ذلك ، وبلغني ان به ذهبا وفضة غير انه لا يتسوغ العمل فيه. والبلد كله طرقه ومحاله وسككه الا قليلا مفترش بالحجارة ، ومياههم من وادي السغد ، وهذا الوادي مبدؤه من جبال البتم على ظهر الصغانيان ... ومنه تتشعب انهار سمرقند ، ورساتيق تتصل بها من غربي الوادي من جانب سمرقند .

واما رساتيق سمرقند فان اولها بنجيكث ومدينتها بنجيكث ... والساودار هو الجبل الذي عن جنوبي سمرقند ، وليس بنواحي سمرقند رستاق اصح هواء ولا زرعا وفواكه منه، واهلها اصح الناس الوانا وابدانا ، وطوله زيادة على عشرة فراسخ ، وبالساودار دير للنصارى يعرف بوزكرد ، ورستاق الدرغم ازكى هذه الرساتيق في الزروع ، ويفضل من اعنابها ما يحمل الى غيرها من الرساتيق ، واما ابغر فانها مباخس ، غير ان قراها اكثر عددا من رساتيق سمرقند واراضيها منجبة ، وبلغني ان القفيز البذر يريع بها مائة قفيز وبها مراع كثيرة .

« واما اشروسنة فاسم الاقليم ، كما ان السغد اسم الاقليم ، وليس ثم مدينة

بهذا الاسم ، والغالب عليها الجبال ، حدود اشروسنة : غربيها حدود سمرقند ، شماليها الشاش وبعض فرغانة ، جنوبيها بعض حدود كش والسغانيان وشومان واوشجرد وراشت ، شرقيها بعض فرغانة .. ومدينتها التي يسكنها الولاة هي برنجكث ، وبناؤها طين وخشب ، وهي مدينة داخلها مدينة اخرى على كل منهما سور ، وللمدينة الداخلة بابان ، ويجري في المدينة الداخلة نهر كبير وعليه فيها رحى ، ويشتمل حائطها على دور وبساتين وقصور وكروم ، وقطرها نحو فرسخ ، وابوابها اربعة ... ولها ستة انهار ، كلها من منبع واحد ، هو من المدينة على أقل من نصف فرسخ ..... وليس بجميع اشروسنة نهر تجري فيه سفينة .

والبتم جبال شاهقة منيعة ، واكثرها تغلب عليها البرد ، وبالبتم حصون منيعة جدا ، وفيه معدن الذهب والفضة والزاج والنوشاذر ، وهو جبل فيه مثل الغار يبنى عليه بيت ويستوثق من ابوابه وكواه ، فيرتفع من الغار بخار يشبه بالنهار الدخان وبالليل النار ، فاذا تلبد هذا البخار قلع منه وهو النوشاذر ، ولا يتهيأ لاحد ان يدخله من شدة حره ، الا ان يلبس لبودا ويدخل بها كالمختلس ، وهذا البخار يتنقل من مكان الى مكان فيحفر عليه حتى يظهر ، فاذا انقطع من مكان حفر عليه من مكان آخر فظهر منه . والبتم جبال تسمى البتم الاول والاوسط والداخل ، وماء سمرقند والسغد وبخارى من البتم الوسطى . ومينك الموضع الذي قاتل فيه قتيبة بن مسلم ، وحصار الافشين هناك .

واما الشاش وايلاق فان مقدار عرضهما مسيرة يومين في ثلاثة ، وهي كثيرة القرى والعمارات والمنابر ، وهي في ارض سهلة كثيرة المراعي والرياض ، وبالشاش وبايلاق مدن كثيرة ذوات ابواب واسوار وارباض وقلاع واسواق وانهار تخترق بعض المدن ، ومدن الشاش كثيرة ... والشاش وايلاق متصلتان لا فصل بينهما ، وبايلاق معدن ذهب وفضة ، واكبر مدن ايلاق نوكث وتونكت ، وليس بما وراء النهر دار ضرب الا بسمرقند وتونكت . واما اسبيجاب فمدينة نحو الثلث من تونكت ، وفي ربضها بساتين ومياه ، وابنيتها طين وهي في مستوى من الارض وبينها وبين اقرب الجبال اليها نحو ثلاثة فراسخ . وللمدينة اربعة ابواب فباب منها يعرف بنوجكث وباب فرخان وباب سواكراثة وباب بخارى واسواقها في المدينة الداخلة وهي مدينة على غاية الخصب ولا اعلم بمكان بخراسان كلها وما وراء النهر بلدلا خراجعليه الااسبيجاب ومما يقع من المدن في نواحيها بدخكث وسبانيكث والطراز واطلخ وشلجى وكدر وبيسكند وشاوغر وصبران ووسيج فاما سبانيكث فانها قصبة كورة كنجيدة واما كدر فانها قصبة كورة فاراب ووسيج ايضا من مدن فاراب ، وصبران هي مدينة

تجتمع بها الغزية للصلح والتجارات اذا كانوا صلحا وهي مدينة حصينة وفاراب اسم الناحية ومقدارها في الطول والعرض اقل من يوم الا ان بها منعة وبأسـا وهي ناحية سبخة لها غياض ولهم مزارع في غربي الوادي تأخذ من نهر الشاش وبيسكند بها منبر على غربي وادي الشاش وهي مجمج الاتراك وقـد اسلموا مـن اجناس للغزية والخرلخية ولهم باس ومنعه في الاتراك وبين فاراب وكجندة .. ابنية ابتناها نحو من الف بيت من الاتراك قد اسلموا وهم مقيمون بها في خركاهات لهم ، والطراز متجر للمسلمين من الاتراك وحواليها حصون منيعة منسوبة اليها ولم يجتازها احد .. لانك اذا جزتها ذخلت الخرلخية فهذا هو حد الشاش ونواحيها واما خجندة فانها متاخمة لفرغانة ... في جملة .. متاخمة منفردة الاعمال عنها وهي على نهر الشاش في غربيه وطولها اكثر من عرضها وتمتد على فرسخ كلها دور وبساتين وليس في عملها مدينة غير كند وهي بساتين ودور مفترضة ولها قرى يسيرة ومدينة وقهندز وجامعها في المدينة ودار الامارة في الميدان بالربض والحبس في القهندز وهي مدينة نزهة بها فواكه تحمل الى سائر النواحي وفي اهلها جمال ولهم مروة وهي بلد يضيق عما يقيم من الزروع والجلب اليهم من سائر فرغانة واشروسنة ما يقيم اودهم تنحدر اليهـم السفن في نهر الشاش وهو نهو عظيم من انهار تجتمع اليه في حدود الترك والاسلام وعموده نهو يخرج من بلد الترك في حد اوركند ثم يجتمع اليه نهر خرشاب ونهر اوسن وقبل نهر جدغل وغيرها فتجتمع ويعظم فيمتد على اخسيكث ثم على بناكث فيجري الى فاراب فاذا جاوز حد صبران جرى في برية يكون على جانبه الاتراك القرية الحديثة على فرسخ منها ثم يقع في بحيرة خوارزم على مرحتلين من القرية الحديثة وهذا نهر اذا امتد يكون نحوا من الثلثين من جيحون وتحمل فيه المير الى القرية الحديثة اذا كانوا صلحا والقرية الحديثة فيها مسلمون غير انها دار المملكة للغزية ويقيم بها في الشتاء ملك الغزية وبقربها جند وخواره وفيهما قوم مسلمون غير ان السلطان بها للغزية واكبر هذه الثلاثة مواضع الحديثة وهي من خوارزم على عشر مراحل ومن فـاراب على عشرين مرحلة .

« وفرغانة اسم الاقليم عمل موضوع على سعة مدنها وقراها وقصبتها اخسيكث وهي مدينة على شط نهر الشاش على ارض مستوية بينها وبين الجبال نحو فرسخ وهي على شمالي النهر ولها قهندز ولمدينتها ربض ودار الامارة والحبس في القهندز والجامع خارج من القهندز ومصلى العيد على شط نهر الشاش واسواقها في مدينتها وربضها واكبر الاسواق بالمدينة ومقدارها في الكبر نحو ثلث فرسخ وبناؤها طين وعلى ربضها سور وللمدينة الداخلة خمسة ابواب .. وفي ربضها مياه جارية وحياض كثيرة وكل باب مـن ابواب ربضها يفضي الى بساتين ملتفة وانهار جارية لا تنقطع

مقدار فرسخين ويلي اخسيكث في الكبر قبا وهي مدينة من انزه تلك المدن وهي تقارب اخسيكث في الكبر ولها قهندز ومدينة وربض الا ان القهندز خراب والمسجد الجامع في القهندز واسواقها في ربضها ودار الامارة والحبس في الربض وعلى الربض سور محيط ولها بساتين كثيرة ومياه جارية تزيد على بساتين اخسيكث ومياهها . ويلي قبا في الكبر اوش وهي تقارب قبا في الكبر ولها مدينة عامرة وقهندز عامر ودار الامارة والحبس في القهندز وللمدينة ربض وعلى الربض سور وهي ملاصقة للجبل الذي عليه مرقب الاحراس على الترك ولها ثلاثة أبواب . واوزكند اخر مدن فرغانة مما يلي دار الحرب » .

الاتراك والعالم الاسلامي الى عصر الفارابي

(٩)

مع ان نهر جيحون كان يعتبر الحد الفاصل بين طوران (توران) وايران ـ شعوبا ولغات ، فالواقع هو ان الشعوب التركية وشعوب ايران كانت ، منذ اقدم الازمنة ، على اتصال . وقد يكون الاتصال هجوما من الرعاة الاتراك على الاجزاء الزراعية ، وقد ينتهي باستقرار القادمين وتبلدهم ، وقد يكون الاتصال سلميا ، قوامه التجارة وتبادل المنافع ، وهو الاكثر استمرارا . ومعنى هذا انه لم يقم في وقت من الاوقات خط اوحد فاصل ثابت بين الفريقين . وهذا الوضع ينطبق على شرق خراسان بخاصة بسبب جوارها لما وراء النهر اولا ، ولان الارض ايسر اجتيازا في اودية معينة ودروب معروفة . وكان تبادل السكان بين المنطقتين وما ورائها أمرا مألوفا .

فمن المتاجر التي كانت المناطق المتحضرة الزراعية تصدرها الى بدو الشمال (أي تركستان) الطحين والقمح والشعير والسكر والافاويه والاسلحة والاقمشة . اما البدو انفسهم فقد كانوا يسوقون قطعانهم ومواشيهم الى المدن القريبة من الحدود ليبيعوها لاهل هذه المدن . فكان هؤلاء يحصلون على حاجتهم من الخيول والاغنام والحمير والبغال من الغز والخرلخية مثلا . وكان هؤلاء البدو يقومون بحراسة القوافل عبر السهوب(٢٨).

ولعل من اهم ما كان يحمل من مناطق الشمال هو الرقيق التركي . ويبدو ان هذا الرقيق عرف في ايام الخلافة الاموية ، نتيجة للاتصال الحربي والتجاري بين العرب المسلمين وسكان تلك الاماكن النائية . ولم تلبث تجارة الرقيق ان اصبحت

تجارة رائجة رابحة بحيث ان السامانيين ، مثلا ، كانوا يمنحون جوازا من السلطان للسماح للغلمان والجواري اذا كانوا اتراكا(٢٩) . وقد كان حكام الاقاليم الشرقية يبعثون الى الخلفاء ببغداد هدايا من الرقيق . كما كان في بغداد ، الى جانب الرقيق ، جماعة من التجار الصغار والصناع من الاتراك ، الا ان الاتراك دخلوا الباب الواسع كجنود . بحيث اصبح الخلفاء يعتمدون عليهم دون العرب والفرس(٣٠) .

والذي يعنينا في هذا البحث هو ان الاتراك الغز (أو الاغز او الطقوز اغز) الذين وصلوا الى حوض نهر سيحون في القرن الثامن للميلاد بأعداد وافرة ورثوا حضارة مستقرة الصفات عمن سبقهم ونموها بحيث ان البحوث الاثرية التي قام بها تولستوف تثبت ان حضارة المدن الواقعة في حوض سيحون لا يظهر فيها أي انقطاع بين ايام الهيطل (او الختل) في القرنين الخامس والسادس من جهة والقرن العاشر للميلاد من الجهة الثانية(٣١) . ويبدو ان تأثر هذه المدن بالمسلمين المجاورين في خوارزم وما اليها دفع تطورها الحضاري الى الامام .

المدن الكبرى والمراكز العلمية
في خراسان وما وراء النهر

(١٠)

أولا : يبدو ، مما مر بنا ، انه كان ثمة ، على الاقل ، ست مدن كبرى في منطقة ما وراء النهر وخراسان هي : سمرقند وبخارى ونيسابور ومرو وهراة وبلخ . وكل من هذه المدن كانت تقع على الطرق التجارية الرئيسية التي تصل بين الصين او الهند من جهة ، وايران وما الى الغرب منها من جهة ثانية.

ثانيا : في هذه المدن كان يجتمع التجار والسفراء ورجال الدين واهل العلم مشرقين ومغربين .

ثالثا : ان اكثر هذه المدن كانت لها مكانة علمية في ناحية من النواحي قبل الفتوح العربية وانتشار الاسلام في تلك الربوع .

رابعا : ان المنطقتين الواقعتين الى الشرق (الصين والهند) والى الغرب (ايران وبلاد الرافدين وما الى ذلك) من البلاد التي تقوم بها هذه المدن ، كان لهما حضارات وفلسفات وعلوم حرية بان يتبادلها سكانهما ، وقد تم هذا التبادل على اشكال مختلفة .

خامسا : ان الفتوح العربية وقيام الدولة العربية الاسلامية (ونشوء الدويلات فيما بعد) وانتشار الاسلام كانت عوامل فعالة في توسيع مجال الاتصال بين هــذه المدن والمناطق الواقعة الى الشرق والغرب (وحتى الشمال) منها .

سادسا : ان الدويلات التي قامت في المشرق ، والدولة السامانية في مقدمتها ، كانت تسير على غرار البلاط العباسي في الاهتمام بالعلم والعلماء ، مفيدة من تقاليد تليدة عرفتها المنطقة حتى قبل وصول العرب والاسلام اليها . والذي حدث ان العامل الفعال في التطور الفكري والعلمي والحضاري اصبح الان الاسلام ، وصارت اللغة العربية هي لغة العلم والادب ، الى ان عاد للفارسية دورها الادبي في القرن الرابع (العــاشر) .

سابعا : يمكن ان نضيف الى هذا الامر امرا آخر ، وهو ان ما اصاب العالم الاسلامي في القرون الثاني والثالث والرابع/الثامن والتاسع والعاشر من خلافات فكرية دينية في الاسلام نفسه ، عرفتها المنطقة وتأثرت واسهمت فيها . وهــذا معناه مشاركة فعلية في جميع الاتجاهات والتيارات العقلية والفقهية والشرعية والادبية التي عرفتها بغداد ودمشق وحلب والفسطاط وغيرها من امهات المدن العربيــة الاسلاميــة .

ثامنا : عرفت خراسان وما وراء النهر مدارس بالمعنى الاسلامي (الفقهي . . الخ) في ايام الفارابي وقبله . وقد بحث ناجي معروف هذا الموضوع بحثا وافيا في كتابه مدارس قبل النظامية (بغداد ، ١٣٩٣/١٩٧٣) . وخلص من بحثه الى نتائج هامــة يمكن تلخيصها فيما يلي :

أ ــ ان المدارس الاولى التي بنيت في خراسان وما وراء النهر كانت « احادية اي بنيــت لمذهب واحد مــن المذاهب الفقهية الاربعــة . وكان اغلبها للشافعيــة والحنفية » (ص ١٥) .

ب ــ « وقد اتخذت المدارس في خراسان وما وراء النهر لسكنــى المدرسين والطلبة وفي بعض الاحيان كان ينزلها العلماء الطارئون » (ص ١٧) .

ج ــ كانت الاوقاف على هذه المدارس كثيرة ، وكانت تستخدم ، « لعمارتها واجراء الجزايات على اربابها من المدرسين والعلماء والطلبة من المتفقهة واهل الحديث والوعاظ والمذكرين والصوفية والائمة والمؤذنين وغيرهم . فقد جعل ابــن حبان

التميمي المتوفى سنة ٩٦٥/٣٥٤ لطلاب مدرسته جرايات دارة يستنفقونها » (ص١٩)

د ـ « ولما كانت خزائن الكتب في المدارس من الامور التي تساعد على الدرس والبحث فقد اكثر مؤسسو المدارس من ايقاف الكتب على اختلاف علومها وفنونها في المدارس ، وانشأوا لها المباني الخاصة والحجرات العديدة واقاموا عليها الخزان والمشرفين والنظار ... فقد سبل ابو حاتم البستي التميمي (المذكور آنفا) كتبه ووقفها وجمعها في دار رسمها لها » (ص ١٩ ـ ٢٠) .

تاسعا : بين لنا الدكتور ناجي معروف في دراسته المذكورة المدارس التي يعنينا امرها (من حيث انها كانت قائمة في عصر الفارابي) . ومنها :

ا ـ مدرسة حسان بن محمد القريشي بنيسابور . وقد توفي سنة ٩٦٠/٣٤٩ (ص ٢٥) . وتاريخ وفاته يأتي بعد عشر سنوات من وفاة الفارابي .

ب ـ مدرسة ابن حبان التميمي بنيسابور . وقد توفي صاحبها سنة ٣٥٤/ ٩٦٥ (ص ٢٦) .

ج ـ مدرسة ابي حفص ببخارى التي درس فيها ابن شاهويه المتوفى سنة ٩٧١/٣٦١ . ومعنى هذا ان المدرسة كانت قائمة ايام تدريس ابن شاهويه فيها . وهذا الرجل كان اماما بنيسابور ثم خرج الى بخارى ثم عاد الى نيسابور وحدث بها وتوفي هناك سنة ٣٦١ هـ . (ص ٢٦) .

د ـ مدرسة مرست في بنج ديه في منطقة مرو الروذ . وقد درس فيها ابن اسماعيل القفال الكبير الشاشي (الطشقندي) المولود سنة ٩٠٢/٢٩١ والمتوفى سنة ٩٧٥/٣٦٥ . فهو معاصر ـ بعض الوقت ـ للفارابي .

هـ ـ بالاضافة الى هذه المدارس التي كانت قطعا قائمة في ايام الفارابي ، ذكر الدكتور معروف مدارس انشئت قبل سنوات معينة ، وقد تكون قديمة بحيث عاصرها الفارابي او قد تكون متأخرة عن ايامه . ولنذكر منها على سبيل المثال : مدرسة محمد الحمشاذي (نيسابور) انشئت قبل سنة ٩٩٨/٣٨٨ . مدرسة ابن رضوان (نيسابور) قبل سنة ٩٩٩/٣٩٠ . المدرسة السعيدية (نيسابور) انشئت بعد سنة ٩٩٩/٣٩٠ بقليل . المدرسة الدقاقية (نيسابور) بنيت في سنة ٩٩٩/٣٩١ (ص ٢٨ ـ ٣٠ . وفي الصفحات التالية عدد اخر من المدارس انشىء بعد ذلك) .

عاشرا :خزائن الكتب كانت كثيرة في تلك المدن . فقد ذكر ياقوت ان مرو كان بها عشر خزائن للكتب . ويبدو من رواية ياقوت ان اثنتين منها كانتا قد انشئتا قبل زيارته لمـرو(٣٢) .

حادي عشر : يقول المقدسي عن نيسابور (ويسميها ايرانشهر) انه قد اجتمع لها من الخلال الكثير منها المدارس الرشيقة ، وانه يرحل اليه في العلم والتجارات(٣٣) وقد نقل لسترانج عن ابن بطوطة ان مدارس بلخ ، بعد ان هدم جنكيز خان المدينة ، باقيـة الرسوم(٣٤) .

ثاني عشر : لعل المدينتين اللتين كانتا تتقدمان سواهمافي المنطقة في عصر الفارابي هما نيسابور في خراسان وبخارى في ما وراء النهر . على اننا نقع على اسماء علماء ومحدثين منسوبين الى مدن اخرى او جهات معينة : كالسمرقندي والشاشـي والبستي والبلخي والفارسي والبوشنجي والنسوي . ونحن نقتصر هنا على اسماء توفي اصحابها قبل سنة ٤٠٠ هـ(٣٥) .

وقد كان فيما نقلناه عن نيسابور (ابن حوقل) وعن بخارى (الاصطخري) الكفاية لما كان لهاتين المدينتين من اهمية تجارية وصناعية وسياسية وعلمية . الا اننا نود ان نلفت نظر القراء الى ما كتبه بوزورث وشبولر عن نيسابور(٣٦) وما جـاء عن بخارى عند فراي(٣٧) . نود ان ننقل هنا بعض ما جاء في كتاب فامبري (تاريخ بخارى)(٣٨) . فقد جاء فيه قوله :

« ان بخارى التي اشتهرت ايام الزرادشتيين بانها « متابة العلوم كلها » اشتاقت كذلك لاسترداد صيتها القديم في ظل الاسلام . وسرعان ما اصبحت تعرف باسم « بخارى الشريفة التقية » .... وكان النشاط العقلي السائد في ذياك الوقت وقفا على علوم الدين . وبهذا كان اوائل المشاهير الذين ازدانت بهم تلك المدينة التي تقع على نهر زرفشان هم من الاولياء الذين لا تزال قبورهم هناك اعظم المزارات حتى اليوم . ومن هؤلاء ابو حفص البخارى المولود عام ١٥٠/٧٦٧ ، وكان من العلماء الذين تزعموا الحركة الفكرية في مدينة بخارى زمنا طويلا . وهو من تلاميذ الامام محمـد شيباني ، وقد شهد له بانه كان اقدر تلاميذه . ومات ابو حفص عام ٢٢٧/٨٤١ ، وترك من بعده ذكرى خالدة لنشاطه العقلي تمثلت في تلميذه عبد الله الفقيه الملقب بالبخاري شيخ المحدثين المسلمين الذي ولد عام ١٩٤/٨٠٩ في بخارى . ويعد كتابه الكبير « جامع الصحيح » اعظم مرجع للحديث في الثقافة الاسلامية كلها . ويذكر ابن خلكان ان اكثر من سبعين الفا من طلبة العلم درسوا هذا الكتاب على هذا الشيخ ،

وان هذا الكتاب يحوي ستمائة الف حديث انفق البخاري ستة عشر عاما في جمعها وتصنيفها . ومات في نواحي سمرقند عام ٨٦٩/٢٥٦ . ويأتي من بعـده محمد السبدموني العلامة قاضي القضاة في عصر اسماعيل ، ومات عام ٩١٦/٣٠٤ م ، ثم محمد بن الفضل اعظم فقيه في عصره ، وغير هؤلاء ممن صارت بهم بخارى ، ومدن العالم الاسلامي الاخرى تحسدها على وجودهم بها . ويقول مقرظو اسماعيل ان صيت بخارى بهؤلاء العلماء هو الذي حدا بالامير الساماني الكبير الى ان يتخذهـا حاضرة لـه بدل سمرقند . ومهمـا يكن فقد عـرف اسماعيـل نفسه بالتقـوى والاستمساك بالشرق وبرعايته للعلماء حتى قدم اليه كثير منهم من اماكن بعيدة ليستكملوا دراستهم في مدرسته او ليقضوا حياتهم في التأمل والبحث بدار كتبه التي حبس عليها الحبوس .

« ويحدثنا التاريخ عمن يدعى حاشد الصوفي وكان اميرا عالي المقام بدمشق ، قدم بخارى ليقضي بقية ايامه في عزلة وتأمل ديني . وبقي هناك حتى مات عـام ٨٠٩/٢٤٦ . وما غدا هـذا الشعور القومي الذي بعث مـن جديد بايران في ظل السامانيين ، بالاضافة الى انعطافاته الدينية ، ان خطا اول خطوة لاحياء اللغة الفارسية وآدابها من جديد ، فانتعش اللسان الفارسي المتناسق مرة اخرى في عهد نصر واسماعيل بعد ان كان حكام العرب قد حرموه على الناس لاكثر من مائتي عام . وعلى خلاف ما حدث عند شعوب آسيا التي دخلت في الاسلام في وقت متأخر فدخل في لغاتهم ، مع الثقافة الاسلامية ، قدر كبير من الكلمات والمصطلحات العربية ، فان الشعر الفارسي قد احتفظ اول الامر بنقائه تاما ، ذلك النقاء الذي هو سر الجمال في اشعار ابي الحسن الرودكي واغلب اشعار الفردوسي الخالد الغنائية .

« كان اسماعيل (او الامير اسماعيل على ما كان يلقبه المؤرخون الشرقيون باعتبار استقلاله الظاهر عن بغداد) هو الرجل الوحيد الجدير بهذه الحقبة المشهورة في تاريخ آسيا الوسطى . فلم يكن في شجاعته دون مؤسسي دول الصفاريين او الديالمة أو البويهيين ، كما كان يشتهر فوق ذلك بتقواه وعدله ورحمته وميله الى العلم . ولقد ترامى الى سمعه ذات يوم ان جباة الخراج في الري يطففون بموازين ثقيلة زائفة ، فبعث برسوله من فوره ليأتيه بتلك الاثقال في حرز الى بخارى ويوقف الجابي عن عمله ويغلق ادارته حتى تصب الاثقال على حقيقتها وتعاد الى هناك . . . .

« اشرنا من قبل الى كلف اسماعيل بتلك المدينة الواقعة على زرفشان وتفضيله لها على غيرها . وهو وان لم يستطع ان يبلغ بها ما بلغه تيمور ، مثلا ، بسمرقند ، الا ان ذكراه ستبقى ماثلة على الدوام في اذهان سكان بخارى الاصليين بوصفه الامير

العظيم الحقيقي الوحيد . ونذكر من بين المنشآت التي اقامها اسماعيل ، اولا ، ذلك القصر الذي يقع على ريغستان . وكان قد شرع في بنائه اصلا قبل الاسلام ، حتى جاء اسماعيل فقام بتوسيعه وزخرفته ليصير بذلك مقرا للامير الحاكم وكبار رجال الدولة . ويأتي من بعده قصر موليان الذي اقامه على ضفاف القناة التي تعرف بهذا الاسم في بذخ يليق بعظمة الامراء . ويشتهر هذا القصر بروعة بنائه . وكانت تحيط به الحدائق والمروج واحواض الزهر وفيها النافورات والغدران الجارية . وعانى اسماعيل مشقة شديدة لمده بالماء الذي جلب اليه في قنوات اجروها ، بدقة ، اليه من النهر الذي يجري باعلى المدينة . كذلك مد اسماعيل اسوار المدينة وحصنها ، وكانت هذه قد بناها الحاكم ابو العباس الطوسي في عهد الخليفة المهدي .

« ويقال ان عدد المدارس الجامعة ببخارى كان في عهد اسماعيل يزيد على نظائره في كل مدن آسيا ، حتى لنرى بلخ وهي التي تعرف بقبة الاسلام ، لم تستطع ان تبرز لتنافسها الا بعد ذلك بكثير . واخذت هذه المدينة التي تقوم على شاطىء زرفشان ، والتي غدت قلب نصف آسيا الاسلامية ، تزدهر ويعلو قدرها يوما عن يوم بوصفها قصبة المال والعلم ومركز انتاج الحرير الذائع الصيت كذلك . ولقد جنى اسماعيل خير الثمار من وراء حروبه الطويلة وان لم يمتد به الاجل طويلا لينعم بالملك ، فقد نزل به الداء في قصره الواقع على قناة موليان فنصحه طبيبه ان يغادر المكان لرطوبته الى مصطاده في زرمان ، حيث وافاه الاجل به بعد قليل مساء الثلاثاء من صفر عام ٢٩٥/٩٠٧ وهو في الحادية والستين من عمره ، بعد ان حكم اربعة وثلاثين عاما قضى بضع سنين منها عاملا لاخيه على بخارى ، وكان في باقيها حاكما مستقلا على القسم الشرقي من آسيا الاسلامية » .

الخاتمة

(١١)

لا نود ان نكثر من النقل عن الجغرافيين البلدانيين ما ذكروه عن مدن خراسان وما وراء النهر . فذلك من المتيسر الحصول عليه في مظانه(٣٩) . كما اننا لا نعتزم البحث عن الحياة العلمية في بغداد وحلب ودمشق وغيرها في عصر الفارابي ، فتلك امور كتب فيها الكثير الكثير .

ولكن الذي رمينا اليه من هذه العجالة هو ان نضع بين ايدي القارىء فكرة ، ولو مقتضبة ، عن البلاد التي عاش فيها الفارابي الخمسين سنة الاولى من حياته ، وهي السنون التي كونت الاسس الاولى لشخصيته العلمية والفكرية وهيأته لان

يعب مما عرفته بغداد شبعه ، ثم يعكف على الكتابة والتأليف ، بحيث تبوا هذا المقام الرفيع في عالم الفكر الاسلامي .

فنحن اذا لم نأخذ براي ولتزر بان الفارابي قد يكون عرف بغداد لما كان ابوه قائدا فيها (٤٠) . او براي من قال بان الفارابي لعله اتصل بيوحنا بن حيان ايام كان هذا في مرو ، وهي رواية ضعيفة ، فنحن يتوجب علينا القول بان الرجل قد التقى الكثيرين من اهل العلم والمعرفة ، من المسلمين وغيرهم ، في هذه الرقعة الواسعة الممتدة من فاراب ، شمالي نهر سيحون ، الى بغداد ، على دجلة ، والتي كانت عامرة بالجوامع والربط والمدارس والديارات ومليئة بالمحدثين والفقهاء والفلاسفة والعلماء والتجار الذين كانوا يفدون الى مدنها من الصين والهند وتركستان وايران والعراق وغيرها . وكل واحد من هؤلاء كان يحمل معه اراء وافكارا ومعرفة .

والفارابي الطلعة كان يتزود من كل هؤلاء .

اما في اي مدرسة جلس على اقدام اهل العلم ، ومن هم شيوخه الذين نقل عنهم ، ومن هم معلموه من غير المسلمين ، فهي اسئلة لا يمكن الاجابة عنها في حدود ما بين ايدينا من المصادر .

* * *

الهوامش

(١) راجع مثلا مصطفى عبد الرازق ـ **فيلسوف العرب والمعلم الثاني** (القاهرة ، ١٩٤٥) ص ٥٥ـ٦٤. وقد ناقش روايات القدامى مناقشة علمية ووصل الى استنتاجات منطقية . سعيد زايد ـ **الفارابي** (القاهرة ، ١٩٦٢) ص ١٤ ـ ١٧ ،وهو يقبل اراء عبد الرازق . ماكس مايرهوف «من الاسكندرية الى بغداد » في ترجمة عبد الرحمن بدوي ـ **التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية** (القاهرة ، ١٩٤٠) ص ٧٨ ـ ٨٠ ، راجع كذلك
R. Walzer, al-Farabi in E. I.2

(٢) راجع مثلا ابن ابي اصيبعة **عيون الابناء في طبقات الاطباء** ، تحقيق نزار رضا (بيروت ، ١٩٦٥) ص ٦٠٣ ـ ٦٠٩ ، ابن خلكان ـ **وفيات الاعيان** ، تحقيق احسان عباس (بيروت ، ١٩٧٢) م٥ ص ص ١٥٣ ـ ١٥٧ ، البيهقي ـ **تاريخ حكماء الاسلام** (دمشق ،المجمع العلمي العربي ،١٩٤٦) ص ٣٠ـ٣٥، القفطي ـ **تاريخ الحكماء** (ليبزغ ، ١٩٠٤) ص ٢٧٧ ـ ٢٨٠ ، ابن النديم **الفهرست**(ليبزغ ، ١٨٧١).

(٣) ابن حوقل **صورة الارض** (طبعة كرامر) نشر بيروت (لاتا) ص ٤١٨ . وابن حوقل هو الوحيد ، فيما وصل الينا ، الذي ذكر ذلك على التخصيص .

(٤) يرى ر. ولتزر ان الفارابي قد يكون ذهب الى بغداد قبل ذلك . راجع المصدر السابق .

(٥) راجع W. Barthold - **Turkestan down to the Mongol Invasion** (London, 1982), pp. 180-186; W. Barthold - **Four Studies on the History of Central Asia** vol. I (Leiden, 1956), pp. 1-17; Richard N. Frye - **The Heritage of Persia** (New York, 1966), pp. 79-262; Gregoire Frumkin - **Archaeology in Soviet Central Asia** (Leiden / Koeln, 1970), passim; Gavin Hambly (ed.) **Central Asia** (New York, 1969), pp. 19-62 ; C. G. F. Simkin - **The Traditional Trade of Asia** (London, 1968) pp. 1-61.

(٦) Simkin, pp. 2-7; Hambly, pp. 22 ff.

(٧) Barthold, **Four Studies**, I pp. 3-4.

(٨) Edgar Knobloch - **Beyond the Oxus** (London, 1972), pp. 52-53; Frye, ibed, pp. 170-2, 194-204.

(٩) راجع Simkin, pp. 29-38

(١٠) Hambly, pp. 49-50; Frye, ibed, pp. 225-234.

(١١) Simkin, p. 58

(١٢) Frey, ibed, p. 289 (map) and p. XV (notes)

(١٣) راجع Simkin, pp. 63-73 وقد اورد المؤلف هناك مصادره ومراجعه فيمكن الاستئناس بها .

(١٤) المكان نفسه .

(١٥) راجع
Frye - **Bukhara** (Norman, 1965) pp. 8 - 10.
وكذلك ارمينوس فامبري - **تاريخ بخارى** ، الترجمةالعربية ، لاحمد محمود الساداتي ومراجعة يحيى الخشاب (القاهرة ، لاتا) ص ٥١ .

(١٦) في سبيل الحصول على تفاصيل تتعلق بهذا الجزء من البحث ، يراجع : مقال ماكس مايرهوف المذكور انفا وكتاب فامبري المذكور ص ٢٧ - ٥٦ ،
De Lacy O'Leary - **How Greek Sciences Passed to the Arabs** (London, 1948), pp. 19-95, 110-119; R. Segal - Edessa, **The Blessed City** (London 1973) pp. 149-152, 165-172, 210-212; Articles in E. I. Nishapur, Orfa,- Samarkand and Tashkent and in E. I. 2 Balkh , Bukhara, Harran and Khwarizm; Knobloch, op. cit., pp. 48-60; Glanville Downey - **Gaza in the Early Sixth Century** (Norman, 1963), pp. 99-162; Glanville Downey- **History of Antioch** (Princeton, 1961) pp. Richard N. Frye - **Heritage of Persia** (New York, 1966) pp. 205-262; Joseph Needham **Science and Civilization in China,** vo. I (Cambridge, 1954) pp. 170-214; E. H. Shafer -**The Golden Peaches of Samarkend** (Berkely & Los Angeles, 1963).

(١٧) يمكن العثور على تفاصيل تتعلق بالفتوح والدول التي قامت في المنطقة التي تعنينا في ، على سبيل المثال ، البلاذري - **فتوح البلدان** تحقيق صلاح الدين المنجد الجزء الثالث (القاهرة ، لاتا) ص ٤٩٩ - ٥٢٩ ، فيليب حتي - **تاريخ العرب** مطول الطبعة الثالثة ، الجزء الاول (بيروت ، ١٩٦١) ص ٢٠٩ - ٢١٤ ، ٢٧٣ - ٢٧٦ ، الجزء الثاني الطبعة الثالثة (بيروت ، ١٩٦١) ص ٥٥٤ - ٥٥٧ ، ص ٥٤٩ - ٥٥١ ،
Barthold, **Turkestan,** pp. 180-235; Bertold Spuler - **Iran in Frueh - Islamischer Zeit** (Wiesbaden, 1952) pp. 3-132; C. E. Bosworth - **Islamic Dynasties** (Edinburgh, 1967) pp. 49-51, 99-111.

(١٨) راجع ، على سبيل المثال ، اليعقوبي - **كتاب البلدان** (ليدن ، ١٨٩١) ص ٢٨٨ ، ابن حوقل ص ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٨ ، ٤٠٦ ، الاصطخري ص ١٦٧ .

(١٩) الاصطخري - **المسالك والممالك** تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني (القاهرة ، ١٣٨١ - ١٩٦١) ١٥٣ ، ١٥٧ ، ابن حوقل ٣٥٨ .

(٢٠) المقدسي - **احسن التقاسيم** (ليدن ، ١٩٠٦) ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ ، ٢٩٣ .

(٢١) ابن حوقل ٣٦٠ - ٦١ ٣٠

(٢٢) ابن حوقل ص ٣٦١ - ٣٧٧ ، راجع ايضا **الاصطخري ص ١٤٥ - ١٥٨** .

(٢٣) راجع وصف القبة عند الاصطخري ص ١٤٧

(٢٤) **الاصطخري ١٦١ ١٦٦** .

(٢٥) كي ليسترنج ـ **بلدان الخلافة الاسلامية** (الترجمة العربية من عمل بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بغداد ، ١٩٥٤) ص ٤٧٦ .

(٢٦) راجع ابن رسته ص ٩٢ و ٩٣ ، الاصطخري ص ١٦٦ ـ ١٦٧ ، المقدسي ٣٠٣ .

(٢٧) الاصطخري ١٦٧

(٢٧ آ) الاصطخري ص ١٦٧ ـ ١٨٦ .

(٢٨) راجع
C. E. Bosworth - **The Ghaznawids** (Edinburgh, 1963) pp. 154-5, 206-9, 214 - 15;
احمد بن فضلان ـ **رسالة ابن فضلان** تحقيق سامي الدهان (دمشق ، ١٣٧٩ ـ ١٩٥٩) ص ٨٦ ـ ٨٨ .

(٢٩) المقدسي ـ **احسن التقاسيم** (ليدن ، ١٩٠٦)ص ٣٤٠ .

(٣٠) للحصول على تفصيل لورود الاتراك الى دار الخلافة ، وللاطلاع على المصادر الاصلية للاخبار ، راجع زكريا كتابجي ـ **الترك في مؤلفات الجاحظ** (بيروت ، ١٩٧٢) ص ٩٣ ـ ١٨٤٤ .

(٣١) Bosworth, pp. 211-13.

(٣٢) ياقوت الحموي ـ **معجم البلدان** مادة مرو .

(٣٣) المقدسي ص ٣١٥ .

(٣٤) لسترانج (الترجمة العربية) ص ٤٦٤ .

(٣٥) ناجي معروف ـ **مدارس قبل النظامية** (بغداد ، ١٣٩٣ ـ ١٩٧٣) ص ٦٩ ـ ٧٠ .

(٣٦) Bosworth, **The Ghaznawids** pp. 149-202; Spuler, op. cit. passim.

(٣٧) Frye, **Bukhara**, pp. 50-100

(٣٨) فانبري ص ١٠٥ ـ ١١٠ .

(٣٩) يمكن الرجوع الي الذين لم نقتبس عنهم على الوجه الاتي :
نيسابور ـ ابن رسته ص ١٧١ ، المقدسي ص ٣٠٠ ، ٣١٤ ـ ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٩ . مرو ـ اليعقوبي ص ٢٨٠ ، المقدسي ٢٦٩ ، ٢٩٨ ، ٣١٠ ـ ٣١٢ ، ٣٢٠ ، ٣٣١ ، هراة ـ ابن رسته ص ١٧٣ ، المقدسي ٣٢٩ ، ٣٣٠ . بلخ ـ اليعقوبي ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ . سمرقند ـ المقدسي ص ٢٧٨ . خوارزم ـ المقدسي ص ٢٨٤ ـ ٢٨٦ . وهنا موضع للاشادة بكتاب لسترانج **بلدان الخلافة الشرقية** في ترجمته العربية . فالمؤلف اصلا اعتمد على المصادر العربية والاسلامية في وضع كتابه ، وقد قام المترجمان بنقل المادة نقلا صحيحا دقيقا ثم علقا عليها بفوائد كثيرة لم يكن لسترانج قد وقع عليها لما نشر كتابه في اصله الانكليزي (سنة ١٩٠٥) . والقسم الخاص **بحثنا من هذا الكتاب هو المشمول** بالصفحات ٤٢٣ ـ ٥٣٢ .

(٤٠) راجع مقاله عن الفرارابي في E. I. 2 (Farabi)